عبد الفتاح عبد الخالق سمك

(١)

أهل بدر

موسوعة تاريخية ثقافية أدبية

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

أميرة للطباعة - ت : ٣٩١٥٨١٧

الإهـــــــــداء

أيها الباحثون عن المثل العليا ..

يا من تنشدون الكمال البشريّ ..

دونكم أهل بدر ..

كأن اللـه قد اطلع عليهم ثم قال لهم ..

إعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

استغرق الإعداد لهذه الموسوعة ثلاثة عشر عامًا، وتـم تحرير هذا الجزء منها في عـام كامل.

وأهل بدر جديرون ببذل العمر كله من أجلهم، حيث كانوا هم حماة الدين، الذين قدموا أنفسهم يبذلونها للدفاع عنه على غير أهبة واستعداد، فحقق اللـه لهم النصر، وحفظ لهم أرواحهم، وبشرهم بالمغفرة وإن فعلوا ما يشاءون.

على أن أهل بدر وإن كانوا في البشرى سواء، فإنهم يتفـاوتون في الشـهرة، حيث إن الله رزق بعضهم الشهرة، فَعَرَفَ اسمه القاصي والداني، وأكثرهم قد تقرأ عشرات المراجع فلا تعرف عنه إلا اسمه، فأخذت على نفسي أن أنقب ـ قدر طاقتي ـ عن غير المشهورين منهم أولاً، عسى اللـه أن يأجرني بذكرهم فيذكرني ـ إن شاء الله ـ عنده.

ولكنـك ستجد في الكتاب مناقشة لقضايا معاصرة أثار الكلام عنها مواقف البدريين، فلا يأخذك العجب إذا استغرق الكلام عن هـذه القضايا بالقدر الذي يوضح فكرتها ومرماها.

وإنك لواجد نتفًا من التاريخ، ومواقف لغير البدريين يقتضي المقـام ذكرهـا، يخرج لك في النهاية ـ بإذن اللـه ـ كتابًا مكتملاً من المعرفة بمعناها الموسوعي تدعـو الحاجة إليه للمثقفين بمثل ما تدعو الحاجة إلى إبراز نماذج إنسـانية ترسـم مثلاً عليـا للشباب بعد أن كثرت تراجم أهل اللهو، وتقلص في وسائل الإعلام مـا يذكر بأمثلة الرجولة الكاملة، وحتى المرأة الكاملة.

وإنك لواجد بعد ذلك عبارة لـم أتكلف في الارتفاع بها، ولـم أتكلف كذلك في تيسيرها، وتركتها على السجية حتى لا أنشغل بها عن فكرة أو حدث.

إنني من المحبين للغة العربيـة، الحريصين عليهـا، الواثقين في قدرتهـا على حمل أي مفهوم، وأي عبارة، وأي اتجاه، وأي مصطلح، وأنا من المؤمنين كذلـك ببقائهـا وحفظهـا بحفظ اللـه الذي حفظ الذكر، وهي وعاؤه، ولا يحفظ القرآن إلا بحفظ لغته.

يبعد المسلمون عن اللغة أو يقتربون، يستلذون الفصاحة أو يستعذبون الركاكة، أو يجنحون إلى الجزالة، لكنهم في كل حين مشغولون بلغتهم، والعمل الذي يكتب له البقاء في لغتنا هو الذي كتب بها بلسان عربي مبين.

اللهم علمنا ما جهلنا، وانفعنا بما علمتنا

عبدالفتاح سمك



يوم الفرقان

يتساءلون! وأولى لهم، ثم أولى لهم أن لا يتساءلوا !.

إذ أن السؤال - على منطقية لفظه وعبارته - إنما ينطوي على هشاشة في الفهم، سببها إما السذاجة أو قلة العلم، وهما نقيصتان في الإنسان، ونقيصتان أشد في المسلم، إذ أن المسلم كيّس فطن، والفطنة تناقض السذاجة وتنفر منها، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وقلة العلم دليل على تقصير المسلم في القيام بواجب فرض الله عليه أن يقوم به.

ولكن عمّ يتساءلون وفيم يختصمون

يتساءلون عن جبروت الكفر وذلة المؤمنين، فالكفر مدجّج بالسلاح، معبأ بالبارود والذرة، مدرّع بعلوم الحرب، خبير بصناعة أسلحتها، وصنع أسبابها.

ثم هو متربص بالمسلمين يصيبهم كل يوم في مقتل، ويتداعى عليهم كل حين في مذبحة، ويريق في كل أرض يقيمون عليها حمامًا من الدماء الرخيصة عليه.

الإبادة الجماعية في البلقان تزعج الأرض والسماء، وسحق المسلمين وتدمير مساجدهم ومساكنهم في الهند والفيلبين، وفي تايلاند وكمبوديا، وفي سيلان والصين، وفي الشيشان وكل القوقاز، وفي لبنان وفلسطين، لم تعد سرًا يخفيه الكافرون، وإنما أضحت مصدرًا للفخر والزهو، ومادة للدعاية وابتزاز الأموال فأنت تدفع دولارًا لتقتل مسلمًا، ودفعك للدولار قُرْبى تدنيك من الملكوت وتسكنك في الرب، وإن كانت قربتك دولارين فانت أكثر إيمانًا، ويتضاعف إيمانك كلما أمعنت في الدفع ليمعن السفاكون في قتل المسلمين بصليبية حاقدة، وصهيونية بدت فيها العداوة والبغضاء، وأضمرت للإسلام

وأهله قلوبًا قاسية، وعقولاً متآمرة، وأظهرت ألسنة حادة وأسلحة فاتكة ما كان مادته النار والحديد، وما كان عنصره الحصار والتجويع والتشريد بقصد الإذلال والمهانة للمسلمين، وإطفاء النور وطمس البهاء للإسلام.

وقد أفلح حلف الضلالة في الهدف الأول فأوقعوا الفتنة بين المسلمين وفرقوهم شيعًا وأحزابًا متنافرة أو متقاتلة، ومزقوا أخوّتهم وتركوا البنيان المرصوص لبنات مختلة النظام، ونزعوا الثقة التي في قلوبهم لبعضهم، وحاكوا المؤامرات وأشعلوا الفتن، فانشغل المسلمون ببعضهم، وأصبح بأسهم بينهم شديدًا، وتخاذلوا وانخذلوا أمام غيرهم فإذا هم غثاء كغثاء السيل على غرار ما أخبر به النبي ﷺ .

وإذ أفلح الصليبيون والصهيونيون في إذهاب ريح المسلمين وتفتيت قوتهم فإنهم فشلوا فشلاً ذريعًا في تحقيق الهدف الأعظم لهم، والذي ظنوا - خطأ وجهلاً - أنهم بالغوه، ومتوصلون إليه بانهزام المسلمين، وهو هدف إطفاء نور الله، والقضاء على دينه، ذلك أن المسلمين كلما أمعنوا في الخذلان كلما أمعن نور الإسلام في التألق والوضاءة، لأن أي خذلان ينحدرون إليه يكون سببه تخلف شرط من شروط المنعة والقوة التي أرشدهم دينهم إليها، ولأنه في خضم هذا الجزر المخزي لعزة المسلمين تبرز طائفة ظاهرة بالحق تتمسك به وتعمل له، وتجاهد في سبيله ولا يضرهم من عاداهم، فدين الله ظاهر على الدين كله، بعقيدته البيضاء النقية، وشرائعه الهادية النافعة المصلحة للعلاقات بين الناس، والصالحة للأزمنة كلها، والأمكنة جميعها، وآدابه الحكيمة التي تهب كل إنسان حريته، وتحفظ أواصر المحبة والترابط بين الأرحام والأنساب والجيران ورفقاء الطريق وزملاء العمل وشركاء البيع والشراء.

فالمسلمون يتقلبون بين تنكب الطريق أو السير على محجته البيضاء، ينهضون أو يهانون، يسودون أو يستذلون، ولكن الإسلام ظاهر في نهضتهم وظاهر في هوانهم ،حتى تظل المنارة هادية ليحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

من أجل ذلك يتساءلون، لقد تظاهر علينا الأعداء من كل صوب، وهم يملكون العدة ونحن مجردون منها، ويملكون العلم ونحن لا نملكه، ويحظرون علينا أن نعرفه، فكيف نتغلب عليهم، إن الحساب لصالحهم وليس لصالحنا، والعزة لهم وليست لنا.

ومصدر السذاجة في هذا التساؤل أن المتسائلين يحسبون القوة بعدد الجنود المقاتلين، وعدد الأسلحة والطائرات والقنابل والمدافع وقدرة الأقمار الصناعية على رصد ما يمتلكه

الخصم من تجهيزات وآليات.

متى كان عدد المسلمين أكثر من عدد أعدائهم؟

ومتى كانت القوة المادية للمسلمين أكبر من قوى أعدائهم؟

لم تحدث معركة واحدة على مدار الزمان بين المسلمين والكفار وكان المسلمون عددهم أكبر أو سلاحهم أعظم أو أهبتهم أتم، إذ لو حدث لأصبح المسلمون ظلاّمًا معتدين، لأن صاحب العدد الأقل أو العدة الأضعف لا ينهض للهجوم على من هو أقوى، وإنما هو يتوقّى مقاتلته إلا إذا هاجمه القوي، فعند ذلك ينهض الضعيف للدفاع عن نفسه ومقاومة العدوان، أو يستسلم له.

والمؤمنون في كل عصر مبتلون بالأعداء ذوي العدد الأكثر والعتاد الأكبر، فهم يتوقون القتال، ولكن إذا فرض عليهم دفاعًا عن عقيدة، أو ردًا لاعتداء، فإنهم المجاهدون البسلاء الذين يستنصرون ربهم فيمدهم بتأييد يحقق لهم النصر إذْ نصروه من قبل ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ** ﴾ (الحج٤٠).

لم يؤمن مع نوح عليه السلام إلا قليل ونصرهم المولى جل شأنه فأغرق أعداءهم ونجاهم.

وفرعون ذو الأوتاد حشد لبني إسرائيل وحشر لهم حتى قال أصحاب موسى إنا لمدركون فقال لهم: إن معي ربي سيهدين، ففلق الله لهم في البحر اثني عشر طريقًا.

وقال أصحاب طالوت لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده فقال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله.

إن المسلمين مطالبون بإعداد ما يستطيعون من قوة، لا فوق ما يستطيعون ولكن نصرهم يتوقف على قربهم من الله ولجوئهم إليه وتوكلهم عليه فعند ذلك يمدهم من قوته التي لا تقهر، ومن جبروته الذي يعزز أولياءه ويذل أعداءه.

وسبب الهزائم المتلاحقة للمسلمين أنهم يتخذون من منطق الكفار في حساب القوة منطلقًا لهم، وحين يصبح الحساب عددًا بعدد وعدة بعدّة تكون كفة الكفار أرجح ويغلبون المسلمين، لأن الله وكلهم للعدد والسلاح.

أما إذا كان اعتمادهم على قوة الله الذي يعبدونه وينصرونه ويتقربون إليه بالصالح من الأعمال، والسديد من الأقوال، ويتذللون إليه بالعبادة والدعاء، فإن نصره لا يتخلف عنهم أبدًا، وما غزوة بدر إلا بيانًا عمليًا للمسلمين يبين أن سنة الله جارية في خلقه بأن ينصر من ينصره، حتى لو تخلفت كل أسباب الانتصار المادية فالله هو الذي يقاتل ويرمي ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾ (الأنفال ١٧).



قصة بدر

كان المكيون أعداءً شرسين للإسلام، وهم أول فريق يناوئه من الكفار، وكان المسلمون يشعرون بالضعف والقلة، فكانت مقاومتهم بالصمود، وجهادهم ينحصر في تحمّل الأذى وليس في القتال.

زادت عداوة المكيين للإسلام بعد الهجرة المباركة، فانتهبوا أموال المسلمين وممتلكاتهم وتصرفوا فيها مثل تصرف المالك في ملكه.

ولكن الإسلام ولم يسلم بعد من عداوة قريش يواجه باليهود في المدينة وقد أظهروا له العداوة والبغضاء إذْ سوّده الأوس والخزرج ودانوا له بالولاء، ودخل معظمهم في دين الله أفواجًا، وأراد النبي ﷺ إبراء ذمته مع اليهود متجاهلاً ما بدا عليهم من ضغينة فعقد معهم معاهدة جعل لهم من حقوق المواطنة مثل ما للمسلمين، وترك لهم حرية الاعتقاد والعبادة، فهل يترك زعماءُ اليهود دعوته تنتشر، مكتفين بالأمن الذي ضمنه لهم ويتفرغون لتنمية تجارتهم، وثرواتهم الطائلة.

ربما كان ذلك ممكنًا لو أمنوا أن لا تمتد دعوته إلى عامة اليهود فينتزع النبوة من بني إسرائيل.

وبلغ حقد اليهود وغيظهم مداه بعد إسلام أحد كبار أحبارهم عبد الله بن سلام، فنشبت مجادلات بين المسلمين واليهود أشد مما كانت بين المسلمين والمشركين، أدت إلى إنكار اليهود ما بقي من صحيح التوراة، واستعمالهم وسائل الدسيسة والنفاق ثم استثمروا ما عندهم من أخبار الأمم السابقة أسوأ استثمار لخداع النبي ﷺ أولاً بأنه لو كان نبيًا حقًا لتوجه للإقامة في بيت المقدس، أو لجعل قبلته إليه، ثم لخداع المشركين بإيهامهم بكذبه وأنهم بعبادتهم الأصنام هم الذين على الحق، ثم يوغرون صدورهم على المسلمين لإذكاء نار العداوة حتى ينشغل المسلمون عن نشر دعوتهم وإقامة مجتمعهم الفاضل، الذي سيظهر - أول ما يظهر - خسّة اليهود، وسوء تعاملهم مع الحياة والبشر.

وكان المسلمون يسلكون في مواجهة كيد اليهود وعداوة المشركين مسلكين متوازيين. فهم يجادلون بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتولى الله عز وجل بالوحي تفنيد مزاعم اليهود وإبطال كيدهم، وكشف طوايا نفوسهم، وسواد قلوبهم.

وهم يظهرون قوتهم أمام عداوة قريش بالسرايا التي تروعهم وتصل إلى مشارف مكة أو

تلاحق قوافل التجارة، ثم بالغزوات التي كان يقودها النبي ﷺ مثل غزوات ودان وبواط والعشيرة وسفوان التي تسمى بدر الأولى.

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن السرية التي قادها عبد الله بن جحش ﷺ كانت هي المقدمة التي نتج عنها غزوة بدر، حيث بعثه النبي ﷺ باثني عشر رجلاً للتجسس على قريش غير أن قافلة لقريش مرت بهم وهم في مكمنهم فأجمعوا أمرهم على اقتناص القافلة وفاء لبعض حقوق المهاجرين الذين استلبها أهل مكة واستحلوها، وحدث رمي بين الفريقين أدى إلى أن أطلق واقد بن عبد الله ﷺ سهمًا قتل عمرو بن الحضرمي، ففر المشركون وغنم المسلمون القافلة وأسروا اثنين.

ولو أعرضنا عن تفاصيل الجدل الذي ثار حول السرية والقتال في الشهر الحرام، فإن هذه السرية تركت ثأرًا بين المسلمين والمشركين بحيث كان المشركون يتحينون الفرصة لقتال المسلمين حتى يأخذوا بثأرهم ويستعيدوا ما فقدوه من كرامتهم، وقد جاءتهم الفرصة في بدر الكبرى، ولكن لتهدر ما بقي لهم من كرامة.

أحداث الغزوة

بدأت أحداث بدر قبل سرية عبد الله بن جحش وهي غزوة العشيرة التي سميت بدر الأولى حيث سمع النبي ﷺ أن قريشًا أرسلت أكبر قافلة إلى الشام في تاريخها للتجارة، فترصد لها ليغنم أموالها تعويضًا للمهاجرين عما فقدوه في مكة، ولكن القافلة كانت قد أفلتت، فعاد إلى المدينة دون أن يواجه قريشًا.

بعد عدة أشهر وفي موعد رجوع العير، قال النبي ﷺ لأصحابه: هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فخف بعضهم، وثقل آخرون لظنهم أن المسلمين لن يواجهوا حربًا، ولم يعزم النبي ﷺ عليهم بالخروج وإنما تركه أمرًا اختياريًا، وقال: من كان ظهره حاضرًا فليركب معنا.

لكن أبا سفيان قائد القافلة — وقد بلغه نبأ خروج المسلمين وهو في طريقه إلى الشام - أخذ جانب الحذر في العودة، فأرسل من يستطلع له أمر المسلمين، وعندما علم بخروجهم فإنه اتخذ قرارين، أما الأول فهو أن يرسل إلى أهل مكة يطلب منهم العون حتى تمر قافلتهم، وكان القرار الثاني هو أن يسلك بالقافلة طريقًا غير الطريق الذي يمرّ ببدر، ثم

إنه عندما اطمأن إلى نجاة قافلته فإنه أرسل رسولاً آخر إلى أهل مكة يطمئنهم على سلامة القافلة، ويشير عليهم بعدم الخروج لحرب المسلمين، لكن قريشًا كانت قد أعدت عدتها، واستنفرت عداوتها وركبت رأسها، حتى قال أبو جهل أبرز زعمائها، والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليها ثلاثًا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا.

لم يقنع أبوجهل بنجاة القافلة، وعلى الرغم من إصراره فقد رجع بنوزهرة، وبنوعدي، وودّ كثير من القرشيين أن يرجعوا لولا خوفهم من سلاطة لسان أبي جهل ومن شايعه، وتعلل بعضهم بأن الثار بين كنانة وقريش قد يدفع كنانة لمهاجمتهم من خلفهم لو خرجوا للقاء المسلمين، ولكن مالك بن جعشم المدلجي أحد وجهاء كنانة جاء إلى مكة وقال لهم: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، وإذ ذاك رجحت كفة أبي جهل وعامر الحضرمي والداعين إلى الخروج، ولكن أمية بن خلف أراد القعود، وكان شيخًا جسيمًا ثقيلاً، فأتاه عقبة بن أبي معيط بالمسجد ومعه أبوجهل، وكان مع عقبة بجمرة فيها بخور، ومع أبي جهل مكحلة فيها مرود، فوضع عقبة المجمرة بين يديه، وقال: ياأبا عليّ: استجمر فإنما أنت من النساء، وقال أبوجهل: اكتحل أبا علي فإنما أنت امرأة، فقال أمية: ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي، وخرج معهم، فلم يبق بمكة متخلف قادر على القتال غير بني زهرة وبني عدي، وأبي لهب الذي أناب عنه شخصًا في مقابل أن يعفيه من دين له عليه.

حين خرج المسلمون للقاء العير كان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، واستعمل النبي ﷺ عبدالله بن مكتوم ليصلي بالناس، وفي الروحاء ردّ أبا لبابة واستعمله على المدينة، وكانت إبلهم سبعين بعيرًا يعتقبونها، وكان النبي ﷺ وعلي ومرثد بن أبي مرثد يعتقبون بعيرًا، وأبوبكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف يعتقبون بعيرًا، وخرجت الرسل تتعقب أخبار القافلة حتى أتوا وادي ذفران فعرفوا أن القافلة قد أفلتت، وأن قريشًا قد زحفت إليهم بأحقادها وعتادها وعددها، فأصبحوا بين أمرين:

إما أن ينسحبوا إلى المدينة فينالهم من أذى اليهود وتحرش المشركين ما لا طاقة لهم به، وإما أن يواجهوا أهل مكة الذين يفوقونهم في العدد والعدة والأهبة النفسية.

لم يكن الخيار سهلاً، ولم يكن المسلم ليرضى الدنية في دينه، وإن كان المسلمون قد هادنوا، فإنما من أجل أن يقيموا دولتهم، ليعطوا المثل الأعلى للحياة الرضية المستقيمة، ولكن مدافعة الأعداء هو من عناصر هذه الحياة.

كذلك لـم يكن النبي ﷺ ليدفعهم إلى الحرب دفعًا، وإنما لابد أن يكون الدافع نابعًا من أنفسهم، فاستشار الناس وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش، فتكلم كبار الصحابة وأحسنوا، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، وسكت الناس، فقال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس، وكان يريد الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، ولم يبايعوه على رد اعتداء خارج مدينتهم، فلما أحس الأنصار أنه يريدهم قام سعد بن معاذ صاحب رايتهم وقال: وكأنك تريدنا يارسول الله قال: أجل، قال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، ومانكره أن تلقى بنا العدو غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء.

وتخير النبي ﷺ للمسلمين مكانًا فأشار عليه الحباب بن المنذر بغيره ونزل النبي ﷺ على مشورته، وأتوا أدنى ماء من القوم وغوروا ما وراءه من الآبار، وبنوا حوضًا ليشربوا هم ويتعب المشركون في البحث عن الماء، ثم قال سعد بن معاذ: يانبي الله، نبني لك عريشًا تكون فيه وتعدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يانبي الله، وما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى النبي ﷺ على سعد ودعا له بخير.

كان هذا معسكر المسلمين كتب عليهم القتال، وماكانوا يودونه، فإذا هم يموجون بالوفاء، ويمتلئون بالمحبة، ويتجاوبون بالإخلاص، ويبذلون المشورة الصادقة، ويعلنون الولاء والطاعة، ويجنحون لما أراد الله وقضى به، وإذ تساورهم أفكار المواجهة والنصر أو الهزيمة فإنهم حريصون على سلامة النبي ﷺ، وعلى الفوز بالنصر فهيئوا له العريش، وفتحوا باب الاتصال بينه وبين المدينة.

أما في معسكر المشركين وعددهم يقترب من الألف، فقد أكد لهم عيونهم أن عدد المسلمين يقل عن ثلث عددهم، وأنهم لا منعة لهم، ولا ملجأ إلا سيوفهم، فطمع المتهورون منهم في المسلمين، ولكن بعض حكمائهم خشوا أن تغلب قلة المسلمين كثرة

المشركين، فعند ذلك لا تبقى لمكة مكانة، ولا منزلة، ولم تمنع سلاطة لسان أبي جهل رجلاً مثل عتبة بن ربيعة أن يقف بينهم قائلاً: يامعشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض لما تكرهون.

فما بلغ أبا جهل مقالة عتبة استشاط غيظًا، وبعث إلى عامر الحضرمي يقول له: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثارك بعينك، فقم فأنشد مقتل أخيك. وقام عامر فصرخ: واعمراه!. فلم يبق من الحرب مفر، ثم إن الأسود بن عبدالأسد اندفع من صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذي بنوه، فعاجله حمزة بضربة قطعت ساقه، وبثانية قضت عليه، فخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة يطلبون المبارزة فخرج لهم حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث، فقتل حمزة شيبة، وقتل عليّ الوليد، وثبت عتبة أمام عبيدة، وأصاب كل واحد منهما الآخر، فأعان عبيدة عليٌّ وحمزة فقتل عتبة، ثم مات عبيدة ﷺ بعد بدر بقليل.

وقام النبي ﷺ فعدَّل الصفوف، واشتعلت المعركة، وعاد النبي ﷺ إلى العريش يتذلل ويبتهل ويجأر بالدعاء إلى الله: اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، ومازال يهتف بربه مادًا يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه، وجعل أبوبكر من ورائه يرد على منكبيه رداءه ويهيب به: يانبي الله، بعض بناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ماوعدك، ولكن النبي ﷺ ظل فيما هو فيه أشد ما يكون تضرعًا وتذللاً وخشية واستعانة حتى خفق رأسه بالنعاس فانتبه مستبشرًا، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول: والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.

ثم أمسك حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشًا وقال: شاهت الوجوه، وقذفها في وجوههم، فقال لأصحابه، شدوا، وشدّ المسلمون، وقد سرت فيهم نفحة من روح النبي ﷺ، وزادهم الإيمان ثباتًا وصبرًا، وأمدتهم الملائكة بالتثبيت والقوة، فلم يكونوا يقتلون، ولكن الله هو الذي يقتل، ومارموا حينئذ ولكن الله هو الذي رمى.

وانجلت المعركة عن مقتل أبي جهل وأعظم وجهاء مكة، وكان قتلاهم سبعين، وأسراهم سبعين، ولما كان آخر المعركة أمر النبي ﷺ بوضع جثث قتلى المشركين في قليب، وبعد أن أهيل عليهم التراب، وقف عليهم في جنح الليل مناديًا: ياأهل القليب،

ياعتبة بن ربيعة، وياشيبة بن ربيعة، ويأمية بن خلف، وياأباجهل بن هشام ـ واستمر يناديهم واحدًا بعد واحد ـ ياأهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا، فإني قد وجدت ماوعدني ربي حقًا، قال المسلمون: يارسول الله، أتنادي قومًا جيّفوا؟ قال ﷺ: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني، ونظر النبي ﷺ في وجه أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ﷺ، فوجده كئيبًا قد تغير لونه، فقال له: لعلك ياأباحذيفة قد دخلك من شأن أبيك شيء؟ قال أبوحذيفة: لا والله يارسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد أن كنت أرجو له أحزنني أمره، فقال له النبي ﷺ خيرًا ودعا له بخير.

ورغم أن قريشًا كانت تحمل قدرًا عظيمًا من الحقد على المسلمين، ورغبة دامية في القضاء عليهم، فإن النبي ﷺ أحسن إلى أسراهم، ولم يقتل منهم غير اثنين لم يألوا جهدًا في الكيد للإسلام ورسوله وأتباعه، وأخذ برأي الداعين إلى التسامح والفداء، وأعرض عن مشورة المطالبين بقتلهم جزاءً وفاقًا لما اقترفوه من جرائم وآثام، من باب الشر بالشر والبادئ أظلم، ولكن النبي ﷺ لم يكن ليواجه الإساءة بالإساءة خاصة في أول مواجهة كبرى مع المشركين، وبعد أن أنعم الله عيه بنصر كبير من عنده، فكان لابد أن يُعطي المثل في السماحة ورعاية الأرحام والعفو عند المقدرة.

وتبقى عدة مباحث يدعو إليها الحديث عن غزوة بدر:

المبحث الأول: الشورى

أورد القرطبي عن ابن عطية قوله: الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: وأمرهم شورى بينهم.

وقال أعرابي: ما غُبنت قط حتى يُغبن قومي، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لا أفعل حتى أشاورهم.

وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران ١٥٩) يدل على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالظنون مع إمكان الوحي، فالشورى مع عدم إمكان الوحي ألزم.

وإذا كانت مشاورة النبي ﷺ أصحابه في مكائد الحروب وعند لقاء العدو تطييبًا

لنفوسهم، ورفعًا لأقدارهم، وتآلفًا على دينهم مع أن الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه، فإن في مشاورتهم عطفًا عليهم، وذهابًا لأضغانهم، وإكرامًا لهم، وتعليمًا وتدريبًا على الشورى، وقد قال الحسن البصري: ما أمر الله تعالى نبيه المشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من فضل لتقتدي به أمته من بعده.

وقد قال النبي ﷺ: ماندم من استشار ولا خاب من استخار. وروى سهل بن سعد الساعدي أن النبي ﷺ قال: ما شقي قط عبد بمشورة، وما سعد باستغناء رأي، وقال: المستشار مؤتمن.

وقيل: ما ندم من استشار، ومن أعجب برأيه ضلّ. وقال بعضهم: شاور من جرب الأمور، فإنه يعطيك من رأيه ماوقع عليه غالبًا، وأنت تأخذه مجانًا.

وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضر بهم. وقال الشاعر:

شاور صديقك في الخفي المشكل	واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه	في قوله شاورهم وتوكل

فالرسول ﷺ أعطى المثال في الشورى، وقد أخذ بها المسلمون حتى أصابهم الوهن، فسلط عليهم حكامًا مستبدين يعجبون برأيهم ويتبعون هواهم، فإذا ألجئوا مرغمين إلى تطييب نفوس شعبهم بالشورى فإنهم يسلكون النمط الغربي لها وهو الديمقراطية، والديمقراطية حتى لو طبق مضمونها - وليس مظهرها كما هو سائد - فإنها تختلف أو تتخلف عن الشورى، ولا تكون محصلتها محققة لمصالح الأمة، ذلك أن المجالس النيابية تنتخب من قِبَل عامة الناس الذين يختارون ممثليهم - إن أتيح لهم الاختيار - طبقًا لقيم اقتصادية أو قبلية أو شخصية أو حكومية، وتعرض على هذه المجالس قضايا الحرب والتجارة والتعليم والاستراتيجية، وتؤخذ الأصوات على المعاهدات والاتفاقيات، ممن لا يعرفون أهدافها ولا يفقهون مغزاها، وربما لا يحسنون قراءتها، وتكون الموافقة أو الرفض حينذاك على حسب ما تراه السلطة التنفيذية وليس توجيهًا لها كما هو الأصل الذي ينبغي أن يُتّبع. بينما تتبع الشورى في الإسلام معيار الاختصاص، فيؤخذ رأي أهل كل اختصاص في اختصاصهم.

قال ابن خويز منداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما

يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها.

الشورى بهذا المعيار ملزمة للإمام، بمعنى أنه يجب عليه أن يشاور أهل كل صنعة فيما يصلح صنعتهم، ولكنه بعد ذلك ليس ملزمًا بالأخذ برأي الأغلبية، وإنما عليه أن يجتهد فينتخب من بين ما طرح عليه من آراء ما يراه مناسبًا ومحققًا للمصلحة، لأن النجاح أو الفشل ينسب إليه فينبغي حينئذ أن ينسب القرار إليه، هذا القرار الذي توصل إليه مستنيرًا بمشورة أهل الصلاح والتقوى والإخلاص من أصحاب هذه الصناعة أو تلك.

وهذا هو الأقرب إلى العقل والمنطق، وأدعى إلى تحقيق المصلحة التي هي الأصل في التشريع.

المبحث الثاني: بيعة الأنصار

ليس هناك أحد أرعى للعهود من النبي ﷺ، حتى ولو كان هذا العهد مع أصحابه المحبين، وأتباعه الأبرار المخلصين، وقد ظهر ذلك أوضح ما يكون في بدر، والنبي ﷺ يذكر في بيعة العقبة الثانية، كان قد بايع الأنصار على أنه إذا هاجر إليهم فسوف يدافعون عنه إذا تعرض لعدوان من الخارج، وهو بينهم في المدينة في مقابل أن تظل إقامته بينهم حتى لو انتصر على أهل مكة.

بعد الهجرة المباركة تنازل الأنصار للنبي ﷺ عن كل مظاهر السيادة، فما إن وصل إلى المدينة حتى أصبح هو الحاكم الفعلي لها، وهم رعيته، فهو يعقد المعاهدات، ويُقيم الإنشاءات، ويبعث السرايا، ويخرج إلى الغزوات، وهم جنوده وأهل مشورته، ولكنهم لا يخالفون له أمرًا، ولا يتخذون في مدينتهم قرارًا بعد قراره.

وفي بدر عندما فرض القتال، وليس في المدينة، إذ أنه لم ينص عليه في بيعة العقبة. لقد أسلم أهل المدينة أنفسهم لله تعالى، ومن ثم فهم يأتمرون بأمر النبي ﷺ، ولا أدل على ذلك مما ذكرناه من قبل حيث تنازلوا له عن كل مظاهر السيادة وأسبغوها عليه، ولكن النبي ﷺ لم يكن ليستدرجهم إلى حرب لم يبايعوه على خوضها، وهو ببصيرته الثاقبة أو بوحي الله له يعرف أن هذه قد تكون أول الحروب وليست آخرها، فلابد لها من بيعة جديدة، يلزمون بها أنفسهم، فقد بايعوه في العقبة الأولى بيعة النساء، ويعني ذلك عدم اقتراف المعاصي من الزنى والبهتان والشرك وغير ذلك.

وبايعوه في العقبة الثانية على النصرة إذا جاء أحد ليعتدي عليه.

أما في بدر فكانت بيعة على الجهاد، دفاعًا عن الدعوة أينما كان مكان الجهاد، وأنّى كان زمانه. إنها بيعة كانت ضرورية لتتضح الرؤية ويتم الواجب، ومن ثم فهموا إشارته حين ردد: أشيروا عليَّ أيها الناس.

وعندما سأله سعد بن معاذ: لعلك تقصدنا قال: نعم، فقال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك وعلمنا أن ماجئت به هو الحق، فلو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

أصبح الأمر قضية إيمانية أساسها التصديق والثقة بالله عز وجل ورسوله ﷺ، وإذا كانوا عند العقبة قد بايعوه على أن ينصروه في المدينة، فلم يكن هذا التحديد من عندهم، وإنما كان ذلك مطلبه هو، وفي بدر عندما أراد أن يتسع مدى التعاقد فإنهم لم يشغلهم لأنهم آمنوا وصدقوا وعرفوا أن ما آمنوا به وصدقوه هو الحق، وأنه لا ينطق عن الهوى، فأينما وجههم فهو يبتغي لهم وجه الله تعالى، ومن ثم كانت البيعة في بدر بيعة عامة لا تحتاج بعد ذلك إلى تحديد، ثم إنها لم تُحمِّل الأنصار عبئًا يثقلهم بل هي تصف واقعهم، وتعبر عن الطاعة والاتباع، وهما صفتان ملازمتان للأنصار منذ أسلموا قيادهم لله ورسوله.

وكما أن الأنصار وفوا للنبي ﷺ فلم ينكصوا في مواجهة، ولم يثّاقلوا إذا قيل لهم انفروا في سبيل الله، فكذلك وفى النبي ﷺ، إذ ذهب إليهم بعد غزوة حنين، وقد وزع الغنائم على المؤلفة قلوبهم، وبلغه ما همس به بعض الأنصار من أنه عرف أهله، فذكرهم بنعم الله عليهم، إذ هداهم إلى الإسلام، وإذ ألف بين قلوبهم حيث كانوا أعداءً فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا، ثم ذكر فضائلهم فهم آمنوا به إذ كفر الناس، وآووه إذ أخرجه قومه، فقالوا له: الله ورسوله أكثر نعمًا وفضلاً، فقال لهم: لولا الإيمان لكنت أمرءا من الأنصار، ولولا الهجرة لكنت رجلاً من الأنصار، المحيا محياكم، والممات مماتكم، لو سلك الناس واديًا أو شعبًا وسلك الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

المبحث الثالث: فضل أهل بدر

هذه الأمة هي خير أمة أخرجت للناس، إذا أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وآمنت بالله، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران ١١٠).

ولكن هذه الأمة، وإن كانت بمجموعها هي خير الأمم، إلا أنها تتفاضل فيما بينها، وقد أشار القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى بعض نواحي هذا التفضيل.

فقد أشارت آيات كثيرة من القرآن الكريم إلى رضى الله عن المهاجرين والأنصار، وعن السابقين من المؤمنين، وعن الذين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة عام الحديبية، وعن الذين اتبعوه في غزوة العسرة وهي غزوة تبوك.

أشارت الآيات كذلك إلى تفضيل أهل صفات بعينها، فالصابرون يوفون أجرهم بغير حساب، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، والذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا.

وفي الحديث ضمان ببيت في ربض الجنة لمن ترك الجدال ولو كان محقًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب ولو كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه.

أما أهل بدر فقد أعد الله لهم منزلة فوق ذلك، إذ بشرهم الله عز وجل بالجنة وغفران الذنوب لكونهم من أهل بدر. وقد صرح النبي ﷺ بهذه البشرى في موقف عصيب تعرض له أحد أهل بدر، وكاد يودي بحياته، ويلطخ اسمه بالعار، ويقع عليه غضب المسلمين.

عندما أذن الله لنبيه ﷺ بفتح مكة، وهو يقدر حرمتها ويعظمها، فقد أراد أن يفاجئ أهل مكة بجيش المسلمين يقتحم مدينتهم، فلا تكون عندهم الفرصة للاستعداد والتأهب، وعند ذلك يستسلمون بدون مقاومة، فلا يراق في البلد الحرام دماء، ومن ثم فقد طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يكتموا الخبر حتى تؤتى المفاجأة ثمارها وتتم المحافظة على حرمة البيت الحرام.

أوحى الله إلى نبيه ﷺ أن السر على وشك أن يفشى، وأن رسالة تحملها جارية في الطريق إلى مكة، وذهب عليّ بن أبي طالب للبحث عن الجارية حتى أخرجت الرسالة من بين طيات شعرها.

المؤلم في الأمر أن الرسالة تحذر أهل مكة، وتخبرهم بقرب زحف المسلمين إليها، والأكثر إيلامًا أن كاتب الرسالة أحد أهل بدر وهو حاطب بن بلتعة.

هذا العمل خيانة ومعصية لأوامر النبي ﷺ، وإفشاء لأسرار الدولة، ولقد برر حاطب فعلته ـ وهو صادق إن شاء الله ـ بأنه يثق بأن الله ناصر نبيه، وأن أهل مكة لن

يستطيعوا أن يجعلوا وعد الله يتخلف، وهو الذي أكد ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (الفتح ٢٧). ولكنه كان مستضعفًا في مكة وله عندهم أهل، وهذه الرسالة قد تجعلهم يحسنون معاملة أهله.

يقول ابن المبارك: إن العمل لا يُقْبل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، ولا يقبل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا، ومدار قبول العمل على شيئين، أن يكون صوابًا وخالصًا، وإذا كانت نية حاطب حسنة فإن عمله ليس صوابًا، فقد ارتكب خطيئة لا شك فيها، وكان ينبغي أن يُعاقب عليها، وهنا تأتي بشرى النبي ﷺ: دعوه فإنه من أهل بدر، ولعل الله قد اطلع على أهل بدر وقال لهم إعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم.

عند ذلك سكتت ألسنة اللائمين، وتوقفت دعوات المطالبين بالعقوبة، واشرأبت الأعناق لبركات الله عز وجل الذي هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.





طليب بن عمير

فتى يافع من فتيان مكة، بلغته أخبار دعوة محمد بن عبد الله ﷺ إلى دين جديد، ينبذ عبادة الأصنام، ويثور على قيم الجاهلية، ويسوّى بين الأحرار والعبيد، ويهدم الحواجز بين السادة والعامة، ويقرّب المسافة بين الفقراء والأغنياء، وينادى بأن الناس سواسية كأسنان المشط.

ولم يكن طليب يجهل محمدًا، فأم طليب هى أروى بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ، وكان طليب معجبًا بما يتميز به ابن خاله من رزانة وحلم، وما يتصف به من صدق وأمانة، وما يتمتع به من مكانة رفيعة فى قومه.

لا يزال طليب يذكر يوم دب الخلاف بين شيوخ مكة فأضاع بهجتهم ببناء الكعبة، وحاول كل منهم أن يقتنص لقبيلته وضع الحجر الأسود فى مكانه من جدار الكعبة فيكون شرفًا تذكره القبائل مدى الزمان، وإذ بلغ الأمر إلى حدّ إشراع السيوف واقتربت حافة الحرب رضوا بأن يحكم محمد بينهم وهو أحدثهم سنًا وأقلهم مالاً وإن كان من أعلاهم بيتًا، فحاز وحده هذا الشرف الذى تنازعوه بأن وضع هو الحجر بيده فى قميصه وحملوا له القميص حتى مكان الحجر فأخذه هو بيده الشريفة، ووضعه فى مكانه.

يذكر طليب كذلك ما سمعه من بعض شباب أهله حين دعاهم محمد إلى بيته وأطعمهم ثم عرض عليهم دينه فقاموا عنه معرضين، وسبّه عمه أبو لهب فقال له ساخرًا: ألهذا دعوتنا تبًا لك سائر ذلك اليوم فبكى محمد ولم يرد عليه.

يذكر طليب ذلك، ويذكر غيره فيأخذه العجب لأنه لم يعهد فى ابن خاله تمردًا أو ثورة، ولم يسمع منه أو يسمع عنه أنه خارج على قومه، أو مباعد لهم. أثارت هذه

الأفكار فضول طليب فيمم شطر دار الأرقم التى سمع أن أتباع محمدًا يلتقون به فيه، ولـم يخرج طليب من دار الأرقم إلا مسلمًا.

دخل طليب على أمه أروى وقال لها: إننى تبعت محمد وأسلمت لله. قـالت أروى لابنها: إن أحق من آزرته وعضدته ابن خالك، والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لمنعناه وذببنا عنه.

قال طليب: يا أمّه، فما يمنعك من أن تسلمي وتتبعيه، فقد أسلم أخوك حمزة. قالت: سوف أنظر ما تفعل أخواتى ثم أكون إحداهن. قال: فإنى أسألك بالله إلا ما أتيته فسلمت عليه وصدقتيه وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. قالت: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ثم كانت بعد ذلك تعضد النبى ﷺ بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره.

وكان عقبة بن أبي معيط من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ ، ومن مظاهر الأذى التى كان يلحقها به أنه وضع روثًا آدميًا فى مكتل، وجعله على باب النبى، فبصر به طليب بن عمير فأخذ المكتل منه وضرب به رأسه، وأخذ بأذنيه، فشكاه عقبة إلى أمه، فقال: قد صار ابنك ينصر محمدًا. فقالت: ومن أولى به منا، أموالنا وأنفسنا دون محمد.

انكشف عند ذلك أمر طليب، و ظهر إسلامه فتعرض لقسوة الأذى من كفار مكة، ومن أبيه عمير بن وهب على وجه الخصوص، وكان عمير من أشد الناس عداوة للإسلام حتى تأخر إسلامه إلى ما بعد غزوة بدر.

هاجر طليب إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ثم عاد منها، وهاجر إلى المدينة فنزل على عبد الله بن مسلمة، ثم آخى النبى ﷺ بينه وبين المنذر بن عمر الساعدى، وشهد بدرًا والغزوات بعدها، وواصل جهاده فى سبيل الله حتى نال الشهادة فى موقعة إجنادين أيام خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكان ابن خمس و ثلاثين سنة.





عتبة بن غزوان

طويل جميل، فصيح اللسان، قوى القلب والإيمان، حديد العزم، عركته الحوادث، فما وهن ولا لانت له قناة، ورافق ركب النبوة منذ أشرق نوره فكان أحد أشعة هذا النور.

لم يسلم قبله غير ستة، فهو من السابقين الأولين، وسابع سبعة فى الإسلام. صبر على الأذى مثلما صبر أولو العزم من أصحاب النبي ﷺ، وتحمل الجوع حتى تقرحت أشداقه من أكل أوراق الشجر. وقاسى من العرى حتى عثر على بردة قديمة شقها نصفين بينه وبين سعد بن أبى وقاص ﷺ.

إيمانه بالله جعله لا يخضع لغيره، ولا يذل لأحد من أعدائه، بل يتلقى أذاهم بهامة مرفوعة، وكرامة موفورة. وثقته بوعد الله تعالى لم تترك له مجالاً للاختيار بين معسكر البغى وموكب الإيمان ﴿ **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (النور ٥٥).

وحبه لنبيه ﷺ دفعه إلى البقاء بجانبه يقبس من علمه، ويتعلم من سلوكه، ويقتدى بهديه، فلم يحفل حين تيسر للمسلمين سبيل النجاة من أذى المشركين يتمثل فى الهجرة إلى الحبشة، وآثر صحبة النبي ﷺ وملازمته والذود عنه إن تسنى له ذلك، ولكنه أُمر فى الهجرة الثانية أن يصحب المهاجرين إلى الحبشة، ولكنه وقد امتثل للأمر ـــ لم يستطع أن يستقر فى الحبشة فما لبث أن عاد إلى مكة وقد اشتد عزمه على تحمل أمانة دينه بما

يقتضيه ذلك من استعداد للتضحية بالراحة والصحة والنفس إن تطلب الأمر ذلك أملا فى حياة عند الله أفضل فيها روح وريحان، ورب غير غضبان.

كان شغف عتبة بن غزوان بالإسلام، وحرصه عليه يعود إلى فطرة نقية تكره الظلم، وتجنح إلى العدل، وتنفر من تسلط عباد الله على عباد الله، وكم قاسى هو من الغبن لأنه حليف لبنى عبدشمس وليس واحدا منهم، وهذا الحلف يدفع عنه عدوان الآخرين، ولكنه لم يرفعه فى بنى عبدشمس أو بنى نوفل، وإنما هو دونهم مهما كان لعقله من رجاحة، ولرأيه من حكمة، ولفكره من حنكة، فالواجبات عليه أكثر، والحقوق له أقل.

يرى عتبة ومن هم مثله أن فى الإسلام خلاصه، وأن فى رفعة الإسلام رفعته، حيث الناس سواسية، ولا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود ولا أحمر إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات ١٣).

فوجئ عتبة مثل غيره بهجرة النبي ﷺ إلى يثرب، وكم كان يتمنى أن يصحبه أو أن يلحق به، ولكن أنى له ذلك وهو المستضعف، والعيون تترصده من حلفائه ومن غيرهم من أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المؤمنين، فلم يجد مناصا من التربص وانتظار الفرصة التى يتاح له فيها أن يلحق بالمهاجرين، من قبل لم يحرص عتبة على الهجرة لأنها كانت إختيارية، وكان الصبر أكثر مثوبة منها، أما بعد هجرة النبي ﷺ وفيه الأسوة الحسنة فقد لزمت الهجرة، وأمسى التخلف عنها قصورا ولعله تقصير، إذ إن الهجرة لها ما بعدها من تكليفات وتشريعات، والتخلف عن الهجرة سوف يكون عائقا أمام المسلم للقيام بما يمليه عليه دينه، وما يكلفه به ربه، ومن ثم كان عتبة يتلمس الوسيلة التى تمكنه من اللحاق بالسابقين إليها بعد أن حاز فضيلة السبق إلى الإسلام.

كانت أنباء السابقين إلى الهجرة تصل إلى المحصورين فى مكة من المسلمين، وقد نمى إليهم أن المجاهدين فى المدينة سوف يعترضون إحدى قوافل أهل مكة، فاتفق عتبة مع مستضعف آخر هو المقداد بن الأسود، وصحبا القافلة حتى إذا ما واجهتهم قافلة المجاهدين فروا إليهم وتحقق بذلك حلمهم فى أن ينفذوا من دار الكفر إلى دار الإسلام ولئن فرح عتبة بهجرته فقد كان فرح النبي ﷺ وفرح المسلمين بهجرته أكثر.

انتظم عتبة فى كتيبة المجاهدين فشهد بدرا والمشاهد كلها كما اتخذ مقعده فى مجلس المتعلمين يحفظ من النبي ﷺ ويحفظ عنه، ويرقب فعله، ويتأسى به فكان أثيرا عنده، وعند

الخليفة أبى بكر بعده، وعند عمر بعد أبى بكر ﷺ.

أبرزت الملاحم الحربية مواهب قيادية قديرة عند عتبة، ولم تغب هذه القدرات عن النظر المتفحص للفاروق ﷺ فاستدعاه وقال له: يا عتبة إنى أريد أن أوجهك لتقاتل بئر الحيرة، لعل الله يفتحها عليكم، فانطلق أنت ومن معك حتى تأتوا أقصى بلاد العرب، وأدنى بلاد العجم، وسر على بركه الله ويمنه، واتق الله ما استطعت، واعلم أنك ستأتى حومة العدو، وأرجو أن يعينك الله عليهم ويكفيكهم، وقد كتبت إلى العلاء بن الحضرمى أن يمدك بعرفجة بن خزيمة، وهو ذو مجاهدة للعدو وذو مكابدة فشاوره، وادع إلى الله عزوجل، فمن أجابك فاقبل منه، ومن أبى فالجزية عن يد وذلة وصغار، وإلا فالسيف من غير هوادة، واستنفر من مررت به من العرب، وحثهم على الجهاد وكابد العدو واتق الله ربك.

أمر عتبة كتيبته بالتوجه حيث طلب الخليفة، وانطلق يقدُمهم حينا، ويتوسطهم حينا، ويسير فى المؤخرة حينا ثالثا، يتفقدهم، ويذكّرهم، ويسمع منهم، وهو يستشعر عظم المهمة، غير أن ذلك لم يشغله عن التأمل فى حكمة الخالق جل وعلا، الذى أنجز وعده وأعز جنده فجعل من مستضعف مثله أميرا على جيش جل أفراده من أبناء سادات العرب يمتثلون لأمره بعد أن استخلفه الله عليهم، ومكن له دينه الذى ارتضاه له، وبدله من بعد خوفه أمنا فيجأر لسانه بشهادة الوحدانية، وتمتلئ عيناه بدموع الامتنان والعرفان، ويخشع قلبه خضوعا لمالك الملك الذى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء.

حقق الله النصر على الفرس على يد عتبة حتى وصل إلى الأبلّة فأرسل إليه الخليفة بأن يختط مدينة للجند يتخير مكانا لا يضر بصحتهم فاختط عتبة مدينة البصرة، ثم أمر محجن بن الأدرع فاختط مسجدها الأعظم وبناه بالقصب، وكتب عتبة إلى الخليفة يطلب ما سوف يكلفه به، فأمّره الخليفة على البصرة.

كان عتبة يفضل الجهاد على الإمارة، ولكنه امتثل لأمر الخليفة فجلس يعلم الناس ويفقههم، ويقضى بينهم، ثم رأى الأموال تجرى فى أيديهم، وبدت مظاهر الترف فانطلق ينهى عن الإسراف ويذكرهم بزهد النبى ﷺ ويقول لهم: لقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ومالنا طعام إلا ورق الشجر حتى تقرحت أشداقنا.

وينصحه الناس بأن ينال نصيبه من الدنيا فالناس هنا يحترمون المظاهر متأثرين بحياة

الفرس فيقول إنى أعوذ بالله أن أكون فى دنياكم عظيما وعند الله صغيرا. وضاق المترفون به فشكوه إلى الخليفة الذى حقق فى الشكوى وعرف أنها مغرضة من شانئين له، فأقره على ولايته التى ضاق عتبة بها وبهم، فاستأذن الخليفة فى الحج فأذن له، وقبل أن ينطلق وقف فى أهل البصرة خطيبا وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: أما بعد، فإن الدنيا أذنت بصرم، وولت حذاء، وإنما بقى منها صُبابة كصبابة الإناء، وأنتم منتقلون عنها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما يحضركم، فقد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوى سبعين عاما لا يدرك لها قعرًا، والله لتملأن!، أفعجبتم، ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاما، وليأتين على الباب يوم وله كظيظ من الزحام، ولقد رأيتنى وأنا سابع سبعة مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى تقرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بينى وبين سعد بن مالك، فاتزرت ببعضها، واتزر ببعضها، فما أصبح اليوم منا واحد إلا وهو أمير على مصر من الأمصار، وإنى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيما وعند الله صغيرا، فإنها لم تكن نبوة إلا تناسخت حتى يكون عاقبتها ملكا، وستبلون الأمراء بعدى.

استخلف عتبة مجاشع بن مسعود، وأمره أن يسير إلى الفرات، وأمر المغيرة بن شعبة أن يصلى بالناس وتوجه إلى الحج، وفى المدينة طلب من الخليفة أن يعفيه من إمارة البصرة، فقال عمر: أما والله لا يكون، تضعون أماناتكم فى رقبتى ثم تتركوننى وحدى، والله لا يكون.

ركب عتبة بن غزوان دابته عائدا إلى البصرة وهو يدعو الله أن لا يرده إليها وأن لا يرده أميرا عليها أو على غيرها، فوقع من على دابته ميتا سنة سبع عشرة أو سنة عشرين من الهجرة، وكانت سنه سبعا وخمسين سنة حين لقى الأحبة محمدا وصحبه.





أبـو أحمد – عبـد بـن جحش الأسدي

جمع الشرف من طرفيه، وحاز السؤدد في مرحلتيه فأما الشرف فقد جاءه من جهة أبيه الذي هو في الذروة الرفيعة من بني عبد الأسد، والطرف الثاني من جهة أمه، فهي أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عظيم مكة وسيدها، وأكثر الناس هيبة عرفها له سيف بن ذي يزن عظيم اليمن الذي خصه بتكريم عن سائر الأشراف الذين دخلوا عليه لتهنئته بالخلاص من الحبش، وهابه أبرهة الذي غزا الجزيرة وربط أشرافها في القيود والأغلال فشاركه الفراش الذي يجلس عليه.

وتأكد شرفه بمصاهرته لأبي سفيان بن حرب إذ تزوج بابنته الفارعة بنت أبي سفيان. أما سؤدده فإن ما قدمناه يبين أنه حازه أيام الجاهلية بهذا النسب الرفيع، وتلك المصاهرة.

ثم جاءت مرحلة الإسلام التي حاز فيها سؤددًا متصلاً خالد الذكر في الدنيا، وطيب الأثر في الآخرة، ومناط الغبطة والفخر.

سبق مع كل أفراد أسرته إلى الإسلام، وبعد ذلك دخلت مكة والجزيرة كلها في الإسلام، ولكن يبقى للسابق فضله ويبقى للسبق دلالته، فالسابق إنسان سليم الفطرة، لم يكن منسجمًا مع ما ورثه من عقائد قومه الفاسدة، ولكن لم يكن من يرشده ويهديه ويقوم عوجه، فلما أبصر الداعي واستقام الطريق هرعت فطرته إلى طريق الرشد، وأجاب داعي الله.

والسبق إلى الإسلام فضلاً عن كونه تعضيدًا للحق، وموازرة للنبي ﷺ، فهو – كذلك– علامة على قوة النفس، وشجاعة القلب، والتأهب لمواجهة الشدائد وتحمل

الأذى، وبذل النفيس في سبيل الله، انتصارًا للحق، وذودًا عن المبدإ، وترقبًا لوعد الله، وتطلعًا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

كان أبو أحمد عبد بن جحش ضريرًا، ولكنه كان طاقة لا تفتر حركتها يطوف بمكة أعلاها وأسفلها بغير قائد حيث عوضه الله عن نور البصر بنور البصيرة، وكان محبًا لمكة حبًا ملك عليه قلبه، كما ملك حبها قلب النبي ﷺ الذي نظر إليها باكيًا عشية الهجرة وقال: ولله إني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، وإنك لأحب البلاد إلى نفسي ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت.

أما أبو أحمد الشاعر المحب لمكة والذي سبق إلى الهجرة منها مع قومه كما سبق معهم إلى الإسلام من قبل، فإنه أنشد وهو يغادر مكة:

حبذا مكة من وادِ	بها أهلي وعوادي
بها ترسخ أوتادي	بها أمشي بلا هادي

ويعلن أبو أحمد أنه مع حبه لمكة فإن حبه لله أكثر وحرصه على مصاحبة النبي ﷺ ـ ابن خاله ـ أعظم من حبه لمكة فيقول:

لقد حلفت على الصفا أم أحمد	ومروة بالله برت يمينها
لنحن الألى كنا بها ثم لم نزل	بمكة حتى كاد عنّا سميّها
إلى الله نعدو بين مثنى وموحد	ودين رسول الله والحق دينها

ويستعرض أبو أحمد قصة إسلامهم، وما جرى لهم مع قومهم ومجادلة المجادلين، والحوار الذي دار بينه وبين زوجته عند الهجرة، وكيف أنها كانت تتمنى أن تكون الهجرة إلى بلد أقرب من يثرب ما دامت الهجرة ضرورية، فيقول لها إن يثرب هي دار الهجرة التي وجه الله المسلمين إليها ثم يفخر بإسلامه، وقرابته للنبي ﷺ التي ختمت بالمصاهرة حيث تزوج النبي ﷺ من زينب بنت جحش أخت أبي أحمد.

ولما رأتني أم أحمد غاديًا	بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول فإما كنت لابدّ فاعلاً	فيمّم بنا البلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها بل يثرب اليوم وجهنا	وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول ومن يقم	إلى الله يومًا وجهه لا يخيّبُ
فكم قد تركنا من حميم مناصح	وناصحة تبكي بدمع وتندبُ
ترى أن وِتْرًا نائيًا عن بلادنا	ونحن نرى أن الرغائب تطلبُ

دعوت بني غُنم لحقن دمائهم ... وللحق لما لاح للناس مُلحب
أجابوا بحمدالله لما دعاهموا ... إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا
وكنا وأصحابا لنا فارقوا الهدى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفوجين أما منهما فموفق ... على الحق مهديٌّ وفوج معذّب
طغوا وتمنّوا كذبة وأزلهم ... عن الحق إبليس فخابوا وخيبوا
ورعنا إلى قول الرسول محمد ... فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمتّ بأرحام إليهم قريبة ... ولا قربَ بالأرحام إذْ لا تقرُب
فأي ابن أخت بعدنا يأمننّكم ... وأي صهر بعد صهري يرقب
ستعلم يومًا أينا إذ تزايلوا ... وزيّل أمر الناس للحق أصوبُ

ودعا الداعي إلى بدر فكان أبو أحمد في طليعة الذين نفروا وعجب بعض القوم من أعمى يخرج للجهاد، ولكن أبا أحمد يعرف أن له دورًا لا يقل عن دور من يمسك بالسيف الحديد، فهو يكثّر سواد المسلمين، وفي ذلك رفع لمعنوياتهم، وتثبيط لعزائم العدو، ثم إن معه سيف الدعاء لمن يجيب المضطر إذا دعاه فينجحي من الغم في البر والبحر، ويجلب النصر، ثم هو يريد أن يعذر إلى الله عز وجل، حيث سبق إلى الإسلام، وسبق إلى الهجرة، وسبق إلى بدْر، وقد دار حوار بين أحد المجاهدين وأحد الضعفاء من أمثال أبي أحمد، ثم جاء المجاهد إلى النبي ﷺ يقول له، إنهم يرون لهم يدًا علينا، فقال له النبي ﷺ: صدق فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم.

ولكن أبا أحمد لم يكن ضعيفًا إلا من حيث أن الله ابتلاه بفقد بصره، ولكنه كان قويًا في دينه، حمله راضيًا، وتحمل في سبيله، ونعم به، ومات عليه، ولكنه بقي ذكرًا طيبًا، وأسوة حسنة، لو أنفق أحد ممن جاء بعده ملء الأرض ذهبًا مابلغ مدّه أو نصيفه.





عبد الله بن طارق

ووجهت الدعوة إلى الله بعوائق كثيرة في مكة لأن مكة كانت ترى أن رواجها الاقتصادي وشرفها بين القبائل، وسيادتها على الجزيرة العربية يعود إلى حرصها على التقاليد العربية الموروثة، ورعايتها للطقوس الدينية التي أساسها عبادة الأصنام، وما ارتبط بها من شعائر في موسم الحج، فالكعبة المشرفة معقل الأصنام وموئل الطائفين، يحاصرها ثلاثمائة وستون صنمًا بعدد ما يعبد المشركون، ولكل صنم سدنته وكهانه من أهل مكة، ولكل صنم عباده من أهل القبائل، يحجون لزيارته، ويقدمون له القرابين، ويشعرون بالامتنان لأهل مكة سدنة البيت والأصنام، المتنعمين بالقرابين التي تقدم للأصنام.

وأهل مكة كذلك هم تجار العرب يقيمون الأسواق في عكاظ وذي المجنة والمجاز، فيبيعون في الموسم للحجيج ويشترون منهم، ويجنون من وراء ذلك أرباحًا طائلة، وأفئدة الناس تهوي إلى مكة وأسواقها يجمعون النفيس ويبخلون به على أنفسهم، ولكنهم يجودون به بنفوس راضية راغبة في بذل المزيد استجابة لدعوة الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿..فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.. (إبراهيم ٣٧). وقد أنجز المولى سبحانه وتعالى وعده فاستجاب لدعاء إبراهيم وجعل أفئدة الناس تهوي إلى مكة, ورزقهم من الثمرات، ولكن أهل مكة لم يفوا بالعهد ولم يشكروا نعم المولى عز وجل، فحادوا عن طريقه وعبدوا أحجارًا يصنعونها بأيديهم لا تملك لهم ولا لأنفسها نفعًا ولا ضرًا، ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

أمست مكة قرية بطرت معيشتها حين دخلت عليها الدنيا فكفرت بأنعم الله بعد إيمان، وضلت بعد هداية، وغوت بعد رشد، وأشركت مع الله غيره، وقاومت كل صوت يذكرهم بأنعم الله، ويبصرهم بدرك الضلالة الذي هووا إليه، فعموا عن الحق

وصموا، وأدبروا وتولوا ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۞ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (النمل ٨٠-٨١).

وعلى النقيض من أهل مكة كان عرب المدينة وسادتهم الأوس والخزرج وحلفاؤهم، فقد كانوا مهيئين لقبول دعوة الإسلام أكثر من أي حيّ من أحياء العرب. لقد أخرج آباؤهم من ديارهم وجنانهم التي كانت عن يمين وشمال لأنهم كفروا بأنعم الله فأرسل الله عليهم سيل العرم وأبدلهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ ﴾ (سبأ ١٧).

وقر في قلوب عرب يثرب أن كفر النعم يذهبها، وأن شكر المولى المنعم عز وجل يزيد النعم ويبارك فيها، ولكنهم حيّ من العرب يحجون إلى كعبتهم ويختلفون إلى أسواقهم ويحالفونهم ويصهرون إليهم، ويعبدون أصنامًا مثلهم.

كادوا يفتتنون بدين يهود، ولكنهم وجدوا اليهود حولوا دين الله إلى دين خاص باليهود يسوّدهم على الناس، ويبيح لهم أن يستغلوا غيرهم، ويحل لهم ما بيد غيرهم، ويحلّ لهم كل رذيلة يأباها خلق مستقيم، ويمجها ذوق سليم، وترفضها كل فطرة مستقيمة، فأبت فطرتهم أن ينخدعوا بتلك العنصرية البغيضة، أو أن ينضووا تحت سلطان قوم ماتت أرواحهم تحت سلطان المادة الكثيف المظلم فكانت المواجهة بينهم تكون على العرب حينًا وعلى اليهود حينًا آخر، ولم يستطع كل فريق منهم أن تكون له الغلبة الكاملة على الفريق الآخر.

سئم العرب واليهود من كثرة المعارك، واشتدت وطأة كل طرف منهم على الآخر، واستشرف كل واحد منهم يومًا يكون له السلطان على خصمه، فأباح اليهود بما لم يحبوا أن يكون، وما لم يريدوا أن يبوحوا به حين قالوا إننا في زمن سيخرج فيه نبي، ومن يسارع إلى الإيمان به فسوف تكون له الغلبة على الآخر.

كانت أفئدة عرب يثرب متأهبة لسماع نبأ ظهور ذلك النبي لتكون لهم الجولة الأخيرة على يهود، هذا ما كانوا يتحدثون به، أما ما ظهر منهم عندما سمعوا بالإسلام فله دلالة على أن فطرتهم المستقيمة هي التي كانت تترقب ذلك الحدث لتنفض عنها ذلك الغبار الذي غطى على نقائها، فلم يكد بعضهم يلتقي بالنبي ﷺ ويسمع منه حتى فشا الإسلام فيهم كما تجلو أشعة الضوء غشاوات الظلام، واندفعوا إليه اندفاع السيل إلى مجراه العظيم.

انحاز عبد الله بن طارق إلى فئة المؤمنين منذ أن سمع بالإسلام وجند نفسه لنصرة الإسلام، فقد أصبح حليفًا للإسلام شأن كل مسلم، ولم يعد حليفًا لقوم يقبلونه أو يدفعونه عنهم، فالمؤمنون إخوة، والإسلام نسب، ولم يدعهم النبي ﷺ إلى مكرمة إلا كان عبد الله سباقًا إليها، حتى كان يوم بدر فإذا هو مقاتل صنديد، طلب الموت فكتبت له الحياة، ثم شهدته أحد مجاهدًا لا يولّي أعداء الإسلام دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة، لا يهدف إلا إلى إحدى الحسنيين، نصر مؤزر أو شهادة كريمة، وقد عرف النبي ﷺ بلاءه، وأحس بأشواقه التي تحلق فوق الجنة وتجذ ريحها، فكان ينتدبه حيث ينتدَبُ المغاوير.

ثم كانت غزوة الرجيع، وقد أراد النبي ﷺ أن يعرف أخبار مكة، وأراد المولى عز وجل أن يتخذ فيها من المؤمنين شهداء، فألهم نبيّه ﷺ أن ينتدب لها عشرة تعيش أجسادهم على الأرض، وتحيا أرواحهم في الرضوان، فمنهم الذي رأى في الكفر نجسًا عينيًا لايطهره شيء فأقسم أن لا يمس جسده جسد إنسان كافر، ولو رأى بعض المسلمين الذين في أيامنا هذه وهم يرون في الكفر قبلة لهم وفي الكفار قدوة، وفي تتبع خطاهم تقدمًا وتحضرًا، لو رأى عبد الله بن طارق وإخوانه من المجاهدين ما حل بخلفهم من إضاعة الصلوات واتباع الشهوات لكرهوا أن ينتسب هؤلاء إلى دينهم، ولأنكروا عليهم أن يعدوا أنفسهم من المسلمين.

انتدب النبي ﷺ عشرة جعل إمارتهم لعاصم بن ثابت بن الأقلح، وكان من أفرادها زيد بن الدثنة، وخُبَيْب بن عدي، وعبد الله بن طارق وغيرهم من الأبرار، وعندما اقتربوا من بني لحيان وهم بطن من بطون هذيل يقيمون قريبًا من مكة، وقف الموكب الكريم عند بئر ماء شربوا منه وسقوا ركائبهم ثم أووا إلى مكان يقيلون فيه من وهج الظهيرة، وكان يرقبهم عين لبني لحيان، فانطلق إلى الماء حتى وجد بعض روث دوابهم ففركه بيده فإذا فيه نوى تمر المدينة فعرف أنهم من المسلمين، وحذر أنهم في مهمة تقصّي أخبار أهل مكة.

انطلق هذا الفاجر إلى قومه بني لحيان فأخبرهم بالخبر، فخرج أكثر من مائة فارس وحاصروا العشرة الذين أدركوا الخطر فتأهبوا لمواجهته.

أقسم لهم بنو لحيان أنهم لن يقتلوهم، وإنما سيسلمونهم إلى أهل مكة لينالوا من قريش مالاً، ويكون لهم عندهم حظوة، ولكن عاصمًا أمير السرية أقسم أن لا يمس جسده جسد كافر وقرر أن يقاتل حتى يقتل، فظل العشرة يقاتلون المائة أو يزيد فقتلوا منهم

الكثير، ولكن قتل عاصم وستة معه، ولـم يبق في مواجهة هؤلاء الضالين إلا ثلاثة، فوافقوا على أن يصحبوا هؤلاء المشركين إلى مكة ثم يفعل اللـه مـا يشـاء، وهـؤلاء الثلاثـة هـم خبيب وزيد وعبد الله بن طارق.

سار الثلاثة معهم، وفي بعض الطريـق عمـد المختطفـون إلى أوتـار قسيهم فحلوهـا وجاؤا إليهم فربطوا أيديهم فقال عبد الله بن طارق هذا أول الغدر، واللـه لأموتـن علـى ما مات عليه أصحابي، ولا أثق بوعـد كـافر أبـدًا، وفي لمـح البصـر كـان قـد فـك رباطـه وامتشق سيفه، وأعمله فيهم وهو يشق طريقه بينهم حتى خرج من بينهم، ولما عجزوا عن النيل منه بسيوفهم عمدوا إلى الحجـارة فطفقـوا يخصفونـه بهـا حتـى قتلـوه بمـرّ الظهـران، ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (يس ٢٦-٢٧).





أبو عبس (عبدالرحمن بن جبر)

أوسيٌّ من بنى حارثة، محب للكمال منذ نعومة أظفاره، وكان من الكمال حينئذ وما يزال تعلم القراءة والكتابة، وكان الذين يعرفون ذلك قليلين، ومن يحسن القراءة والكتابة والرمى والسباحة كانوا يسمونه الكامل، ولم يفتر أبو عبس عن طلب المجد والسؤدد فى قومه، ولا يرى غاية ترفع من شأنه إلا سعى إليها، وكابد لكى ينالها، وقد كان إقباله على الإسلام أحد السبل التى رآها تؤدى إلى سؤدد باق، ومجد خالد.

لم يقنع أبوعبس بأنه أسلم وجهه لله فعصم نفسه من الغواية، واعتدل بها على جادة الحق، وأعتقها من غل الضلالة، وأدخلها إلى ساحة الأحرار الهداة، وأزال عنها غشاوة الظلام لتنعم فى سبحات النور، وإنما كان حريصا على أن ينزع الغشاوة عن أبصار قومه بنى حارثة، وأن يخلص أذانهم من الوقر الذى يحجب نداء داعى الله أن يصل إلى قلوبهم فيحيى ميتها ويبعث خامدها.

اتفق أبو عبس وأبو بردة على أن يلفتا أنظار بنى حارثة إلى الإسلام، وإلى عجز أصنامهم عن النفع أو الضرر، بمثل الوسيلة التى استخدمها خليل الله إبراهيم عليه السلام ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (الصافات ٩١-٩٣)، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء ٥٨).

فكان أبو عبس وأبو بردة يكسران أصنام قومهما بليل، حتى إذا طلع الصباح قام بنو حارثة يتساءلون من فعل هذا بآلهتنا؟ ثم كأنهم بعد ذلك تساءلوا: لماذا لم تدافع آلهتنا عن نفسها؟ثم لعل هذا السؤال قادهم إلى سؤال أخير: وإذا كانت هذه الآلهة لا تستطيع أن تمنع الضرر عن نفسها أيكون بإستطاعتها أن تدفع الضرر عنا ؟ وهنا كانت الوقفة مع

النفس التى لم تلبث أن وجهت وجوههم للذى فطر السموات والأرض حنفاء مسلمين غير مشركين به.

ابتهج أبو عبس مع إخوانه بقدوم النبي ﷺ إلى المدينة، ولكنه فى غمرة البهجة لم يغب عنه أن هذا القدوم الحافل سيكون بداية لحياة حافلة بالصعاب لتأمين هذه العقيدة، وحمل أمانتها، والذود عن وجودها، والتبشير بها حتى يتم الله نوره، ويعلى كلمته، ويكون المسلمون ظاهرين على الكافرين، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ما تحدث أبو عبس فى أمر إلا صادقا، وما شهد على شئ أو أحد إلا حقا، وما وعد إلا وفى، وما عاهد إلا أنجز، سواء مع الله عزوجل أو مع العباد.

شهد بدرا ولم يكن لمثله أن يتخلف عنها فهى إحدى غايات الكمال الذى لا يتوانى عن الأخذ بأسبابها، والسعى إلى ذراها.

بعد بدر أحس المسلمون بالأمن بعد الخوف، وشعروا بالقوة بعد ضعف، وارتد كيد المشركين إلى نحرهم، فخسروا أموالهم، وفقدوا كبراءهم، وأضاعوا كبرياءهم.

وانزعج اليهود حين علا نجم المسلمين، وكرهوا أن يلتزموا بالحلف الذى عقدوه مع النبي ﷺ إبان قدومه إلى المدينة، ومتى كان اليهود يلتزمون بعهد ومتى كانت لهم ذمة؟ ولم يلعنهم المولى عزوجل إلا بسبب نقضهم لكل ميثاق أخذوه على أنفسهم، وخُلفهم لكل وعد قطعوه، وبغضهم لمخلوقات الله

كان حزن اليهود لانتصار المسلمين أكبر من حزن المشركين لأنه حزن تغذيه الأحقاد، وتشعله الضغينة، فانطلق أحد زعمائهم وهو كعب بن الأشرف إلى أهل مكة وكان شاعرا لبيبا، ومتحدثا لبقا، وكان مع ذلك جسيما وسيما يجذب إليه الأسماع والأبصار.

انطلق كعب بن الأشرف إلى أهل مكة يبكى زعماءهم ويحرضهم على الأخذ بالثأر من المسلمين فيثير الضغائن ويحفز على الثأر، ويشحن أهل مكة بالغضب، وكان يتردد عليهم بين الحين والحين مُحَرِضًا ومستفزًا، ومثيرًا للحمية، وكانت أنباؤه ترد إلى المدينة أولا بأول، فقال النبي ﷺ يوما لأصحابه.. من لى بكعب بن الأشرف؟ فتعهد محمد بن مسلمة ﷺ بأن يقوم هو وبعض من يثق فيهم بقتل كعب بن الأشرف وهو الشجاع المتحصن المحاط بالأعوان والحراس، وكان أبو عبس من ثقاة محمد بن مسلمة، وقد أنجزوا مهمتهم على أحسن وجه وجاءوا برأس عدو الله كعب إلى النبي ﷺ، وأراح الله

المسلمين من شيطان مريد كان عينا عليهم، وعدوا لهم، ومحرضا أعداء الله للثأر منهم.

لم يتخلف أبو عبس عن مكرمة، ولم يتكاسل عن غزوة، ولم يتهاون في أن يجاهد أعداء الإسلام في عهد النبي ﷺ أو في عهد خلفائه الراشدين من بعده.

وقد أضاف أبوبكر وعمر إلى أبي عبس عملا آخر، فقد كبرت الدولة وترامت أطرافها، وكثر عمالها، وكان الخليفة متحملا مسئولية كل هذه الشعوب التي انضوت تحت لواء الإسلام، وكانت الأخبار تترى من العمال عن الأمصار المختلفة، وكانت أخبار أخرى ترد من الرعية، وأحيانا تختلف المفاهيم وتتناقض الأخبار فكان لابد من رجل أمين يصدق هذه الأخبار أو يكذبها، ويكون موثوقا لا يتهم بالكذب، فكان أبو عبس هذا الرجل المنشود لهذه المهمة الجليلة، ولكنه كان يفضل الجهاد في سبيل الله، ويروى عن النبي ﷺ قوله (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله تعالى على النار.. رواه أحمد في المسند.

تقدمت السن بأبي عبس، ولم يزل يخط في صفحة السؤدد أسطرا يشع نورها في كل أفق، وينتشر عطرها في نسمات كل زمان، حتى أصابه المرض أيام عثمان بن عفان ﷺ، لقد تعب هذا الجسد الذي لم يكن يتعب وهو يقضي النهار مجاهدا، والليل قائما، فارسا مع فرسان النهار وراهبا مع رهبان الليل، فأوى إلى الفراش ولم يكن يأوى إليه إلا لماما، أوى إليه ولم يستطع أن يقوم منه ولو لماما.

جاءه عثمان يعوده في مرضه فوجده في غيبوبة، فجلس إلى جواره حتى أفاق ثم سأله: كيف تجد ؟ قال: صالحا، وجدت شأننا كله صالحا إلا عقولا هلكت بيننا وبين العمال لم نكد نتخلص منها.

ودعه عثمان وانصرف عنه، ولم يمض وقت حتى بلغه خبر موته، فأسرع يحث الخطى ليدركه، فإذا أصحاب النبي ﷺ وفي مقدمتهم أهل بدر رفقاء الجهاد، وإخوان المسيرة، وحملة الأمانة، توافدوا جميعا ليكونوا في شرف توديع ذلك الروح العظيم وهو ينطلق إلى الملأ الأعلى، فصلى عليه عثمان وفي البقيع نزل في قبره أبو بردة، وقتادة، ومحمد بن مسلمة، وسلمة بن سلامة بن وقش وكلهم ممن شهدوا بدرا الذين اطلع الله عليهم وغفر لهم، وكانت سنه سبعين سنة حين انطلقت روحه مع أرواح الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.





أبو عقيل (عبد الرحمن الأراشي)

سمّاه أبوه في الجاهلية عبد العزّى، ثم تكنّى هو بأبي عُقيل، ولم يكن يستطيب اسمه، وكان يحث الناس على أن ينادوه بكنيته فأصبح مشهورًا بأبي عقيل.

أسلم أول ما سمع بالإسلام، ولزم مصعب بن عمير حين أرسله النبي ﷺ يعلم أهل المدينة دينهم، واشتد شوقه لرؤية النبي ﷺ فكان من الجالسين في وهج الظهيرة، والمترقبين في شدة الحرّ عند قباء حتى أقبل الموكب الشريف فارتوت منه الأشواق، واطمأنت به النفوس، وسلمت له القلوب والعقول.

تنازل أهل يثرب ـ ومنهم أبو عقيل ـ عن عصبية القبيلة والبلد، وأنفة الحمية التي تمنع من الخضوع لأحد من خارج القبيلة أو الحيّ، وسلموا بكل ذلك للنبي ﷺ ، فلم يعاملوه على أنه لاجئ لاذ بهم فرارًا من ظلم قومه وأذاهم، فوجد عندهم الأمن والحماية، بل كانوا يبايعونه على أن يطيعوه في المنشط والمكره، وأن يلبوه إذا دعا، ويستجيبوا له إذا أمر.

بايعوه كذلك على أن يلجأوا إليه إذا اشتد عليهم الأمور، وأن يستنصروه إذا تحالفت عليهم المحن، وأن يسألوه إذا غلبتهم الحاجة.

شكوا إليه غداة وصوله من غدر اليهود فكتب الصحيفة التي تضع حدود المواطنة في مجتمع المدينة الذي يجمع مسلمين ويهود، وبين المجالات التي يسمح فيها لكل واحد أن يتحرك بنفسه، والمجالات التي ينبغي أن يتخذ فيها رأي جيرانه، المجالات التي لا ينبغي أن يتجاوز إليها، ثم أرشد إلى أن الخلاف وارد، وأن الخطوط قد تتقاطع فالحل يكون عند النبي ﷺ، فهو الذي شرع، وهو الحكم حين يشتجر الخلاف.

شكا أبو عقيل للنبي ﷺ من اسمه وكيف أنه يضيق به حتى من قبل أن يدخل الإسلام، فسماه النبي ﷺ عبد الرحمن، ولكن الكنية ظلت غالبة عليه، ولعل ذلك بسبب احترام الناس له، فالعرب إذا أرادوا أن يكرموا أحدًا أو يظهروا لـه احترامًا نادوه بالكنية ولـم ينادوه بالاسم أو اللقب، وقد قالوا: (أكنّيه حين أناديه لأكرمه) .

انتسب أبو عقيل لمجتمع المسلمين بقلبه وقالبه، وسمع من النبي ﷺ أن رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، وقد حصل على رأس الأمر بإسلامه، وأقام عموده بالصلاة، وما يزال يتسنم ذروته بالجهاد.

سمع أبو عقيل كذلك من النبي ﷺ أن لا أحد يدخل الجنة يحب أن يخرج منها إلا الشهيد فهو يتمنى أن يعود إلى الأرض ليجاهد فيقتل عشر مرات لما رأى من الكرامة، كما سمع أبو عقيل أن جراح الشهداء تأتي يوم القيامة كهيئتها حين الجراحة لونها لـو دم وريحها ريح مسك.

يسمع أبو عقيل هذه الأقوال وغيرها من لسان الصادق الأمين ﷺ فيقـذف بنفسه في الصفوف الأولى من المجاهدين في بدر وأحد وغيرهما من المشاهد، فيبلي البلاء الحسن، ولكنه يخرج من المعركة بجرح أو جرحين أو جراح، ولكنه لا يموت، فلا يتوقف عن أن يسأل الله الشهادة، حتى إذا دخل معركة حسبها قد اقتربت ثم يخرج من المعركة وقد نأت عنه الشهادة، فلا يجدمفرًا من أن يدعو الله عز وجل أن لا يحرمه منها.

لـم يكن أبو عقيل وحده هو الذي يسأل الله الشهادة، وإنما كانت الشهادة في سبيل الله من آمال ذلك الجيل الرائد القويّ الذي عاش فيه أبو عقيل.

ولـم يكن طلبهم للشهادة لضيقهم بالدنيا، لأن الدنيا في هذا الوقت كانت على أحسن ما يتمناها واحد منهم، لقد انتهت منها المفاخرات القبلية، والمنابذات الجاهلية، وتخلصت من ظلـم الإنسان لأخيه الإنسان في الغارات المتوالية على الأموال والأعراض، واستغلال القوي للضعيف، وفرض هيمنته على حياته ورزقه وشرفه وأولاده، بالإضافة إلى كثرة الأرزاق من مغلس الغزوات والسرايا، والبركة التي يضعها المولى عز وجل، ورواج التجارة نتيجة الأمن، وكثرة أعداد الذين يفدون إلى المدينة مهاجرين لله عز وجل، وما يتطلبه ذلك من شراء أثاث وملابس ومطاعم ومساكن، وفي هذا رواج كبير للتجارة.

كانت الدنيا بالنسبة لهم على أحسن ما كانوا يتمنون لها ولكنهم تعلموا أن تكون آمالهم أكبر، وأن تكون مطامحهم أبعد.

وقد تعلموا أن الجنة عرضها السموات والأرض، وأنها حافلة بالأزهار والأطيار والأشجار والثمار، وتجري من تحتها الأنهار، وأنها مزيّنة بحور عين لو سقط خمار إحداهن إلى الأرض لخسف من نوره نور الشمس والقمر والنجوم، وإن الشهيد يقف بين الخلائق يوم الحساب في مكان لا يخاف فيه أن تزل قدمه، ولا أن يضل لسانه، ولا أن تحرقه حرارة الشمس، ولا أن يغمره العرق. إنه يتقلب في الكرامة والسؤدد، ويشاهد حساب الخلائق ولا يحاسب، لأن بذل النفس في سبيل الله يغفر كل خطيئة، ويعظم على أي ذنب.

أهل ذلك الزمان يحبون النعيم أكثر من غيرهم، ويميلون إلى المتعة أشد من سواهم. ولكنهم يريدون مع النعيم بقاء وخلودًا، ومع المتعة راحة وسعادة، فعافوا نعيم الدنيا لأنه زائل وقصير وقليل، أما أبناء زماننا وقد قصرت أبصارهم، وضاقت آفاقهم، وقل يقينهم بوعد الله، وضعف إيمانهم فإذا هم يفرون من الموت وهو ملاقيهم، ويتشبثون بالدنيا وسوف تتركهم لأنها دار ممر لا دار مقر.

يثبط الأب ابنه عن الجهاد، وتوهي أمه بدموعها عزيمته، وتذكره زوجته بأبنائه وأمواله، وهي بذلك عدو له ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة ٢٤).

علم أبو عقيل وجيله، أن محبة الله أعظم من محبة الدنيا، وأن نصرة الدين أوجب على المسلم من الحفاظ على نفسه أو ماله، وأن الله أمر بقوله ﴿ انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ (التوبة ٤١).

شهد بدرًا والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، وكان يزج نفسه في أتون كل معركة يلتمس الشهادة ويسعى إليها ولكنه كان يوجل له لأن له أجلاً لا يعدوه فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

ثم كان يوم اليمامة حين اجتمع الكفر كله مع بني حنيفة وراء مسيلمة الكذاب، وذهبت كتيبة المسلمين مع خالد بن الوليد رضي الله عنه لتقطع دابر هذه الردّة التي استشرت كالنار في الهشيم، وما إن اصطف الناس للقتال حتى كان أبو عقيل أول من رمى بسهمه، ثم أول من رمى من الأعداء بسهم وقع بين منكبيه وفؤاده، فلم يصب قلبه وجاء في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن له شقه الأيسر لما كان فيه، وجرَّ أبو عقيل إلى الرحل.

فلما حمي القتال وانهزم المسلمون ووصل جند مسيلمة إلى خيمة خالد وكادوا يأسرون زوجته, ومروا برحال المسلمين وأبو عقيل واهن من جرحه، إذا به يسمع معن بن عدي يصيح: يا للأنصار.. الله الله، والكرة على عدوكم وأعنق معنٍ يقدم القوم، وذلك حين صاحت الأنصار: أخلصونا.. أخلصونا، فأخلصوا رجلاً.. رجلاً.. يتميزون عن غيرهم.

يقول عبد الله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد يا أبا عقيل؟ ما فيك قتال؟ قال: لقد نوه المنادي باسمي، قال ابن عمر: إنما قال يا للأنصار ولا يعني الجرحى، قال: أنا رجل من الأنصار، وأنا أجيبه ولو حبوًا.

فتحزم وأخذ السيف بيده اليمنى مجردًا، ثم جعل ينادي: يا للأنصار كرة كيوم حنين، فاجتمعوا رحمهم الله جميعًا يقدمون المسلمين دربة دون عدوهم حتى أقحموا عدوهم الحديقة، فاختلطوا، وأصلتت السيوف بيننا وبينهم.

فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت على الأرض، فسقط وبه أربعة عشر جرحًا كلها في مقتل، وكان عدو الله مسيلمة قد قتل، فوقفت على أبي عقيل في آخر رمق فقلت له يا أبا عقيل، فقال بلسان ملتاث: لبيك، لمن الدبرة، قلت له أبشر، ورفعت صوتي، قد قتل عدو الله، فرفع إصبعه يحمد الله.

يقول ابن عمر: فأخبرت عمر خبره كله، فقال: رحمه الله ما زال يسأل الله الشهادة ويطلبها، وإن كان ما علمت من خيار أصحاب النبي ﷺ، وقديم إسلام.





عياض بن غنم القرشي

من بنى فهر فى الذؤابة من قريش، ويكنى أبا سعد أو أبا سعيد، وهو ابن عم أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة وقيل إنه ابن امرأته.

أسلم قديما، وهاجر إلى المدينة المنورة، وشهد بدرا مع الطليعة المؤمنة، الذين لعل الله قد اطلع عليهم ثم قال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. كان مقاتلا جسورا شهدته المواقع مع النبي ﷺ ومع أصحابه.

فى حروب الشام كان هو أول من قاد جيشا مقاتلا ودخل به أرض الروم، يقول المؤرخون (هو أول من أجاز الدرب) أى فتح الطريق واسعا لغزو الروم، وفتح بلاد الجزيرة بعضها صلحا وبعضها عنوة، وكان حازما مع الجند ومع أهل البلاد التى يفتحها حتى تظل هيبة الدولة قائمة فى النفوس.

جاء فى مسند الإمام أحمد أن شريح بن عبيد قال: جلد عياض بن غنم صاحب دار فتحت، فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى غضب عياض، ثم مكث ليالى، فأتاه هشام فاعتذر إليه، ثم قال هشام لعياض: ألم تسمع رسول الله ﷺ يقول: إن من أشد الناس عذابا أشدهم للناس عذابا فى الدنيا ؟ وقال عياض: قد سمعنا ما سمعت، ورأينا ما رأيت، أولم تسمع رسول الله ﷺ يقول: من أراد أن ينصح لذى سلطان عامة، فلا يبد له علانية، ولكن يخل به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذى عليه له، وإنك يا هشام لأنت الجرئ، إذ تجترئ على سلطان الله، فهلا خشيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيلة سلطان الله.

وقد أمره أبوعبيدة واستخلفه حين أصابه الطاعون واشرف على الموت، ثم لما بلغ

الخبر عمر بن الخطاب ﷺ أقره على إمارته، وقال ما أنا بمبدل من استخلف أبو عبيدة، وأمر له برزق يجرى عليه من بيت المال، وبقى على إمرته حتى مات سنة عشرين من الهجرة المباركة.

كان عياض إلى حنكته القيادية، وخبرته فى القتال، وقدرته على التفاوض، وإقدامه فى الفتوح، ودرايته بسياسة الرعية، كان كريما سمحا جوادا صالحا فاضلا يسمونه (زاد الركب) لأنه كان يطعم من معه من زاده، فإذا نفد زاده نحر لهم جمله، وهو فى ذلك يتأسى بالنبي ﷺ الذى كان أجود الناس، ينفق حتى لا يبقى فى بيته شئ، فإن جاءه من يطلب منه نفقة قال ليس عندى شئ، ولكن إذهب إلى السوق فابتع على حسابى، فإذا كلمه بعض أصحابه فى ذلك وقال له: يا رسول الله إن الله تعالى لم يكلفك ما لا تطيق تغير وجهه وظهر عليه عدم الرضا، فإن استدرك أحدهم وقال: أنفق يا رسول الله ولا تخش من ذى العرش إقلالا، تهلل وجهه وقال بهذا أمرت.

وتأسى عياض بقول النبي ﷺ ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر، اللهم أعط ممسكا تلفا.

وفضيلة أخرى تذكر لعياض الذى تعلم من رسول الله ﷺ وحفظ عنه وروى وعلم، وهى فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يحتسب أجره على ذلك عند الله عزوجل، ويقى نفسه من غضبه، ذلك أن المسلمين إذا تركوا هذه الصفة فقد تخلوا عن سبب تفضيلهم على غيرهم من الناس، وفى ذلك يقول المولى عزوجل ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران ١١٠). وقد عاب الله تعالى على بنى اسرائيل أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

وتوعد النبي ﷺ أمته إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأن يجعل بأسهم بينهم شديدا وأن يسلط عليهم من لا يرحمهم وأن يخالف ما بينهم فتفسد العلاقات وتذهب المودة، ويحل محلها التباغض والتناحر، وتظهر الأحقاد، وتنقطع أواصر القربى والرحم.

ولن تعود هذه الأمة إلى قوتها وعزتها ما لم تقم هى بدور الرقيب على نفسها، فيحل التناصح والتآخى بين المسلم والمسلم، ويشعر كل واحد منهم أنه مسئول عن أخيه مثل ما هو مسئول عن نفسه، وأن رحم الإسلام بينهم يحتم أن يحب كل واحد منهم لأخيه مثل ما يحب لنفسه، وأن يكره له مثل ما يكره لنفسه، فيسعد أن أصابت أخاه

حسنة، ويحزن إن أصابه مكروه، ويرشده إن وجده حاد عن القصد أو مال عن الطريق، ويؤازره ويشد من عضده إن رآه على الجادة.

ولقد فهم بعض الصحابه غير الحق في قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة ١٠٥) وظن أن كل واحد مسئول عن نفسه، فأصلح لهم الصديق ﷺ هذا الفهم وقال لهم إن المسلمين مسئولون عن أنفسهم وكل واحد منهم مسئول عن أخيه، فإذا اهتدى المسلمون فلا يضرهم لو ضل غيرهم من الناس.

وإهمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يمنع التناصح بين المسلمين، ويضعف من قبضة عصمتهم لبعضهم ورقابتهم على أعمال بعضهم، فتزيد الهوة فيما بينهم مما يمكن الشيطان الرجيم من الإنفراد بكل واحد منهم على حدة فيغويه ويطويه تحت سلطانه.

كان عياض بن غنم ﷺ يدرك مسئوليته في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتبليغ ما حفظه عن النبي ﷺ الذى قال (نضر الله عبدا سمع مقالتى فوعاها فبلغها، فرب مبلغ أوعى من سامع).

أخرج الثلاثة عن شهر بن حوشب عن عياض بن غنم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوما، فإن مات فإلى النار، وإن تاب قبل الله منه، وإن شربها الثانية لم تقبل له صلاة أربعين يوما، فإن مات فإلى النار، وإن تاب قبل الله منه، وإن شربها الثالثة أو الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال، فقيل يارسول الله، وما ردغة الخبال، قال: عصارة أهل النار.





ذكوان بن عبد قيس الخزرجي

شاب جلد حاز من متاع الدنيا قدرًا جعله ينافح عنه، ويعمل على أن يزيده.

وإذا جاءت الدنيا يتم التصادم ويشجر الخلاف بين الناس، وقد يكون الخلاف يسيرًا، يتم حله، في وقت قصير، وربما استحكم الخلاف حتى يبحث المتخاصمان عن حكم يفصلُ بينهما، وهذا النوع من الخلاف هو الذي قاد ذكوان بن عبدقيس وأسعد بن زرارة إلى مكة حتى ينتظرهما قدر هو أحب إليهما، وأجدى عليهما من كل ما بلغته دنياهما من قبله.

اختلف ذكوان وأبوأمامة حول أمر من أمور دنيا الجاهلية، ووجدا أن ما شجر بينهما أكبر من أن يفصل فيه أحد من أهل يثرب، فارتحلا إلى مكة ليحكما بينهما عتبة بن ربيعة أحد حكماء مكة ووجهائها.

لم تكن مكة كما يعرفها الرجلان، إذ كانت تموج بأفكار غريبة، وتدب فيها روح عجيبة، فيها كثير من التوتر والقلق، وكثير من الاضطراب والتوجس، ولئن حاول أهل مكة أن يبدو سطحها هادئًا ساكنًا، وأن تبدو حياتها آمنة مطمئنة، فإن الأعين الخبيرة للرجلين لم يكن ليخفى عليها ما يمور في الأعماق تحت هذا السطح الهادئ الساكن.

أرسل الرجلان آذانهما لتتسمع ما يصل إليها من فلتات الألسنة مما يكسر حصار الكتمان الذي تحيط به مكة نفسها، فهالهما ما سمعا، وغذى التكتم ما في النفس من فضول فذهبا يستفسران ويبحثان عن التوضيح والتفصيل.

كان النبي ﷺ راجعًا من الطائف قبل زمن يسير، وكان يود أن يجد فيها مالم يجده في مكة من دخول في الإسلام، ومؤازرة للدعوة، ولكنه وجد فيها ما لم يجده في

مكة من أذى وصدود حتى خرج مطرودًا تشيعه سخرية القوم، وعذابات الأذى التي صبها عليه سفهاء القرية وأسافل الناس فيها، في وضح الظهيرة الحارقة، حتى أوى إلى بستان يملكه شعبة بن ربيعة وأخوه عتبة، الذي جاء الرجلان من المدينة ليحتكما إليه فيما اختصما فيه.

علم الرجلان كذلك أن عتبة وأخاه على عداوتهما للنبي ﷺ رقا له، وأشفقا على جسده المرهق، المثخن بالجراح، فأرسلا إليه قطفًا من عنب مع عبد لهما اسمه عدَّاس الذي ما إن بادل النبي ﷺ كلمتين أو ثلاثًا حتى انكب على رأسه يقبله، وأعلن إيمانه بدينه.

نسي أسعد وذكوان ما جاءا له، وذاب الخلاف بينهما، واتفقا على أن يجدا وسيلة يتوصلان بها إلى مكان النبي ﷺ، ليستمعا إلى قوله الذي أحدث كل هذا التوتر والقلق في مكة، وشغل عقول حلمائها، وأزعج حكماءها، وأفلحا في ذلك. وما إن سمعا منه حتى اقتحم الإسلام قلبيهما، وبايعا النبي ﷺ، ثم خرجا من عنده إلى يثرب، حيث أخبرا قومهما بما سمعاه، وانشغل أهل المدينة بهذا الأمر حتى جاء موسم الحج، والتقى ستة منهم بالنبي ﷺ منهم ذكوان بن عبدقيس ﷺ، ثم حضر ذكوان العقبتين بعد ذلك، ولزم مصعب في يثرب حتى إذ اطمأنت نفس ذكوان بأن الإسلام يكسب كل يوم أعوانًا، وتيقن أن أهل المدينة لا خلاص لهم إلا بالإسلام، ولا رجوع لهم عنه، قرر أن يعود إلى مكة من جديد، وأن يلزم النبي ﷺ، فلم يكن له طاقة عن البعد عنه بعدما سمعه أول مرة، وكم جاهد نفسه وصابرها لكي تنتظر فربما يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ولكنه لم يستطع.

لزم ذكوان رسول الله ﷺ في مكة ثم هاجر إلى المدينة بعد هجرته، فهو مهاجري أنصاري، مهاجري لأنه أقام بمكة بعد إسلامه وهاجر منها بهجرة النبي ﷺ، وأنصاري لأنه من أهل المدينة الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، ويحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

واسى ذكوان إخوانه المهاجرين بماله، وأفسح لهم في بيته، وأسبغ عليهم من محبته ومعونته، وآثرهم على نفسه، ووقى نفسه شحها، فكان من المفلحين.

كان من قبل يخاصم من أجل دنياه، ولكنه اليوم يخاصم من أجل دينه، فكل مسلم هو أخوه حتى وإن جار عليه، وكل مشرك أو كافر هو عدو له حتى وإن كان من بعض أهله، ولم يتخلف عن غزوة أو سرية يُنتدب إليها.

ثم كان يوم بـدر، وقـد جعـل النبي ﷺ الخـروج إليهـا واجبًـا علـى المهـاجرين وحدهـم، لأن الغنيمة من القافلة ستكون تعويضًا لهم عما تركوه من أموالهم في مكـة، أمـا أهل المدينة الأنصار، فكان الخروج بالنسبة لهم اختياريًا، فمن أراد مؤازرة إخوانه كُتب لـه أجره وبلاؤه، ومن ثقل عن الخروج فلا تثريب عليه حيث لـم يكـن في الحسبان أن تقـوم حرب بين المسلمين والمشركين.

لـم يترك ذكوان لنفسه خيارًا، وهو الذي ترك ولده وأهله وماله ولزم النبي ﷺ في مكة قبل الهجرة، فهل يتخلف عن نصرتـه بعـد الهجـرة وهـو يواجـه أعـداء اللـه وأعـداء رسوله وأعداء الإسلام ولو كانت في قافلة.

إذا لـم يكن في الخروج إلا مصاحبة النبي ﷺ فذلك يوجبـه علـى ذكـوان، ويلزمـه به، وإذا لـم يكن في الخروج إلا مؤازرة إخوانه المهاجرين وتكثير عددهم ومعونتهـم، فـإن اللـه في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه.

وإذا لـم يكن في الخروج إلا مصاحبة النبي ﷺ والاستماع إليه والتعلم منـه، فهـذا أيضًا سبب كاف يجعل ذكوان يصر على الخروج ويمنعه من التراخي، ليضيـف إلى أوسمته وسامًا آخر، فقد نال وسام المهاجر، ووسام الأنصاري، وهاهو بـالخروج إلى بـدر يحصـل على وسام دخول الجنة بغير حساب، لأن النبي ﷺ أخبر بقوله: كأن اللـه قد اطلـع علـى أهل بدر وقال لهم افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

كانت عند ذكوان بئر وفيرة الماء، فأوصى عبدالله بن حرام والد جابر أن يشـتريها له بأي ثـمن ثم يتركها سبيلاً للمسلمين، فسبقه سعد بن أبي وقاص فابتاعها مـن ذكـوان ببعيرين، ولا يُعتبر هذا ثـمنًا لبئر هذا شأنها، ولكن ذكوان عرف أن سعدًا اشـتراها لينفـع بها المسلمين، وليس ليتاجر فيها، فلماذا يُغلي عليه سعرها، لقد أراد ذكوان أن يكـون لـه شيئ من الأجر الذي سوف يحصله سعد.

ثم كانت غزوة أحد، حيث زحف المشركون تقودهم أحقادهم وعتـادهم وثـأرهم ليثـأروا مـن هزيمتهـم في بـدر، ولقتلاهـم وكـانوا زعمـاءهم، ورأى النبي ﷺ أن يبقـى المسلمون في المدينة، يتحصنون بها، ويدافعون عنها، وربما رجع أهل مكة مـن الطريـق إذا رأوا أن المسلمين لـم يخرجـوا إليهـم، بينمـا تحمـس الشباب الذيـن لـم يشـهدوا بـدرًا للخروج، فاستجاب النبي ﷺ للخروج إذ كان رأي الأغلبيـة، وخـرج بالنـاس إلى جبـل أحد. وفي ليلة المعركة وقف النبي ﷺ يطلب من الناس أن يعلنوا عـن رغبتهـم في الخـروج

إلى المعركة، فمن أراد أعلن عن نفسه، وكان ذكوان أول قائم يستجيب للنداء، راغبًا في الشهادة، طامحًا إلى حياة لا موت فيها ولا حزن ولا شقاء، ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (آل عمران ١٦٩-١٧٠).

قال ابن المبارك: لمّا خرج النبي ﷺ إلى أحد قال من ينتدب؟، فقام رجل من بني زريق يُقال له ذكوان بن عبدقيس، فقال النبي ﷺ من أحب أن ينظر إلى رجل يطأ بقدمه غدًا خضرة الجنة فلينظر إلى هذا، وأشار إلى ذكوان.

وصبيحة المعركة شد ذكوان مع المجاهدين وأبلى في الله أحسن البلاء حتى انتهز أبوالحكم بن الأخنس بن شريق فرصة فشد عليه وقتله.

يقول ابن عبدالبر: شاهد علي بن أبي طالب مقتل ذكوان بسيف أبي الحكم بن الأخنس فشد علي على أبي الحكم وهو فارس، فضرب رجله بالسيف فقطعها من نصف الفخذ، ثم طرحه عن فرسه وقضى عليه.





قطبة بن عامر

خزرجيٌّ سلميّ، ويُكنى أبا زيد.

لـم يكن دخول أهل يثرب إلى الإسلام سهلاً، وإن كانوا هـم أكثر استعدادًا مـن غيرهم لقبوله.

فقد أخبر أحد الأنصار عن جده أنه قال: جاءنا رسول اللـه ﷺ في منازلنا بمنى، ونحن نازلون بإزاء الجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف، وهو علـى راحلته مردفًا خلفه زيد بن حارثة، فدعانا فوالله ما استجبنا له، وقد كنّا سمعنا به وبدعائه في المواسم، فوقـف علينا يدعونا فلـم نستجب له، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسـيّ، فقـال لنـا: أحلف بالله لو قد صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحل به وسط بلادنـا لكـان الـرأي، فـأحلف بالله ليظهرن أمره حتى يبلغ كل من بلغ، فقال القوم: دعنا منك ولا تعرضنا لما لا قِبل لنا به، وطمع رسول الله ﷺ في ميسرة، فكلمه، فقال ميسرة: ما أحسـن كلامـك وأنـوره، ولكن قومي يخالفونني، وإنما الرجل بقومه، فـإذا لـم يعضـدوه فـالعدى أبعد، فـانصرف رسول الله ﷺ وخرج القوم مبادرين إلى قومهم، فقال ميسرة: ميلوا بنا نـأتي فـدك فـإن بها يهودًا نسائلهم عن هذا الرجل، فمالوا إلى يهـود، فـأخرجوا سـفرًا لهـم فوضعـوه، ثـم درسوا ذكر رسول الله ﷺ النبي الأمي العربي، يركب الحمار، ويجتزئ بالكسـرة، ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بالجعد ولا بالبسط، في عينية حمرة، مشرق اللون، فإن كان هـو الذي دعاكم فأجيبوه وادخلوا في دينه، فإنا نحسـده ولا نتبعه، وإنـا منـه في مواطـن بـلاء عظيم، ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه أو قاتله، فكونـوا ممـن يتبعه، فقـال ميسـرة: ألا ياقوم إن هذا الأمر بيِّن، فقال القوم: نرجع إلى الموسم ونلقاه، فرجعوا إلى بلادهـم، وأبـى ذلك عليهم رجالهم فلم يتبعه أحد. ولكن ميسرة أسلـم بعد حجة الـوداع في آخـر عهـد النبي ﷺ.

وإذا كان ركب ميسرة وغيره، لم يشرح الله صدورهم للإسلام، أو تأخر إسلام بعضهم، فإن غيرهم كانوا أكثر توفيقًا، وأسرع إجابة، مثل ذكوان بن عبدقيس، وأسعد بن زرارة، وقد أدى إسلامهما إلى أن تمت بيعة العقبة الأولى والثانية، وكان قطبة بن عامر ﷺ من رجال العقبتين.

من أمارات الصدق في العقيدة العمل على انتشارها والانتصار لها، والدفاع عنها، والفرح بعزتها، وكان هذا شأن الأنصار مع الإسلام، فقد تبوءوه فأصبح الإسلام لهم كاللحاء للشجرة، لا تحيا إلا به، وهم مع ذلك يحبون من هاجر إليهم وأكثر حبهم كان لرسول الله ﷺ الذي بلغ فرحهم حين استقبالهم في المدينة غايته.

ثم كان يوم بدر، ومن عجائبه أن خروج المسلمين فيه كان من أجل القافلة لا من أجل القتال ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (الأنفال ٧).

وقد نُدِبَ المهاجرون للخروج، ولم يكن ذلك واجبًا على الأنصار، لأنهم عند العقبة بايعوا على الدفاع عن الرسول ﷺ في المدينة، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم وأموالهم، ولم يشترط عليهم أن يكونوا معه خارج المدينة، ولكن الأنصار كما قال سعد بن معاذ يوم بدر (لقد آمنا بك وصدقناك، وآمنا بما جئت به، فلو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معه).

بدا للمسلمين بعد أن أخذوا أماكنهم في بدر أن أبا سفيان قد نجا بالقافلة بعد أن غير طريقها، وأن أهل مكة أقبلوا بجموعهم وسلاحهم لقتال المسلمين، حينئذٍ كُتِبَ القتال على المسلمين وهو كره لهم، ولكن ذلك لم يفت في عضدهم، أو ينال من عزيمتهم، فهم مع الله يجاهدون فيه وينصرونه فلا بد أن ينصرهم.

تقابل الجمعان في بدر، وأمسك قطبة بن عامر حجرًا ورماه إلى أبعد ما تستطيع قوته بين الصفين، وقال: سوف أثبت لهم ولا أفر حتى يفر هذا الحجر، وقد صدق، فلم يفر، كما صدق الله وعده بنصر المسلمين.

وفي أُحد، ثبت حتى جُرح تسع جراحات، وحُمل إلى خارج الميدان.

ولاه النبي ﷺ إمارة سرية من عشرين رجلاً، وأمره بشن الغارة على خثعم، فكمنوا في الطريق يتنسمون الأخبار، حتى رأوا رجلاً فأخذوه وحاولوا أن يعرفوا منه شيئاً

فادعى أنه لا يفهم، ثم رفع صوته يصيح، فعرفوا أنه أحد عيون خثعم، يعرف لهم أخبار المسلمين ثم ينذرهم بالخطر، فضربوا عنقه، ثم انتظروا حتى دخل الليل ونام الناس، فشنوا عليهم الغارة، لكن خثعم كانوا متأهبين، فاقتتل الفريقان قتالاً شديدًا حتى كثُر بينهم القتلى والجرحى، وقتَل قطبة خلقًا كثيرًا، وهُزمت خثعم، وساق قطبة ورجاله ما وجدوه من النعم والشاء والنساء إلى المدينة.

كان قطبة بن عامر راميًا سديد الرمي، ومقاتلاً شديد الوطأة على العدو، فلم يتخلف عن مشهد من مشاهد النبي ﷺ، وكان محبًا له يتبعه، ويأتمر بأمره، وينتظر تكليفه له، ويحلم مثله باليوم الذي يفتح الله عليهم مكة، لأن في فتحها استقرارًا للدولة، وأمانًا للدعوة، وظهورًا للدين، خاصة وأن الله تعالى أنزل بعد الحديبية ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح ٢٧-٢٨). وبعد هذه الآية فإن الله عز وجل مدح أصحاب رسول الله ﷺ الذين منهم قطبة بن عامر فقال ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح ٢٩). وقد صدق الله رسوله فلم يمر وقت طويل حتى نقض أهل مكة عهد الحديبية، فتوجهت كتائب الإيمان إلى الفتح، وكان قطبة يحمل راية بني سلمة حينئذٍ.

أخرج الثلاثة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم وهو مُحرم باب المسجد، وأبصره قطبة بن عامر الأنصاري أحد بني سلمة فاتبعه، فأبصره النبي ﷺ وقال: ما أدخلك وأنت مُحرم؟ قال: يارسول الله، رَضيتُ بهديك ودينك وسمتك. فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ (البقرة ١٨٩).

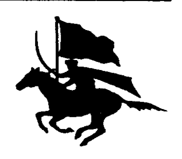
كان قطبة يرى أن الإسلام قول وعمل واتباع، وأن نصرة الإسلام تكون بالصدق في القول، والإخلاص في العمل، والالتزام في الاتباع.

وكان قطبة من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ومن الذين يعملون وهم

يعلمون أن الله يرى عملهم ورسوله وأنه سيرد إلى عَالم الغيب والشهادة فينبئه بما عمل.

وكان رسول الله ﷺ يرى قطبة حيث يحب أن يرى المسلم الذي خالط الإيمان قلبه، وامتزج بدمائه، وكذلك رآه خلفاء النبي ﷺ أبوبكر وعمر وعثمان، الذي في ولايته انتقل قطبة إلى رحاب ربه.

﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر ٢٧-٣٠).



مالك بن النيهان (أبو الهيثم)

بلويٌّ أوسيٌّ كريم حكيم، وأوتي مع الحكمة والكرم مالاً وفيرًا ونخلاً.

بلغه الإسلام من النفر القلائل الذين عرض عليهم رسول الله ﷺ نفسه، وكان أحد الستة الذين لقوه في العام الذي بعده، ودخلوا جميعًا في الإسلام، وواعدوه إلى العام المقبل، فرجعوا إلى قومهم، فدعوهم وأرسلوا إلى النبي ﷺ ليبعث إليهم رجلاً يفقههم، فأرسل إليهم مصعب بن عمير، وكان أبوالهيثم موازرًا له في أداء مهمته، وعونًا له في نجاحها، فدخل الإسلام كل بيت في المدينة.

ثم كانت العقبة الأولى، فبايعه أبوالهيثم وصحبه بيعة النساء وبشرهم بالجنة إن وفوا.

أما العقبة الثانية، فكانت البيعة فيها على أن يمنع الأنصار رسول الله ﷺ إذا خرج إليهم مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأموالهم، فأخذ البراء بن معرور بيد النبي ﷺ وقال له: نعم، فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يارسول الله، فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرًا عن كابر.

أراد البراء أن يواصل الحديث، ولكن أبا الهيثم اعترضه، فقال يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

وليس عجيبًا أن يقول أبوالهيثم هذا، فالهيثم فرخ العقاب، ولعله كنيَ بهذه الكُنية لما

له من نظر ثاقب، يمكنه تقدير الأمور، وتدبر عواقبها، ويفقه الواقع فقهًا لا يترك مجالاً لخطأ في التقدير أو لخلل في الحساب. ولقد رضي النبيﷺ عن قوله، وجعله أحد النقباء.

كان قومه حلفاء لبني عبدالأشهل، ولمّا كثُر ماله، وزادت قوته، طلب منه البعض أن يخلع عن كاهله هذا الحلف، فقال: لو انفلقت عني روثة لانتسبت إليها، محياي ومماتي لبني عبدالأشهل.

كان أبوالهيثم في الجاهلية يكره الأصنام، وكان ميالاً إلى التوحيد دون أن يهتدي إلى طريق يوصله إليه، فكان أقرب من غيره إلى الإسلام، وآخى النبي ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون التقي الورع الناسك.

شهد أبوالهيثم بدرًا وما بعدها فلم يتخلف عن غزوة غزاها رسول اللهﷺ.

بعد فتح خيبر كان النبي ﷺ ينتدبه ليخرص ثمره، وخرص الثمر تقدير قيمته وتقدير قيمة ما يخرجه أصحابه لبيت المال قبل جني الثمار، وعمل مثل هذا يحتاج إلى عقل وحسن تقدير وبعد نظر، وكان تقديره يتحرى العدل دائمًا ويصل إليه. ولقد حاول أبوبكر ﷺ في خلافته أن يخرص أبوالهيثم له الثمر كما كان أيام النبي ﷺ فأبى، فقال له أبوبكر: كنت تخرص لرسول الله ﷺ فما الذي تغير؟ فقال أبوالهيثم: كنت إذا خرصت لرسول الله ﷺ ورجعت دعا الله لي. فتركه أبوبكر.

عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبوبكر فقال له: ما جاء بك ياأبا بكر، قال خرجت للقاء رسول الله ﷺ والنظر في وجهه، والسلام عليه. فلم يلبث أن جاء عمر، فقال: ما جاء بك يا عمر؟ قال: الجوع يارسول الله، فقال النبي ﷺ: لقد وجدت بعض ذلك، فانطلقوا بنا إلى بيت أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير النخل والشاء، ولم يكن له خادم، فلم يجدوه، فقالوا لامرأته أين صاحبك؟ فقالت: انطلق ليستقي لنا الماء، فلم يلبثوا أن جاء أبوالهيثم بقربة يرعبها (أي يتدافع بها وهو يحملها لثقلها) فوضعها ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويفديه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقة، فبسط لهم بساطًا، ثم انطلق إلى نخلة، فجاء بقنو فوضعه، فقال رسول الله ﷺ: أفلا انتقيت لنا من رطبه وبسره؟ فقال أبوالهيثم: يارسول الله، إني أردت أن تختاروا ـ أو تتخيروا ـ من رطبه وبسره، وذبح لهم عناقًا فأكلوا وشربوا، فقال النبي ﷺ هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد (أخرجه الثلاثة).

في ذلك اليوم مدح عبدالله بن رواحة أبا الهيثم بقوله:

فلم أر كالإسلام عزًا لأهله ولا مثل أضياف الأراشي معشرا

وفي هذه القصة دلالات يتعلم منها المسلم ما ينصلح به أمر دنياه وآخرته.

لقد كانت مصادر دخل النبي ﷺ من المال كثيرة، تدر عليه رزقًا وفيرًا، فقد كان له نصيبه من الغنائم، وما أكثرها بعد الهجرة، وكان له خمسه من خيبر وغيرها من قرى اليهود، أرضًا تدر عليه دخلاً موسميًا متصلاً. ومع كل هذا الدخل فقد كان النبي ﷺ يخرج من بيته جائعًا يبحث عن طعام، وذلك لأنه يعرف رسالة المال، وأن الله لم يخلقه ليختزنه العباد، وإنما ليتم تداوله بينهم، تفرج به الكربات، وتقضى به الحاجات.

ليس كنز المال هدفًا يسعى إليه المسلم، وإذا كان من حق المسلم أن يسعى لجمع المال فإنما من أجل أن يضعه في المصارف التي شرعها الله عز وجل. النفقة على نفسه، وصون كرامته، فلا يتكفف الناس، ومن النفقة على نفسه وأهله وصلة رحمه، وإخراج الصدقة الواجبة والمندوبة، وتفريج كربات المؤمنين، فمن فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن يسر على مسلم يسر الله عليه.

وفي القصة دليل على عمق الصلة بين رسول الله ﷺ وصاحبه أبي الهيثم، حيث اختصه ببركته حين جلس في بيته، وأكل من طعامه، ودعا له. ويشتد فرح أبي الهيثم بهذه البركة التي أنعم الله عليه بها، فهو يلتزم النبي ﷺ ويعانقه ويقبله، ويُفَدِّيه بأبيه وأمه، ثم يبالغ في إكرامه لينال كثيرًا من دعائه، وكثيرًا من فضل الله عز وجل عليه.

وفي القصة كذلك حب أبي الهيثم للعمل، وشدة تواضعه، فهو على غناه وكثرة ماله لم يتخذ خادمًا، وإنما يحمل بنفسه قربة الماء الثقيلة، ويبسط الفراش، ويتسلق النخلة، ويذبح الشاه، ويخدم أضيافه، وخدمتهم شرف تقر به عينه، ورفعة تُبقِي له ذكره وترفع قدره.

ولأن أبا الهيثم كان محبًا للنبي ﷺ وآل بيته، فقد اختلفوا في عام وفاته، فمن قائل إنه مات في حياة النبي ﷺ، ومن قائل أنه شهد صفين مع علي رضي الله عنه ومات بعدها بقليل، ومن قائل إنه مات في صفين. ولكن ابن الأثير في أسد الغابة يرجح أنه مات في خلافة عمر رضي الله عنه في سنة عشرين من الهجرة النبوية المباركة، وقد كان رائدًا لا يكذب أهله، تقيًا، سمحًا، كريمًا ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (الليل ٥-٧).





عامر بن ربيعة بن مالك

كان في مكة حليفًا للخطاب بن نفيل، والد عمر بن الخطاب ﷺ، وقد أعجب به الخطاب فتبناه، فكان يُسمى عامر بن الخطاب، وظل ينادى بهذا الاسم حتى أنزل الله عز وجل قوله ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ... ﴾ (الأحزاب ٥)، فرجع إلى أبيه وسمي عامر بن ربيعة.

ولكن حادثة تبني الخطاب لعامر لا ينبغي أن تمر عابرة، لأن الخطاب لم يكن شخصًا مثل باقي الناس، وإنما كان عنده حزم، وشدة بأس، ولم يكن جانبه لينًا فقليلاً ماكان يألف الناس أو يألفه الناس، وهو يستخدم حزمه وبأسه على كل من يخرج على سنن العائلة أو القبيلة أو العرب، وقد استخدمه مع أخيه الذي كان من الحنفاء وتكلم بسوء عن الأصنام وأشار إلى عدم نفعها وضرها، وأن الكون لابد له من إله قوي سميع بصير حكيم يستطيع أن يدبره، وأن يُقيم أمره فيُمسك السماءَ أن تقع على الأرض، ويُقلبُ الليلَ والنهار، ويرزق من يَشاء بغيرِ حساب.

رأي الخطابُ فيما سمعه من أخيه خروجًا على دين الأجداد الذي وصل إليهم، ومهما يبدو من انحرافه فإن حكماء العرب يدينون به، ولم يبد على أحدهم أنه ضاق بهذا الدين أو سخر منه، فما يفعله أخوه يُعتبر تمردًا على أعراف العرب، وخروجًا على موروثها، فطرده من البيت، بل ومن مكة كلها، وربما حزن لفراقه، وربما تحركت آصرة الأخوة فيه، وربما أحس أنه أغلظ له أو ظلمه، ولكنه لم يتنازل أبدًا عن طرده خارج مكة، ولربما رأى الخطاب في مالك حزمًا وشدة بأس حبيبة إليه، وربما رأى فيه علمًا قد اقتبسه من حكماء مكة ومنهم الخطاب نفسه، وربما وجد فيه ما يكمل ولديه عمر وزيدًا، وزادت أواصرَ القربى بين عامر وآل الخطاب حين تزوج ليلى بنت ختمة وهي قريبتهم التي يألفونها وتألفهم.

سَمِعَ عامر بالإسلام أول ما صدع بـه النبي ﷺ بعـد قولـه تعـالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر ٩٤).

واستقبلت فطرته هذا الدين بشوق شديد فاندفع مؤمنًا قبل أن يدخل النبي ﷺ إلى دار الأرقم، وأوذي في الله هو وزوجته، وكان عمر بن الخطاب أشد إيذاءًا لهما، حيث اتفق كل بطن من قريش أن يتكفل بفتنة المؤمنين منه ليعودوا إلى سابق عهدهم بالكفر.

أشار النبي ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فسارع إليها عامر وزوجته، واستعد المهاجرون سرًا حتى لا يشعر بهم ذووهم. وبينما كانت ليلى بنت ختمة تضع اللمسات الأخيرة على الأغراض التي سيحملونها في هجرتهم فوجئت بعمر أمامها، فتملكتها الدهشة، وانتابتها الحيرة، وتوجست منه الشر كله وكان زوجها خارج البيت لقضاء بعض شأنهم فقال لها عمر: إلى أين يا أم عبدالله؟ قالت: وقد أفلت لسانها وفقدت السيطرة عليه سنهاجر ونترك لكم مكة وقد آذيتمونا وأردتم فتنتنا، فقال: وهل عزمتم فعلاً على الهجرة، قالت: عزمنا، وما بدا لكم فافعلوا: فظهر عليه الحزن، وأخذته الرقة الشديدة، وقال لها، صحبتكم السلامة.

وعندما جاء زوجها أبوعبدالله عامر بن ربيعة قصت عليه خبر عمر، ووصفت رقته وحزنه، فقال زوجها كأنك تطمعين في إسلامه؟ قالت: نعم، قال: لا يُسلم هذا حتى يُسلم حمار الخطاب، وقد أسلم عمر وكان حمار الخطاب مسلمًا من قبل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء ٤٤).

هاجر عامر بأهله الهجرتين إلى الحبشة، ثم كان من أوائل المهاجرين إلى المدينة، أما زوجته فهي أول المهاجرات النساء إلى المدينة. شَهِدَ بدرًا والمشاهد كلها، وتحمل وتعلم الزهد والقناعة وتأسى بالنبي ﷺ.

عن عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه ﷺ قال: إنْ كان رسول الله ﷺ ليبعثنا في السرية ومالنا زاد إلا جراب من التمر، فيقسمه صاحبه بيننا قبضة قبضة، حتى يصير تمرة تمرة، قال: فقلت: وما كان يبلغ من التمر؟ قال: لا تقل ذلك يابني، ولبعد أن فقدناها فاحتلنا عليها.

نزل به رجل من العرب ضيفًا فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ واديًا ما في العرب وادٍ أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي

في قطعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء ١).

عن عبدالله بن عامر عن أبيه قال: كنت مع النبي ﷺ في ليلة مظلمة سوداء فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يحمل الحجارة فيجعله مسجدًا فيصلي إليه، فلما أصبحنا إذا نحن على غير القبلة، فقلت يارسول الله: صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة ١١٥).

عن عبدالله بن عامر عن ربيعة عن أبيه أن رجلاً عطس خلف النبي ﷺ في الصلاة، فقال الحمدلله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يرضى ربنا عز وجل وبعد الرضى، والحمد لله على كل حال، فلما سلم النبي ﷺ قال: من صاحب هذه الكلمات؟ قال: أنا يارسول الله، وما أردت بها إلا خيرًا، قال: لقد رأيت اثنى عشر ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها.

انشغل عامر بالتعلم والعمل والرواية بعد أن امتحن في جسده نتيجة الغزوات والهجرة والأذى في سبيل دينه. روى عنه ولده عبدالله أن النبي ﷺ قال: ما من عبد يصلي عليَّ إلا صلت عليه الملائكة ما دام يصلي، فليقل العبد أو فليكثر. وروى عنه أن النبي ﷺ قال: من صلى عليَّ صلاةً صلى الله عليه عشرًا فأكثروا أو أقلوا.

ولكن رجلاً في حجم عامر وقِدم إسلامه وهجرته وبلائهِ لا يُترك بدون أن يتعرض للابتلاء الذي يبين جوهره ونقاوة معدنه. لقد قُتل الفاروق ﷺ، وهال الناس ماحدث، ثم انتهى رأيهم إلى ذي النورين عثمان ﷺ، وجدت أمور في عهد عثمان فرقت كلمة المسلمين بين مندفع في تأييده ومندفع في معارضته، ولو فكر المندفع في التأييد فلربما بدا له أمر، ولو تريث المندفع في المعارضة فربما تغير حاله، وهناك من وجدوا أنهم لايستطيعون التبين فاعتزلوا وهم قلة.

أما عامر بن ربيعة، فقد اشتد عليه أمر الفتنة، وما كان يخطر على باله أن تصل القطيعة بين المسلمين إلى هذا الحد، وأن يحفر الشيطان بينهم هذه الوهدة العميقة. كان منزعجًا ومكروبًا حين نشبت هذه الفتنة، فقام يصلي من الليل فرأى في منامه من يقول له: قم فسل الله أن يُعيذك من الفتنة التي أعاذ منها صالح عباده، فقام واغتسل وصلى وهو يقول: اللهم قني من الفتنة بما وقيت به الصالحين من عبادك، فاشتكى فما خرج إلا جنازة.

وروى ابن طاووس عن أبيه قال: لما وقعت فتنة عثمان قال رجل لأهله: أوثقوني بالحديد فإني مجنون، فلما قُتِل عثمان قال: خلوا عني: الحمدُ لله الذي شفاني من الجنون وعافاني من قتل عثمان، وقال ابن طاووس إن هذا الرجل هو عامر بن ربيعة، الذي قال عنه أبونعيم في الحلية: الزاهد في العطايا والقطيعة، شهد بدرًا والمشاهد، وعَمَّرَ بالذِكرِ البقاع والمساجد، تحرز بما أيد به من الفطنة عن الوقوع فيما امتحن به غيره من الفتنة، عاش كريمًا ومضى سليمًا.





عويم بن ساعدة

أنصاري أوسي، من الذين تبوءوا الدار والإيمان، كان أحد أفراد الطليعة المؤمنة التي لقيت النبي ﷺ وحملت الخبر إلى أهل يثرب، ثم حضر العقبتين، وكان في استقبال النبي ﷺ عند الهجرة المباركة، وآخى النبي ﷺ بينه وبين حاطب بن أبي بلتعة ﷺ.

حين دخل عويم في الإسلام، وبعد أن بايع النبي ﷺ، فقد تم له ولادة جديدة، وتشكيل جديد. تعلق قلبه بالله عز وجل، فهو يسابق إلى فعل الخيرات، ما كان له إلى ذلك سبيلاً، فهو مشفق من خشية الله عز وجل، مؤمن بآياته، ولا يشرك به شيئًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون ٥٧-٦١).

قال جابر ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (نِعمَ العبد من عباد الله والرجل من أهل الجنة، عويم بن ساعدة) . ما دعي المسلمون إلى عمل صالح إلا وكان عويم أحد المسارعين إليه، لأن قلبه معلق بالله عز وجل، والله يصعد إليه الكلم الطيب، وهو عز وجل يرفع العمل الصالح.

وأسلم نفسه لرسول الله ﷺ لأن طاعته علامة حبه لله عز وجل ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ...﴾ (آل عمران ٣١). والله عز وجل أمر المسلمين أن يأخذوا ما يأتيهم به النبي ﷺ ، وأنَّ ما ينهاهم عنه يجب عليهم أن يجتنبوه ﴿...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر ٧).

وثم مدرج آخر من مدارج الشرف والسؤدد يعرج إليه عويم بحضوره بدرًا، الذي

سماه الله عز وجل يوم الفرقان. وَشَهِدَ بعدها أحدًا والمشاهد كلها، شجاعًا مقدامًا لا يخاف عدوًا ولا يرهب موتًا، لأن خوفه من الله عز وجل ملأ قلبه فلم يترك مجالاً لخوف من شخص أو من شيء. وثقته بأن له أجلاً لن يعدوه جعله لا يرهب الموت مادام لا بد أنه ملاقيه، وأن بعده حياة أطيب من هذه وأبقى.

مؤمن عرف أنه له في الحياة رسالة أسمى من التعلق بها والجمع في حطامها وإذهاب طيباته فيها، عرف أن رسالة المؤمن في الحياة إعلاء كلمة الله عز وجل وإعزاز دينه بإعطاء الأسوة الحسنة من نفسه، بأن يطهر قلبه من الحسد والحقد، ويُخليه من العداوة والكراهية إلا لما يعاديه ويكرهه الله عز وجل، ويملأه بالخير والمحبة لله ولرسوله وللمسلمين، وأن يؤثر نفسه بكل عمل يقرب إلى الجنة، وأن يؤثر على نفسه بكل متاع في هذه الحياة الدنيا، ولكنه لا ينسى نصيبه منها، ونصيبه من هذه الحياة الدنيا هو قوت يومه، والأمن في سربه (فمن بات آمنًا في سربه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها).

وهو حريص على طهارة جسده كما تطهر قلبه من قبل، وعندما تآمر بعض المنافقين على رسول الله ﷺ وكرهوا أن يتبعوه في صلاة الجماعة، وخشوا أن يتخلفوا عنها فيُعرف نفاقهم، لأن التخلف عن صلاة الجماعة علامة من علامات النفاق، فهموا ذلك من قوله تعالى في صفات المنافقين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلا ۞ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا﴾ (النساء ١٤٢-١٤٣). انتهى رأي هؤلاء المنافقين إلى أن يبنوا مسجدًا، ويطلبوا من النبي ﷺ أن يصلي لهم فيه ليكون ذلك مبررًا لهم عن التأخر عن الصلاة معه، ويكون مأوى لهم لتدبير المكائد ضد المسلمين، ففضح الله تعالى أمرهم، ومنع الرسول ﷺ من الصلاة فيه، وشرح قصته في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة ١٠٧-١٠٨). والمسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هو المسجد النبوي الذي بناه النبي ﷺ وأصحابه أول وصوله إلى المدينة، والذين يحبون أن يتطهروا هم الأنصار.

فقال النبي ﷺ: (عويم بن ساعدة من الذين يحبون أن يتطهروا، والله يحب

المتطهرين). وفي مسند الإمام أحمد عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: إن الله أحسن الثناء عليكم في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطرون به، فقالوا: والله يارسول الله ما نعلم إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا.

ومات النبي ﷺ وهو راض عن عويم بن ساعدة ﷺ. وبينما المسلمون منشغلون بوفاة النبي ﷺ، نما إليه علم أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يبحثون أمر الخلافة من بعده، فأسرع إلى السقيفة أبوبكر وعمر وأبوعبيدة، وبينما هم في الطريق لقيهم رجلان صالحان هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي، فقال عويم: أين تريدون يامعشر المهاجرين، قالوا: نريد إخواننا من الأنصار، فقال عويم: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم. كان حريصًا على أن لا تحدث فتنة بين المسلمين، وأن لا يقع خلاف ذات بينهم، لأن النبي ﷺ قال: أصلحوا ذات بينكم فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر وإنما تحلق الدين.

وأنعم الله عليه بالجنة في عهد عمر ﷺ، فقام الخليفة فصلى عليه، ثم وضعه في قبره، وترحم عليه وقال: (لا يستطيع أحد من أهل الأرض أن يقول: إنه خير من صاحب هذا القبر، ما نصب رسول الله ﷺ راية إلا وعويم تحت ظلها) .





عبدالله بن أنيس الجهني المدني

تستعرض حياة صحابة رسول الله ﷺ فلا تكاد تجد بغضا لليهود مثل ما تجده عند عبدالله بن أنيس وأعنى البغض الإيجابى الذى يترتب عليه إنجاز عملى، ومن المسلم به أن كراهية اليهود عمل دينى يتقرب به المسلم إلى الله عزوجل، لأنهم من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، بل هم بتعبير القرآن أشد الناس عداوة.

وبغض اليهود لا يعنى كراهية أفراد بذاتهم، ولا غمطهم حقا لهم، ولا يترتب عليه ظلم أو انتقاص أو إساءة جوار أو أكل أموال بغير حق، فذلك منهى عنه لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، وأكل أموال الناس بالباطل يؤدى إلى حرمان من الجنة، وإساءة الجوار خطيئة تشين صاحبها.

وقد حذر رسول الله ﷺ من اتخاذ الكفر وسيلة لظلم الناس أو انتقاصهم حين قال (من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو أكل ماله بغير حق أو حمله ما لا يطيق فأنا خصيمه أو حجيجه يوم القيامة) ومعنى ذلك أن النبي ﷺ سوف ينتصر لغير المسلم من المسلم يوم القيامة.

وإنما البغض الذى يتقرب به المسلم إلى الله عزوجل فهو بغض لمنظومة الأخلاق اليهودية، ونسق الفكر اليهودى، حتى لاينخدع المسلم إذا رأى من اليهود جنوحا إلى المصالحة أو رغبة فى المعاهدة فهم لا يلجأون إلى ذلك إلا إذا وجدوا اتجاه الريح لغير صالحهم، فإذا ما غير الريح اتجاهه، ووجدوها مواتية لهم ضربوا بالعهود والمواثيق، وخفروا ذمتهم، وأبدوا ما كانوا يخفونه، وظهروا على حقيقتهم التى وصفها الله عزوجل وصفا كاملا للتحذير منهم حتى يأمن الناس شرهم.

واجب على المسلم إذن أن يبغض هذا النسق من الفكر والخلق، وأن يعادى منطلقاتهم النفعية المتعالية، المجردة من الرحمة والإنسانية والأعراف البشرية. ولكن قليلا من المسلمين يزيدون بحمد الله يوما بعد يوم هم الذين يترجمون هذا البغض العبادى المستكن الكامن إلى تعبير عملى يصُمُّ هؤلاء المتعالين بالذلة، ويلحق العار بكبريائهم الزائفة، ويكشف القناع عن وجوههم القبيحة، ومن أبرز هؤلاء كان عبدالله بن أنيس الأسوة والمثال.

أسلم قديما مع السابقين من أهل المدينة، وشهد العقبة وبدرا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان بارزا فى كل المواقع التى شهدها، ولكنه إذا تعلق الأمر بانتهاك حرمات الله، أو بالصراع مع اليهود، فالغضب لله حينئذ لا يقف أمامه شئ.

اشترك فى رجم زان اعترف بخطيئته، ثم حاول المخطئ أن يفر من قسوة الرجم وشدة الألم، فلم يفلته ابن أنيس حتى قتله، وقص ذلك للنبي ﷺ، ولعن الرجل، فقال له: ليتك تركته فلعله أن يتوب فيغفر الله له، ولا تلعنه.

وإذا كان الأوس والخزرج فى الجاهلية يتصارعان ويقتتلان من أجل عرض الدنيا، فإنهما بعد الإسلام يستبقان فى نصرة الإسلام.

قال ابن إسحق فى رواية عن مالك، وكان مما صنع الله به لرسول الله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار الأوس والخزرج، كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئا عن رسول الله ﷺ غناء إلا قالت الخزرج، والله لاتذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفى الإسلام.

قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك.

ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج: والله لا تذهبون بها فضلا علينا أبدا، فتذاكروا من رجل لرسول الله ﷺ فى العداوة كابن الأشرف، فذكروا ابن أبى الحقيق، وهو بخيبر فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى قتله فإذن لهم.

فخرج إليه من الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر قال: نهاهم رسول الله ﷺ أن يقتلوا وليدا أو امرأة، فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبى الحقيق ليلا، فلم يدعوا بيتا فى الدار إلا أغلقوه على أهله.

وكان بيت أبي الحقيق عاليا وله سلم من جذع النخل، اختبأ تحته هـؤلاء الخمسة حتى إذا دخل الليل أستأذنوا عليه فخرجت إليهم امرأته فقالت: من أنتم ؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس الميرة، قالت: ذاكم صاحبكم، فادخلوا عليه، قال: فلما دخلنا عليه، اغلقنا علينا وعليها الحجرة، تخوفا أن يكون له حراسة، فصاحت امرأته واستغاثت علينا.

فهجموا عليه بسيوفهم، ويريدون قتلها ويمنعهم أمر رسول الله ﷺ، فتحامل عليه عبدالله بن أنيس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه، وهو يقول: قطني: قطني، أى حسبى حسبى.

وادعى كل منهم أن ضربته هى التى قتلت عدو الله، فقال النبي ﷺ: هاتوا سيوفكم، قال: فجئنا بها، فنظر إليها، فقال لسيف عبدالله بن أنيس، هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام.

وثم موقف كان فيه ابن أنيس كذلك أحد أفراد بمجموعة فدائية مجاهدة يقودها عبدالله بن رواحة، وترويها كتب المغازى.

نما إلى علم رسول الله ﷺ أن اليسير بن رزام من يهود خيبر كان يجمع غطفان لغزو النبي ﷺ، فبعث إليه عبدالله بن رواحه فى نفر من أصحابه منهم عبدالله بن أنيس، فلمّا قدموا عليه كلموه، وقربوا له، وقالوا له: إنك إن قدمت على رسول الله ﷺ استعملك وأكرمك، فلم يزالوا به حتى خرج معهم فى نفر من يهود، فحمله عبدالله بن أنيس على بعيره، حتى إذا كان بالقرقرة من خيبر على ستة أميال ندم اليسير بن رزام على مسيره إلى النبيّ ﷺ وأخذ يفكر فى حيلة للإفلات منهم، ولكن عبدالله بن أنيس فطن به وهو يهم بإمساك السيف، فأسقطه على الأرض وهوى عليه بالسيف فقطع رجله فى اللحظة التى ضربه فيها اليسير بعصا أصابت رأسه وتولى الأخرون من بصحبتهم من اليهود، فلما قدم عبدالله بن أنيس على رسول الله ﷺ تفل على جرحه فلم يتقيح ولم يؤذه وبرئ.

يكون عبدالله بن أنيس فردا فى جماعة، ولكنه يكون الأكثر إيجابية فى إظهار كراهيته وعداوته، لأنه إنسان نقى الفطرة، فيبغض كل ما يعاكس هذه الفطرة، فكان يكسر أصنام المشركين فى يثرب ليلا، ويعيب عليهم بعدهم عن الحق بعد إذ عرفوه.

وكان مسكنه حول المدينة ويكلفه الوصول إلى مسجد النبي ﷺ جهدا كبيرا، فيبيت فى الصفة ليالى بعيدا عن أهله وأعماله، وفى رمضان طلب من النبي ﷺ أن يعين له

ليلة يقيمها فى المسجد، فأرشده إلى ليلة الثالث والعشرين، فكان المسجد يحتشد لمقدم الرجل الجليل عبدالله بن أنيس.

وقبل أن نعرض لموقعة أخرى له مع اليهود نحب أن نشير إلى نقطة هامة أثارها ما سبق أن أوردناه فى هذا الحديث. ذلك أن الطريقة التى تم التخلص بها من كعب بن الأشرف أو ابن أبى الحقيق أو من سوف نتحدث عنه بعد، قد تثير تساؤلاً لابد من إيضاحه، وهو: ألا توجد شبهة الغدر فى هذه الطريقة؟

والإجابة بإيجاز شديد، هى أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا يواجهون المسلمين فى الجهر، وإنما دائما كانوا يتعاملون فى الخفاء، وبإسلوب الغدر وحده، تحريض، وحشد، وإثارة للضغائن والأحقاد بدون مواجهة، ومنطق العدل يقتضى أن تكون المعاملة بالمثل، (وجزاء سيئة سيئة مثلها) . ونصل إلى ذروة المواجهة بين عبدالله بن أنيس واليهود، ونسميها الذروة لأن كتب المغازى تسميها غزوة مع أن النبي ﷺ لم يشهدها فضلا عن أنها لم يقم بها إلا رجل واحد فقط هو عبدالله بن أنيس، قال عبدالله بن أنيس: دعانا رسول الله ﷺ وقال: من لي بخالد بن نبيح، فإنه يجمع الناس لغزونا بعرنة قريبا من عرفة، فقلت أنا يا رسول الله، انعته لى حتى أعرفه، قال: إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان، وإذا رأيته هبته، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة فقلت: والذى بعثك بالحق ما هبت شيئا قط، قال: فتوشحت سيفى حتى دفعت إليه ومعه نساؤه يرتاد لهن منزلا، وحيث كان وقت العصر فلما رأيته رعبت منه، ووجدت ما قال لى النبي ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن تكون بينى وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشى نحوه أومئ برأسي، فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟، قلت: رجل من العرب سمع بك، وجمعك لهذا الرجل فجاءك لذلك،.فقال: أجل إنى أجمع له، قلت فهل من مبيت؟، قال: تعال معي: فمشيت معه شيئا حتى إذا أمكننى حملت عليه بالسيف فقتلته وخرجت ونساؤه منكبات عليه.

قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني قال: أفلح الوجه: قلت: قد قتلته، قال: صدقت.

ثم قام بى فأدخلنى بيته، وأعطانى عصا أو قال مخصرة فقال: أمسك بهذه عندك يا بن أنيس، قال: فخرجت بها على الناس: فقالوا: ما هذه ؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرنى أن أمسكها عندى، قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله لم ذلك؟ قال فرجعت فقلت: يا رسول الله لم أعطيتنى هذه ؟ قال: آية بينى وبينك يوم القيامة،

إن أقل الناس المتخصرون يومئذ، فقرنها عبدالله بن أنيس بسيفه، فلم تزل معه حتى مات، ثم أمر بها فضمت إلى كفنه، ثم دفنا جميعا.

قال عبدالله بن أنيس فى شعر عن قتله ابن نبيح:

أقــول لــه والسـيـف يعجـم راسـه	أنـا ابـن أنيـس فارسًـا غـيـر قعـدد
أنـا ابـن الـذي لـم ينزل الدهر قِـدْرَه	رحيـب فنـاء الـدار غـير مزنـد
وقلـت لـه: خذهـا بضربـة مـاجد	حنيـف علـى ديـن النبـي محمـد
وكنـت إذا هـم النبي بكـافر	سـبقت إليـه باللسـان وباليـد



النعمان بن قوقل

هو النعمان بن مالك بن ثعلبة بن دعد الخزرجيّ. وثعلبة هو الذي يسمى قوقلاً، لأنه كان له عز وشرف، وكان يقول للخائف إذا جاء: قوقل حيث شئت، فأنت آمن. فقيل لأبنائه من بعده قواقل، ولزمهم هذا اللقب، وبه كتبوا في الديوان.

بدأ دخوله إلى الإسلام بصورة عملية، يتجلى فيها الإخلاص وصدق النية، والرغبة فيما عند الله، والطمع في الجنة، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أرأيت إن صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وحرمت الحرام، وحللت الحلال لم أزد على ذلك شيئًا، أدخل الجنة؟ قال: نعم، قال النعمان: فوالله لا أزيد عليه شيئًا. (مسلم) . وفي رواية أخرى، أن النبي ﷺ قال: أفلح إن صدق. وفي رواية أخرى: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا.

فهم النعمان أن الإيمان قول وتصديق وفعل، و أنه إذا وجد التصديق الذي لا يخالطه شك فقد تحقق الإخلاص في العمل، وإذا تحقق الإخلاص للعمل كان حسنًا، والله عز وجل لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وفهم النبي ﷺ صدق نية النعمان، وعرف إخلاصه وترك لنا من قول هذا الصحابي الجديد وفعله درسًا يتعلم منه من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فقال أولاً: أفلح إن صدق، ثم بشّره، ووضع الأسوة الحسنة فيه ولمس جانبًا يجب أن يتنبه إليه المسلمون، وهو أن النافلة لاتقبل حتى تؤدى الفريضة، وأن الإخلاص في أداء الفرائض يجعل من النوافل فعل النافلة. فعندما قال النعمان: والله لا أزيد عليها، أشار النبي ﷺ إلى كفايتها عملاً صالحًا، يتقرب به العبد إلى الله عز وجل فقال: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا.

ولكن النعمان لم يكتف بما وعد أن يخلص فيه، بل كلما وجد سبيلاً للمكرمات سارع إليه، وقد كان هو وقومه في الجاهلية يحبون مكارم الأخلاق، فهو أحرص على ذلك في الإسلام، وقد تحدث النبي ﷺ عن العرب بقوله: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.

وإذا كان رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، فإن ذروة سنامه هو الجهاد، ولا يقبل النعمان بأقل من ذروة السنام بعد أن أقام الأركان التي صنعت منه مسلمًا وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض.

كم شهد النعمان من حروب في الجاهلية، وكم شارك في مواقع بعضها بالحق وأكثرها بالباطل، ولكنه خرج إلى بدر بروح جديدة، فهذه أول حرب يخوضها بروحه الجديدة، وإيمانه الجديد، الذي يرفض الباطل ويأبى الظلم ويجاهد في سبيل الله، ولايقاتل من أجل امرأة ينكحها، ولا دنيا يصيبها.

لقد وعدهم الله عز وجل إحدى الحسنيين، فالغنيمة والنصر حُسْنَى، والموت في سبيل الله حُسْنَى، والمؤمن حريص على أن ينال إحدى الحسنيين، وليست إحداهما بأحب إليه من الأخرى، بل ربما كانت الشهادة أحب إليه من الغنيمة، فالشهادة هي أبقى الغنائم وأشهاها.

كتب الله للنعمان إحدى الحسنيين في بدر، فتحقق النصر العزيز للمسلمين ورجعوا بما كتب لهم من أجر وما اكتسبوه من غنائم، ولكن النعمان يطمح إلى تلك الحُسْنَى التي يتم فيها بيع بينه وبين الله عز وجل فهو يهب نفسه الغالية رخيصة لله تعالى في مقابل الجنة التي وعدها الله البائعين له أنفسهم ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ، فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ١١١-١١٢).

ثم كان يوم أحد، وقد تأهب له المشركون عامًا كاملاً منذ هزيمتهم في بدر، وجاء خبر زحفهم، واشتاق المسلمون للقائهم، فقد رأوا معونة الله في بدر، وشاهدوا آياته في تثبيتهم ونصرهم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ (الأنفال ١٧).

ذكر السُّدِّيّ أن النعمان بن مالك الأنصاري قال لرسول الله ﷺ في حين خروجه إلى أحد ومشاورته عبد الله بن أبي بن سلول -ولم يشاوره قبلها- فقال النعمان بن مالك: والله يا رسول الله، لأدخلن الجنة، فقال له النبي ﷺ: بم؟ قال النعمان: بأني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وأني لا أفر من الزحف، قال: صدقت، فقتل يومئذ.

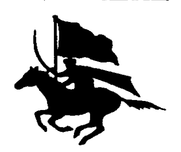
كان ابن سلول من المخذلين، والمعوّقين، وكان النبي ﷺ يريد أن يبطل كيده، فشاوره أمام المسلمين حتى لا يترك لنفاقه مجالاً للعمل في الخفاء، وكان النبي ﷺ يرى أن يقيم المسلمون في المدينة فإن جاء المشركون إليهم كان عند المسلم دوافع كثيرة للقتال، وإن رجعوا حين لم يخرج إليهم المسلمون، فقد كفى الله المؤمنين شر القتال.

وكان ابن أبيّ يرى عدم الخروج من المدينة كذلك، ولكن لسبب آخر، هو نفاقه وكراهيته للإسلام، وحرصه على أن لا يلتقي المسلمون بالمشركين لأن الدائرة تكون على الكافرين، وفي ذلك عزة للإسلام لا يتمناها منافق مثله، ولكن المسلمين أصحاب النبي ﷺ الذين ملأ الإيمان قلوبهم، وشغلتهم نصرة الإسلام وعزته عزموا على النبي ﷺ أن يخرج بهم للقتال فاستجاب لهم فأساء هذا عبد الله بن أبي وحذر من الهزيمة، فكان رد النعمان أن المسلم إذا صدقت نيته لا ينهزم، فهو إما فائز بتحقيق النصر، وإما فائز بالشهادة وكلاهما خير.

خرج النبي ﷺ بالمسلمين إلى أحد، وفي صبيحة يوم المعركة سمع المسلمون صوت النعمان بن مالك بن قوقل، وهو يتضرع مناجيًا ربه عز وجل ويقول: (اللهم إني أسألك ألا تغيب الشمس حتى أطأ بعرجتي هذه خضر الجنة).

وسأل النبي ﷺ عنه في آخر المعركة، فوجدوه شهيدًا مع الصحبة الطيبة التي استشهدت في ذلك اليوم، فقال النبي ﷺ: (ظن بالله ظنًا فوجده عند ظنه، لقد رأيته يطأ خضر الجنة وما به عرج).





عاصم بن ثابت بن الأقلح

منذ دخل الإسلام مع قومه الأنصار حدث له تغير في كيمياء جسده الطاهر، فأصبح الكافر - أي كافر - بالنسبة لجسده ميكروبًا يتحاشى أن يلامسه، وتستنفر له قوى جسمه وخلايا دمه إذا تطرق الظن يومًا أنه يمكن أن يلمس كافرًا.

ليس الكفر عند عاصم نجاسة حكمية مأخوذة من قول الله عز وجل ﴿...إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ...﴾ (التوبة ٢٨)، بل الكفر مرض عضويّ يتوقاه المؤمن الذي يعلم يقينًا أن المؤمن القوي خير وأحب عند الله عز وجل من المؤمن الضعيف، وأن الكفر يمكن أن يضعف جسد المؤمن إذا لامسه ومن هنا أقسم عاصم رضي الله عنه أن لا يلمس جسده جسد كافر.

نقدم هذا المثال لكثير من بني قومنا مالوا عن القصد وبعدوا عن المحجة البيضاء التي تركهم عليها رسول الله ﷺ، فبهرهم زخرف الحياة المادية الذي وسع الله عز وجل فيه على الكفار، والشهوات التي زينها الشيطان فيهم أو زينهم بها، فإذا تحدث عن النظام والنظافة ضرب الأمثلة بالكفار، وإذا تعرض للآداب والأخلاق جعل معيارها ما يتخلق به الكفار، وإذا بحث في التنشئة الاجتماعية، وعناصر التربية، ونظريات التعلم فإنه يريد حمل المجتمع على أن يسلك ما يسلكه الكفار.

وإذا عرج الحديث على العلاقات الأسرية جعل المرأة متاعًا معروضًا، ورفض القوامة في البيت، وقاوم التماسك الأسري، ففقد البيت كونه سكنًا، وفقدت العواطف نبلها وطهارتها وعفتها، وأصبحت الحياة عبئًا، والزواج قيدًا، والأبناء أندادًا أو خصومًا، وتغير مفهوم الفضيلة، وتبدلت قيم الآداب، وضاقت النظرة في حدود الحياة الدنيا وتنامت

الدعوة إلى إن يعب منها ما يمكنه ذلك قبل أن تنتهي ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(الأنعام ٢٩)، وذلك منطق الكفار منذ وجد الكفر.

وذلك النكوص الذي يسارع إليه كثير من بني قومنا، وأصاب ببعض شروره أو كثير من شروره من نحسبهم على الجادة أنذر به الله عز وجل، وخوف منه النبي ﷺ، وسمى الله عز وجل سورة من القرآن باسم (الزخرف) وفيها ﴿وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۞ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۞ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف ٣٣-٣٥)، وفي الحديث: (لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع...) .

وفي الحديث كذلك: (من أحب قومًا حشر معهم) ناهيك عن كثرة الآيات والأحاديث التي تأمر بالتعفف والتصون وتنهى عن التبرج والخضوع بالقول، وتحافظ على سلامة البيت وتحوطه بالرعاية، وتحث على إكرام الزوجة واحترام الزوج وحسن رعاية الأبناء، والبر بالآباء، وتنهى عن إلقاء المودة للكافرين واتخاذهم أولياء، وتحذر من تقليدهم والتأسي بهم.

وفى عاصم بعهده مع الله فوفى الله عز وجل كما قال عمر بن الخطاب فوفى الله عز وجل له، وبر له بقسمه، وكان النبي ﷺ ينتدبه مع من ينتدبهم للأمور العظيمة.

أبلى في غزوة بدر، ثم أمره النبي ﷺ أن يقتل عقبة بن أبي معيط جزاء له على ما آذى النبي ﷺ، ولما أقبل إليه عاصم ليقتله قال: علام أقتل؟ قال: على عداوتك لله ورسوله.

في غزوة أحد كان عاصم من الرماة المذكورين، وكان ينتقي من يحملون الراية في جيش المشركين، فأشعر نافع بن أبي طلحة سهمًا فأتى أمه سلافة ووضع رأسه في حجرها فقالت: يا بني من أصابك؟ قال: سمعت رجلاً حين رماني يقول: خذها وأنا ابن الأقلح. وفعل مثل ذلك لأخيه الجلاس، ولما ماتا نذرت سلافة إن تمكنت من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر.

بعد انتهاء المعركة جاء علي بن أبي طلب بسيفه يوم أحد قد انحنى فقال لفاطمة: هاك السيف حميدًا فإنه قد شفاني، فقال رسول الله ﷺ : لئن كنت قد أحدت الضرب بسيفك لقد أجاد سهل بن حنيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة.

في غزوة الرجيع أرسل النبي ﷺ نفرًا من أصحابه منهم عاصم بن ثابت ليعرفوا أخبار قريش، ولكن قومًا من هذيل في بني لحيان عرفوا بأمرهم فخرجوا يعترضونهم ابتغاء أن يأسروهم ثم يسلموهم لقريش نظير شيء من المال.

أحاط المختطفون بالفئة المسلمة، وأخبروهم بأنهم لا يريدون قتلهم وإنما سيبيعونهم، وطلبوا منهم أن يسلموا أنفسهم إذا أرادوا أن يبقوا عليها، فقال عاصم: والله لا أقبل لمشرك عهدًا وقد نذرت أن لا يمس جسدي جسد مشرك، ثم دعا فقال: اللهم أبلغ نبيك الليلة ما يفعل بنا. ثم أنشد:

ما علتي وأنا جلد نابل — والقوس فيها وتر عنابل

تزل عن صفحتها المعابل — الموت حق والحياة باطل

وكل ما حم الإله نازل — بالمرء والمرء إليه آيل

إن لم أقاتلكم فأمي هابل

وقاتلهم هو وأصحابه حتى قتل رضي الله عنه.

أراد القتلة أن يأخذوا رأسه لتشتريها منهم سلافة حتى تفي بنذرها، فأرسل الله من جنوده جيشًا من الدبر غطت جسده الشريف فمنعتهم من الوصول إليه فتواعدوا أن يأتوه في المساء حيث تبتعد عنه الدبر، ولكن الله عز وجل أرسل سيلاً غمر الوادي واحتمل عاصمًا فأخفى جثته وبرت يمينه فلم يمس جسده جسد كافر.

وعاصم بن ثابت هذا هو جد عاصم بن عمر بن الخطاب الذي أنجبت بنته ليلى عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران ٣٤).





المنذر بن عمرو

أنصاريّ خزرجيّ ساعديّ، نقيب عقبيّ بدريّ أحديّ، وإن شئت وساما سابعا فهو ما قلده إياه رسول الله ﷺ بعد أن قلده الله عزوجل أكبر وسام وهو وسام الشهادة، قال عنه: أعنق ليموت، فكان إذا ذكرت سيرته الطيبة يسمونه المعنق ليموت.

ولكن أوسمة النبل والسؤدد لم تنقطع عن المنذر منذ أيام الجاهلية، فالأمية عيب في الإنسان شعر به الجاهليون حين كانت الأمية هي السائدة، وكانوا يرون في معرفة الكتابة كمالا للإنسان، ولا تعتبر الأمية في أي عصر فخرًا إلا لرسول الله ﷺ الذي تعتبر الأمية فيه معجزة، إذ أنه مع أميته علم أمة أصبحت بما علمها إياه خير أمة أخرجت للناس، وكفاك بالعلم في الأمّيّ معجزة.

كان المنذر بن عمرو يعرف الكتابة في الجاهلية فكان على صغره مقدّما في قومه لحاجتهم إليه، وحضر العقبة فجعله النبي ﷺ نقيبا على الخزرج هو وسعد بن عبادة رضي الله عنه ، ومهمة النقيب أن يكون كفيلا على قومه، داعية لهم، ووكيلا عنهم يتحدث مع النبي ﷺ بلسانهم، وتكون معه أخبارهم، وهذه مسئولية يختار لها النبي ﷺ من يكون قادرا على القيام بها.

آخى النبي ﷺ بعد الهجرة الشريفة بين المنذر وبين طليب بن عمير بن وهب ابن عمة النبي ﷺ.

في بدر كان أحد الذين اطلع الله عزوجل عليهم فغفر لهم، وفي أحد كان على ميسرة النبي ﷺ فكان أحد الذين دافعوا عنه دفاعا مجيدا حين احتشدت كتائب المشركين تحاول قتله ظنا خاطئا منهم أنهم إذا قضوا عليه فقد قضوا على الإسلام، وكأنهم يجهلون

أنه علم رجالا يستطيعون بحول الله عزوجل أن يحملوا هذا الدين في قلوبهم، وأن يضعوه على أكتافهم ليصلوا به إلى الآفاق كلها.

لفت المنذر بن عمرو أنظار المقاتلين بدخوله بين صفوف المشركين بغير تحفظ وكأنه يسرع إلى الموت ويضع نفسه بين براثنه، ولكنه وإن أصابته جراحات خرج حيا لم يدركه الموت لأن عمره ما زالت فيه بقية خير ينتفع بها دينه، ولو أن الناس أدركوا ما استقر في وجدان المنذر وجيله من أنه لن تموت نفس منفوسة حتى تستوفي أجلها ورزقها، ما جبن مسلم عن جهاد، ولا تثاقل عن مكرمة، ولأعنق إلى الموت كما أعنق المنذر فأدركته مثوبة النية الحسنة.

بعد غزوة أحد بستة أشهر قدم إلى المدينة أبو براء عامر بن مالك المعروف باسم (ملاعب الأسنة) فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجلا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ ، إني أخشى عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا جار لهم، فبعث النبي ﷺ أربعين رجلا من خيرة أصحابه، وأمّر عليهم المنذر بن عمرو (المعنق للموت) ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في الكتاب حتى هجم على الصحابي الجليل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر ذمة أبي براء، وقد عقد لهم عقدا وجوارا، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم (عصية ورعلا وذكوان والقارة) فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى أحاطوا بأصحاب النبي ﷺ الذين أمسكوا بسيوفهم، وقاموا بعددهم القليل لمواجهة هذا الجمع الرهيب الذى جاء بالغدر والخيانة وأسرع المنذر بن عمرو إلى الموت يتقدم أصحابه فقاتلوا حتى استشهدوا جميعا ما عدا واحدا ظل به رمق ولم ينتبهوا إلى أنه ما زال حيا.

كان يرعى إبل المسلمين وأغنامهم رجلان لم يشعرا بما حدث لإخوانهما إلا حين أبصرا بالطير تحوم حول معسكرهم، فقالا والله إن لهذه الطير لشأنا، فأقبلا لينظرا، فإذا المنذر وأصحابه في دمائهم، وإذا القتلة ما زالوا في أماكنهم فأما أحدهما فقاتل حتى قتل، وأما الآخر فقد أسروه.

فلما عاد الأسير (عمرو بن أمية) إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، قال النبي ﷺ عن المنذر (أعنق ليموت) وشق عليه ما حدث لأصحابه وقال: (هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارها متخوفا) وقال حسان بن ثابت يبكي قتلى بئر معونة:

علـــى قتلـــى معونـــة فاســـتهلّي	بدمـــع العـــين ســـحًا غـــير نـــذر
علـى خيـــل الرســـول غـــداة لاقـــوا	ولاقتهـــم منيتهـــم بقـــــدر
أصـــابهم الفنـــاء بعقـــد قـــوم	تخـــوّن عقـــد حبلهـــم بغـــدر
فيـــالهفي لمنـــــذر إذ تولّـــــى	وأعنـــــق في منيتـــــه بصـــــبر
وكائـنْ قـد أصـيب غـداة ذاكـم	مـن أبيـض ماجـدٍ مـن سـر عمـرو

عن أنس بن مالك ﷺ أن سبعين رجلا من الأنصار كانوا إذا جنهم الليل آووا إلى معلم لهم بالمدينة يبيتون يدرسون القرآن، فإذا أصبحوا فمن كانت عنده قوة أصاب من الحطب واستعذب من الماء، ومن كانت عنده سعة أصابوا الشاة فأصلحوها، فكانت تصبح معلقة بحجر رسول الله ﷺ، فلما أصيب خبيب بعثهم النبي ﷺ.

يقول أنس: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على سرية وجده عليهم، ولقد قنت على الذين قتلوهم شهرين كاملين ولم نكن نقنت من قبل.





حارثة بن النعمان النجارى

يجمعه بالنبي ﷺ نسب قديم جديد، فهو من بني النجار وكان هاشم بن عبد مناف الجد الثانى للنبي ﷺ ، وزعيم مكة وعظيمها الذى كان يهشم الثريد فيطعم الناس والطير، نزل يثرب وهو فى طريقه إلى الشام فى رحلة الصيف، وتزوج منهم، ولكن والد زوجته اشترط عليه أن تبقى بنته فى يثرب وأن يأتيهم هاشم متى شاء، وأنجب هاشم منها ابنه شيبة الحمد الذى سمى بعد ذلك عبدالمطلب، وتولى زعامة مكة بعد أبيه، وقد جمع سؤدد قريش ورقة ورهافة بنى النجار.

ومرض عبدالله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ وهو راجع من رحلة الصيف فأقام حتى مات عند أخوال أبيه بنى النجار، فعزز ذلك صلة النسب والقربى بينهم.

وصحبت أمنة بنت وهب ولدها محمد بن عبدالله فزار قبر أبيه فى يثرب، ولعله التقى هناك بأخوال أبيه من بنى النجار فأحسنوا استقباله هو وأمه التى ماتت بالأبواء وهما فى طريق العودة إلى مكة.

ولما اشتد الوجع بأبى طالب عم النبي ﷺ وكان يمنعه ويذود عنه أذى قريش، فإنه نصح ابن أخيه أن يخرج إلى يثرب فلعله يجد فى أخواله بنى النجار من يستجيب له ويمنعه فى يثرب وهم أصحاب منعة وجاه.

وعندما أذن الله عزوجل لنبيه ﷺ أن يهاجر إلى يثرب، فقد احتفل المسلمون بمقدمه، وحرصت كل قبيلة على أن ينزل عندها حيث المنعة والرجال، وتسابقوا على زمام ناقته فقال لهم: اتركوها فإنها مأمورة، وأخذت الناقة طريقها إلى منازل بنى النجار حيث بركت أمام بيت واحد من أشرافهم هو أبو أيوب الأنصارى النجارى رضي الله عنه .

وفي منازل بني النجار أسس النبي ﷺ مسجده المبارك وألحق به بيته الكريم فكان مجاورا لبيت حارثة بن النعمان ﷺ.

وكلما أراد النبي ﷺ أن يتزوج، ويريد حجرة لزوجته الجديدة، كان حارثة يترك بيته للنبي ﷺ ويتزحزح بعده، حتى قال النبي ﷺ: لقد استحييت من حارثة مما يتنازل لنا عن منازله.

الصهر والجوار والإسلام والحب بالإضافة إلى الطبع المواتي والفطرة السليمة، والإعداد الإلهي جعلت من حارثة بن النعمان رجلا ربانيا، وسيفا قاطعا من سيوف الحق.

كان من الصامدين في بدر وأحد والمشاهد كلها، حتى كان يوم حنين والمسلمون كثير أعجبتهم كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئا، وخرج عليهم الأعداء من كل صوب، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم.

لقنهم الله عزوجل درسا باقيا، فإن حساب الهزيمة والنصر في لقاء المسلمين بالأعداء، ليس لقاء أعداد ولا عتاد، فدائما يكون عدد الكفار أكبر، ودائما يكون عتادهم أكثر، ولكن إذا نصر المسلمون ربهم في أنفسهم فأطاعوه بحيث يراهم حين يجب أن يراهم، ولا يراهم حيث نهاهم، وإذا أخذوا ما آتاهم الرسول، وانتهوا عما نهاهم عنه، فإن نصر الله لا يتخلف عنهم أبدا.

على المسلمين أن يعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، وأن يعدوا قبل ذلك أنفسهم لكي يسدد الله رميتهم أو يرمي لهم، أما إذا هزم المسلمون أنفسهم أمام سلطان المادة، أو خوفا من سطوة عدو، أو أمام إغراء شيطان أو دنيا فإن الأمر حينئذ أمر سلاح لسلاح وأفراد لأفراد، أو خطة حرب أمام خطة حرب، وعندئذ يكسر السلاح الأكثر حدة السلاح الأقل، ويذهب العدد الأكبر ريح العدد الأقل، فالمسلمون لا يهابون عدوهم إلا إذا ابتعدوا عن الله، ولكنهم إذا اقتربوا منه، إذا تعدلت نواياهم، فأصبح الله غايتهم، ونصرته هدفهم، وجنته أملهم، فعندئذ لا هيبة لعدو، ولا قيمة لعدته وعدده، لأن يد الله فوق كل يد، والله عزوجل هو الأكبر والأعز، وعباد الله في كلاءته ورعايته.

في حنين نظر المسلمون إلى عددهم وقال بعضهم لن نغلب اليوم، فغفلوا عن الله عزوجل الذي هو وحده الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، فتركهم لكثرتهم التي تلاشت كما يتبعثر الهشيم أمام هبة من الهواء، ولم يثبت مع النبي ﷺ غير ثمانين من الصامدين الذين وفوا لله تعالى، وباعوا أنفسهم له. ومن هؤلاء الصامدين الحارثة بن النعمان ﷺ.

روى أحمد أن حارثة بن النعمان أتى النبي ﷺ ومعه جبرائيل جالس فى المقاعد فسلمت عليه، فلما رجعت قال: هل رأيت الذى معى ؟ قلت: نعم، قال: فإنه جبريل وقد رد عليك السلام. وليست هذه هى المرة الوحيدة التى رأى حارثة فيها جبريل، إذ روى ابن شاهين أن حارثة أتى النبي ﷺ وهو يناجى رجلا ولم يسلم، فقال جبرائيل: أما إنه لو سلم لرددنا عليه، فقال لجبرائيل: وهل تعرفه؟ فقال: نعم، هذا من الثمانين الذين صبروا يوم حنين، رزقهم ورزق أولادهم الجنة.

وليست هذه أولى البشارات ولا أخرها، فقد أخرج النسائى عن عائشة أن النبي ﷺ قال: رأيت أننى دخلت الجنة فسمعت قراءة، فقلت من هذا ؟ فقيل: هذا حارثة بن النعمان، فقلت: كذلكم البر، وكان برا بأمه، وفى رواية: وكان أبر الناس بأمه.

كان حارثة حريصا على الشرعية، والمقصود بها أنه مع الحاكم المسلم يدافع عنه، ويقف إلى جواره، وإذا رأى فيه عوجا يعمل على تقويم العوج.

الحاكم المسلم الذى يلتزم أو يعلن التزامه بالشرائع الإسلامية هو إنسان يمكن أن يخطئ أو يصيب، وقد يحابى أو يجامل، وقد يتراخى فى إقامة حد، أو يقصر فى إتباع سنة، وهنا نعمل على تقويمه ولا نثور عليه لأن الفتنة شر من ذلك.

فى منى صلى الخليفة عثمان رضي الله عنه الصلاة الرباعية أربعا ولم يقصر، وكان النبي ﷺ يقصر فى منى، وجاء عبدالله بن مسعود فغضب لمخالفة السنة الشريفة، ثم قام فصلى أربعا، فقيل له: تنكر عليه وتفعل فعله، فقال ابن مسعود: الفتنة شر من ذلك، ولكن الفتنة وقعت، وحوصر عثمان رضي الله عنه ، فقال له حارثة: إن شئت قاتلنا دونك، مع خلافه معه فى بعض إدارته للحكم.

كان حارثة منشغلا مع الجهاد بالبر والصدقة، فلا يكاد يمر ببابه مسكين دون أن يناوله من عنده، وحتى عندما ذهب بصره فقد اتخذ حبلا فى مصلاه الذى لزمه إلى حجرته، فإذا جاء مسكين أمسك الحبل إلى حجرته ثم أخذ من المكتل وتبع الحبل حتى يناول المسكين، فكان أهله يقولون له نحن نكفيك، فيقول لهم: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مناولة المسكين تقى مصارع السوء) . وقد وقاه الله عزوجل مصارع السوء حتى استقبل وجهه الكريم فى خلافة معاوية رضي الله عنه .





شداد بن أوس

أبو يعلى الأوسي الأنصاري المجاهد، وإن اختلفوا في حضوره بدرًا، فموسى بن عقبة يراه بدريًا، وابن منده ينكر هذا.

ولكنه من ذلك النوع الذي تعلقت روحه بالآخرة، وهو يحرص على أن يأخذ أرواح الناس إليها، يدنيها إليهم، ويصفها لهم، ويقول: (إنكم لم تروا من الخير إلا أسبابه، ولم تروا من الشر إلا أسبابه، الخير كله بحذافيره في الجنة، والشر كله بحذافيره في النار، وإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قاهر، ولكلٍّ بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا) .

ولا يفتأ يردد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يا أيها الناس، إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر، يحق فيها الحق، ويبطل فيها الباطل، أيها الناس، كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أمة يتبعها ولدها، فاعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم، وأنكم ملاقو الله، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره) .

قال أبو الدرداء: إن من الناس من يؤتى علمًا ولا يؤتى حلمًا، وإن أبا يعلى أوتي علمًا وحلمًا. وقال أبو الدرداء كذلك: إن لكل أمة فقيهًا، وإن فقيه هذه الأمة شداد بن أبي أوس.

الذي يقول هذا عن شداد هو أبو الدرداء، حكيم أمة الإسلام الذي تعلقت روحه هو الآخر بالآخرة حتى أظمأ نهاره، وأزعج ليله، وأتعب جسده، وأهمل دنياه وأهله

حتى نصحه سلمان وصدّق النبي ﷺ على هذه النصيحة فقال له: (إن لجسدك عليك حقًا، وإن لأهلك عليك حقًا) ، ولن يقول أبو الدرداء عن شداد هذا القول وغيره إلا لما رأى فيه.

كان شداد إذا دخل إلى فراشه يتقلب ولا يأتيه النوم فيقول: اللهم إن النار أذهبت مني النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح. قال شداد بن أوس يومًا لرجل من أصحابه، هات السفرة نتعلل بها أو نعيث بها، فقالوا له: ما عهدنا منك أن تقول كلامًا مثل هذا، انظروا إلى أبي يعلى ما جاء منه، فقال: أي، ابن أخي، إني ماتكلمت بكلمة منذ بايعت رسول الله ﷺ إلا مزمومة مخطومة قبل هذه، فتعالوا حتى أحدثكم، ودعوا هذه وخذوا خيرًا منها: اللهم إنا نسألك التثبت في الأمر، ونسألك عزيمة الرشد، ونسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، ونسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، ونسألك خير ما تعلم، ونعوذ بك من شر ما تعلم، فخذوا هذه، ودعوا هذه، وزاد في رواية، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب. ثم قال: إن النبي ﷺ قال لي يا شداد، إذا رأيت الناس اكتنزوا الذهب والفضة فاكتنز هذه الكلمات.

تمكن الورع منه حتى كان يطوي الليالي بدون طعام إذا لم يعرف مصدر ما يأكل، وفي إحدى الغزوات وضع أصحابه سفرة ودعوه لمشاركتهم فقال: لو كنت أكلت طعامًا منذ بايعت رسول الله ﷺ حتى أعلم من أين لأكلت.

يروي شداد عن النبي ﷺ أنه قال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله عز وجل) .

قال عبادة بن أنس: مر بي شداد بن أوس فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله ثم جلس يبكي حتى بكيت لبكائه، فلما سُرِّي عنه قال: ما يبكيك؟ قلت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: (إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك والشهوة الخفية) ، فقلت: إنما إحداهما فلا سبيل إليها، قال: هكذا قلت لرسول الله ﷺ حين قال لي، قال: إنما أتخوفهما، ثم قال: أما إنهم لم يعبدوا شمسًا ولا قمرًا، ولم ينصبوا أوثانًا، ولكنهم يعملون أعمالاً لغير الله عز وجل، إنهم يراءون.

وقال عبد الرحمن بن غنم، لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة بن الصامت، قال: فبينما نحن كذلك إذ طلع علينا شداد بن أوس وعوف بن مالك فجلسا

إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس ما سمعت من رسول الله ﷺ من الشرك والشهوة الخفية، فقال عبادة وأبوالدرداء: اللهم غفرا، أو لم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا: أن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب، أما الشهوة الخفية فقد عرفناها، وهي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوفنا منه يا شداد؟ قال شداد: أرأيتم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق لرجل، أترون أنه قد أشرك؟ قال عوف بن مالك عند ذلك، أفلا يعمد الله عز وجل إلى ما يبتغي به وجهه من ذلك العمل فيتقبل منه ما خلص ويدع ما أشرك به، فقال شداد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يقول الله تعالى: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئًا، فإن جسده وعمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا غني عنه.

كان انشغاله ووكده الإحسان الذي علمه جبريل للمسلمين وهو يسأل رسول الله ﷺ: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وصورة العمل لا يترتب عليها عقاب ولا مثوبة، وإنما نية العمل هي التي تجعله متقبلاً أو مردودًا على صاحبه، فالصوم والزكاة والصدقة وقيام الليل، وقراءة القرآن، وتعليم الناس، وبذل النصح لهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل والموت في القتال تكون أعمالاً صالحة ترفع درجات صاحبها وتصعد إلى الله عز وجل، وتهيء المقعد الهنئ في الجنة والحساب اليسير إذا صدرت عن نية خالصة، وابتغى بها وجه الله عز وجل وحده، وتكون أوزارًا على كواهل أصحابها إذا قصد بها وجه الناس، واتسمت بالرياء، وأرضت شهوة خفية عند فاعلها ليقول الناس إنه مصل أو صائم أو متصدق أو مجاهد ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ الله إلا قَلِيلاً﴾ (النساء ١٤٢).

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٢٦٤).

فقد شبه العمل الذي ظاهره عبادة، وباطنه رياء وهو الشرك الخفيّ بتراب يظهر للعين كأنه أرض خصبة إن وضعت فيها بذرًا فسوف ينبت، ولكن هذا التراب ما هو إلا طبقة صغيرة جدًا تغطي على حجر لا يمسك الماء ولا ينبت الزرع فالبذر الذي تضعه فيه ضائع لأن قليلاً من الماء سوف يغسل التراب وتظهر حقيقة الصخر الذي تحته.

أما الذين حسنت نياتهم وخلصت قلوبهم فإن الله يقبل أعمالهم صغيرها وكبيرها

ويكافئهم على قدر ما عملوا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللـه وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ تُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ، وَاللـه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة ٢٦٥).

نذر شداد نفسه لإصلاح نفوس الناس وعلاج أمراضها، والتحذير من الرياء الذي يحبط الأعمال، والحث على الإخلاص الذي يرفع به العمل، ولكنه لا يقفل الباب أمام التائبين فكما يروي أحاديث التحذير، يروي كذلك أحاديث التوبة فيقول: قال رسول اللهﷺ : (إن التوبة تغسل الحوبة، وإن الحسنات يذهبن السيئات، وإذا ذكر العبد ربه في الرخاء أنجاه في البلاء، ذلك بأن اللـه تعالى يقول: "لا أجمع لعبدي أبدًا أمنين ولا أجمع له خوفين، إن هو أمنني في الدنيا خافني يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي في حظيرة القدس فيدوم أمنه، ولا أمحقه فيمن أمحق.





سعيد بن زيد

أبوه هو زيد بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب الذي كان من الحنفاء في الجاهلية على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وزوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، وأخته عاتكة هي زوجة عمر بن الخطاب، فهو ابن عم عمر وزوج أخته وأخو زوجته.

من السابقين الأولين إلى الإسلام، فقد أسلم هو وزوجته فاطمة قبل عمر بوقت طويل، وكانا حريصين على إخفاء إسلامهما خوفًا من سطوة عمر وغيره من كفار مكة.

أكثر المشركون يومًا على النبي ﷺ في المسجد، فقام أبو بكر رضي الله عنه للدفاع عن الرسول، فاستشاط المشركون غيظًا وهجموا على أبي بكر فأوسعوه ضربًا حتى ضاعت ملامح وجهه من الدم والرضوض، وغشي عليه فحمله أهله إلى بيته، وطلبوا من أمه أن تعنى به، وحينما أفاق سأل عما جرى للنبيﷺ ، وطلب من أمه أن تذهب إلى فاطمة بنت الخطاب وسوف تجد خبره عندها، ولكن فاطمة أجابتها بشدة بأنها لا تعرف أبا بكر ولا صاحبه، ولكنها ستجاملها وتذهب معها لرؤيته وهو مريض، ثم أخبرته سرًا بأن النبي ﷺ بخير وأنه يسأل عنه.

لكن النور مهما اغلقت عليه الأبواب، وأسدلت الستائر فإن أشعته لابد ستدل عليه، وتشير إلى مكانه، وهذا ما حدث لسعيد وزوجته.

بلغ الغيظ من عمر كل مبلغ وعزم على أن يقتل النبي ﷺ حتى تفرغ منه مكة وتعود إلى سابق ما كانت تعيش فيه، ولأن الله عز وجل يريد به الخير فإنه صرح بعزمه هذا لبعض من قابله في الطريق فنصحوه بأن يصلح بيته أولاً، ثم أخبروه بإسلام أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد.

كان خباب بن الأرت رضي الله عنه في بيت سعيد يقرئهما من صحيفة في يده آيات من أول سورة طه، وهي آخر ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن.

طرق عمر باب سعيد فعرفه من بالمنزل وملأهم الخوف فاختبأ خبابٌ في حجرة من البيت، ووضعت فاطمة الصحيفة تحت ثوبها، وذهب سعيد لفتح الباب، فصفعه عمر على وجهه حتى أدماه، ثم صفع أخته حتى أدمى وجهها فلم ينكرا أنهما أسلما وجهيهما لله عز وجل، ولكن عمر لمح الصحيفة وطلب من أخته أن تمكنه من قراءتها، فأمرته أن يغتسل قبل أن يمسك بها، ولم يخرج عمر من بيت سعيد إلا مسلمًا، ثم أصبح معه في جبهة واحدة تحت راية الحق، وخلف محمد ﷺ .

ثم هاجر سعيد وأهله إلى مدينة النبي ﷺ وفي كل يوم يزيد سعيد إيمانًا، ويمتلئ علمًا، ويقل إقباله على الدنيا، ويزيد إقباله على الآخرة، وتتوهج جذوة الجهاد في نفسه حتى إن النبي ﷺ أحصاه من أهل بدر وأعطاه نصيبه من الغنيمة، وبشره بأجره مع أنه لم يقاتل فيها.

لم يتوان سعيد عن الجهاد، ولكنه كان عزوفًا عن كل عرض دنيوي، فلم يقبل ولاية، ولم يرض بإمرة، وقمع نفسه عن المنافسة فيما يدخل فيه الناس من مراتب الدنيا، حتى أحصاه النبي ﷺ من العشرة المبشرين بالجنة.

وعندما أطلت الفتن برءوسها القبيحة في أواخر خلافة عثمان، ثم في كل خلافة علي رضي الله عنهم فإنه كان متواريًا معتزلاً يبغي النجاة لنفسه من شرور الفتن، ولكنه إذا جد الجد لا يجبن عن قول كلمة الحق حتى ولو أمام الأسد في براثنه غير هياب ولا وجل.

لما خرج معاوية من الكوفة, استعمل عليها المغيرة بن شعبة فأقام المغيرة خطباء يسبون عليًا ﷺ، يقول عبد الله بن ظالم المزني، كنت إلى جنب سعيد فغضب فأخذ بيدي فتبعته، فقال ألا ترى إلى هذا الرجل الظالم لنفسه، الذي يأمر بلعن رجل من أهل الجنة.

ودخل سعيد على المغيرة في المسجد الأكبر، وعنده أهل الكوفة عن يمين وعن يسار، فحياه المغيرة وأجلسه معه على السرير، فجاء رجل من أهل الكوفة فاستقبل المغيرة وسب، فقال سعيد: من يسب هذا يا مغيرة قال يسب علي بن أبي طالب، فقال: يا مغيرة بن شعبة، يا مغيرة بن شعبة، يا مغيرة بن شعبة، ألا أسمع أصحاب رسول الله ﷺ يسبون

عندك لا تنكر ولا تغيرا، وأنا أشهد على رسول الله- ﷺ مما سمعت أذناي ووعاه قلبي من رسول الله ﷺ فإني لم أكن أروي عنه كذبًا يسألني عنه إذا لقيته- أنه قال: (أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وتاسع المؤمنين في الجنة، لو شئت أن أسميه لسميته، قال: فرجّ أهل المسجد يناشدونه، يا صاحب رسول الله ﷺ من التاسع؟ قال: ناشدتموني بالله، والله عظيم، أنا تاسع المؤمنين، ورسول الله ﷺ العاشر، ثم أتبع ذلك يمينًا فقال: لمشهد شهده رجل مع رسول الله ﷺ يغبّر وجهه مع رسول الله ﷺ أفضل من عمل أحدكم ولو عمّر عمر نوح.

ولم يكن الله عز وجل ليترك من هو في زهد وورع سعيد حتى يعرضه لفتن تمحصه وليعلم الله صدقه وبلاءه.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت ٢-٣). ولكن الله يدافع عن الذين آمنوا، وهذا الدفاع قد يكون في الدنيا ليعتبر المؤمن ويزداد إيمانًا، وليرتدع الضال فيعود إلى ربه أو تلزمه الحجة فلا يكون له عند الله عذر، ويستحق ما ينال من جزاء لن يخففه ندم يصيبه، ولاطلب للغفران.

ادعت امرأة تسمى أروى بنت أويس أن سعيدًا سرق من أرضها فأدخله في أرضه، وخاصمته إلى مروان بن الحكم، فكلمه مروان في هذا، فقال له: لقد قالت أروى إنك ظلمتها أرضها، وغلبتها حقها، فقال: أنا لم أظلم أروى حقها، فوالله لقد ألقيت لها ستمائة ذراع من أرضي من أجل حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: (من أخذ من حق امرئ من المسلمين شيئًا بغير حق طوقه يوم القيامة حتى سبع أرضين)، قومي يا أروى فخذي الذي تزعمين أنه حقك، فقامت فتسحبت في أرضه.

ثم قام سعيد فقال: اللهم إنها زعمت أني ظلمتها، فإن كانت كاذبة فأعم بصرها، وألقها في بئرها، وأظهر من حقي نورًا يبين للمسلمين أني لم أظلمها. قال فبينما هم على ذلك إذ سال العقيق بسيل لم يسل مثله قط، فكشف عن الحد الذي كانا يختلفان فيه، فإذا سعيد قد كان في ذلك صادقًا، ولم تلبث يسيرًا حتى عميت، فبينا هي تطوف في أرضها، وتمشي في دارها وهي حذرة إذ وقعت في بئرها فكانت قبرها.

يقول أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: فكنا ونحن غلمان نسمع الإنسان يقول

للإنسان، أعماك الله كما أعمى الأروى، فلا نظن إلا أنه يريد الأروى من الوحش، فإذا هو إنما كان ذلك لما أصاب أروى من دعوة سعيد بن زيد، ومايتحدث الناس به مما استجاب الله له سؤله.

ثم ذهب إلى الجنة التي بشر بها راضيًا مرضيًّا هذا الرجل الطويل الجميل، الأشعر النبيل، التقي الورع، وغسله سعد بن أبي وقاص وحمل من العقيق إلى المدينة على أعناق الرجال، وعمره بضع وسبعون سنة.





زيد بن الخطاب

إنه ذلك الطويل الأسمر الذي لا يقل عن أخيه قوة وبأسًا، ولكنه في الجاهلية كان يزيد عليه حلمًا وأناة، إذ كانت سطوة عمر مثل سطوة أبيه الخطاب، قسوة واضحة، وخشونة تخدش وتسيء، فكان الناس يعاملونه على حذر وإشفاق من بأسه، ولم يعلم عن زيد شيء من ذلك مع شدته وصعوبة مراسه.

ثم جاء الإسلام فهذب من سطوة عمر، وأخذ من خشونته، بما أضاف إلى قوة الجسم من قوة الروح وقوة الإيمان، فيعنف ويسطو إذا تعلق الأمر بحد من حدود الله عز وجل، ويرق ويسمو إذا بكى طفل تحاول أمه فطامه، أو إذا رأى شيخًا كبيرًا يسأل الناس ولو لم يكن مسلمًا.

وزاد الإسلام من حلم زيد وأناته، ونفخ فيه من روح الجهاد بالمال والنفس يشتري بهما جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للمتقين.

كان زيد أسنّ من أخيه عمر، وأسلم قبله، وصبر وهاجر ثم خرج الأخوان المجاهدان التقيان معًا إلى بدر، وكان معهما معن بن العجلان الذي آخى النبي ﷺ بينه وبين زيد، فتعاهدا على الجهاد معًا، ورغبا في الموت معًا.

أما في أحد، وقد حشد المشركون لها ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، وخرج المسلمون بخطة وضعها النبي ﷺ، أساسها الرماة الذين يقفون على الجبل ليذودوا خيالة المشركين بنبالهم، ولابد أن يكونوا رماة بارعين، ومؤمنين مخلصين، وباذلين أنفسهم لأنهم سيكونون هدفًا لرماة المشركين، ونجحت الخطة إلى أبعد مدى، ولكن حين تعدلت نوايا الرماة، أو تبدلت فدخلت فيها محبة الدنيا، ونجم عن ذلك مخالفتهم لأمر النبي ﷺ

الذي أكد على لزوم أماكنهم سواء كانت الغلبة للمسلمين أو كانت عليهم، وإذ تمت المخالفة تخلف النصر فأصابهم القرح، واختلت الصفوف، ولم يغن عنهم ما جمعوه من الغنائم، ولولا أن ثبت الله رسوله والمؤمنين من حوله لكان القرح أثقل مما حدث.

عند التأهب للقتال في أحد كان زيد في حالة استنفار قصوى للقاء أعداء الله ورسوله والمؤمنين، ورآه عمر وليس عليه درع فأشفق على أخيه الأكبر، وأراد أن يكون بارًا وصولاً فنزع درعه من على جسده، وتقدم نحو أخيه. قال عمر لأخيه زيد: خذ درعي، فقال زيد: إني أريد من الشهادة مثل ما تريد، فتركاها جميعًا، ودخل الاثنان إلى أتون القتال وليس على أحدهما درع, ولم يدركا الشهادة في هذه الغزوة لأن المولى عز وجل أراد بهما الخير في حضور باقي المشاهد مع النبي ﷺ، ثم كان لكل منهما بعد ذلك دور في نصرة هذا الدين، فقد نصره عمر بخلافته ولم يحرم من الشهادة، كما نصره زيد في يوم اليمامة ونال فيه الشهادة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلست مع رسول الله ﷺ في رهط، ومعنا الرحال بن عنفوة، فقال: إن فيكم رجلاً ضرسه في النار مثل أحد، فهلك القوم وبقيت أنا والرحال فكنت متخوفًا لها، حتى خرج الرحال مع مسيلمة وشهد له بالنبوة وقتل يوم اليمامة، قتله زيد بن الخطاب.

أسلم الرحال بن عنفوة ولزم النبي ﷺ، وتعلم منه، لكن الدنيا كانت متمكنة من نفسه، والشيطان قد أحكم سطوته عليه، فعندما كاتب مسيلمة الكذاب رسول الله ﷺ وطلب منه أن يشرك معه في النبوة، ورد عليه النبي ﷺ بأن النبوة ليست بالغلبة أو الميراث، وإنما هي اصطفاء من الله عز وجل الذي يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، فقد بقي مسيلمة على ضلاله وتقابل مع الرحال فقربه إليه، وأطمعه في دنيا ميسورة يصيبها إن هو جمع الناس مع مسيلمة، فبذل الجهد حتى أقنع بني حنيفة بأن نبيًا كاذبًا منهم أفضل من نبي صادق من قريش مثيرًا حمية الجاهلية وعصبية القبلية، ونجح في ذلك نجاحًا بعيدًا، وتفاقم الشر بعد موت النبي ﷺ وأطلت الفتن برأسها في انتشار الردة بين قبائل الجزيرة فواجهها الصديق رضي الله عنه بحزم شديد وكانت اليمامة ذروة المواجهة حيث التقت الجيوش تحت إمرة خالد بن الوليد سيف الله المسلول رضي الله عنه في مواجهة حزب الشيطان الذي يوردهم النار مسيلمة والرحال عليهم لعائن الله.

كان زيد يحمل راية المسلمين يوم اليمامة فلم يزل يتقدم بها في نحر العدو، ولكن بني حنيفة صمدوا واستقتلوا وانكشف المسلمون حتى غلبت حنيفة على الرحال ودخلت

عساكر مسيلمة فسطاط خالد وتذامر خالد وزيد بن الخطاب وأبو حذيفة وتكلم الناس عن الهزيمة والفرار، فتقدم زيد بين صفوف العدو وهو يصيح: أما الرجّال فلا رجّال، وأما الرجال فلا رجال، اللهم إني أعتذر إليك عن فراز أصحابي، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن الطفيل، وجعل يتقدم بالراية يشير بها في نحر العدو ثم ضارب بسيفه، ورفع صوته وهو يقول حين دنا صفه من الرحال: يا رجّال، الله الله، فوالله لقد تركت الدين وإن الذي أدعوك إليه لأشرف لك وأكثر لدنياك، فلم يأبه الرحال لقوله فصاح زيد: والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، عضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم وامضوا قدمًا.

وقال ابن إسحق إن زيدًا قال: والله لا أتكلم أو أظفر بهم أو أقتل، واصنعوا مثل ما أصنع.

واشتبك مع الرحال في صراع عنيف حتى نصره الله عليه، ولكن سيوف بني حنيفة ناشته من كل صوب حتى سقط شهيدًا فتلقف الراية سالم مولى أبي حذيفة، فقال المسلمون يا سالم، إنا نخشى أن نؤتى من قبلك، فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي. وحين رجع الناس من المعركة قال عمر لابنه عبد الله: ألا هلكت قبل زيد؟!، هلك زيد وأنت حي؟!، فقال عبد الله: قد حرصت على ذلك أن يكون، ولكن نفسي تأخرت وأكرمه الله بالشهادة.

وروي عن سهل قول عمر لابنه: ما جاء بك وقد هلك زيد ألا واريت وجهك عني، فقال عبد الله: سأل الله الشهادة فأعطيها، وجهدت أن تساق إلي فلم أعطها.

عن ابن سيرين: أنهم كانوا يرون أن أبا مريم الحنفي قتل زيد بن الخطاب يوم اليمامة، قال: وجاء أبو مريم تائبًا فقال عمر وهو يبكي، تقتل زيدًا؟ لماذا لم يقتلك هو، فقال أبو مريم: يا أمير المؤمنين، إن الله أكرم زيدًا على يدي، ولم يهني على يده.

دخل متمم بن نويرة على عمر وأنشده قصيدته في رثاء أخيه مالك، فقال عمر: لو كنت أحسن الشعر لقلت في أخي زيد مثل ما قلت في أخيك، فقال متمم: لو أن أخي ذهب على ما ذهب عليه أخوك من الشهادة ما حزنت عليه، فقال عمر: ماعزّاني أحد بمثل ما عزيتني. ولكن عمر ما فتئ يردد: (ما هبت ريح الصبا إلا وأنا أجد منها ريح زيد).





عبيدة بن الحرث

مَن هذا الشيخ المهيب المقدَّم، الذي إن حضر مجلسًا من مجالس المسلمين غضوا لحضوره أصواتهم، واحتوته بالحب والإجلال عيونهم، وإذا تكلم بصوته العذب القوي أرهفت لسماعه آذانهم، وإذا قام جلله البهاء، وإذا سار غشّاه الضياء.

وإن حضر مجلسًا من مجالس المشركين تملقوه بالثناء، ولم يغض من قدره عندهم مباعدته لهم، ورفضه لدينهم، ودخوله فيما دعا إليه محمد بن عبد الله ﷺ، وتشميره في مؤازرته، وتبشيره بدعوته، وحماسه له.

من هذا القويّ الأبيّ الذي زاده التقدم في السن حكمة وقوة، وغذى دينه مافيه من إباء وأنفة، فإذا هو لين كالماء الجاري، وصارم كالسيف البتار، يُؤلف ويُهاب، ويُحبُّ ويُخشى.

إنه عبيدة بن الحرث بن المطلب بن عبد مناف. جده المطلب الذي أوصاه أخوه هاشم وهو في مرض موته أن يرتحل إلى يثرب ويأتي بابنه شيبة الحمد الذي أنجبه من زوجته النجارية، وذهب المطلب إلى يثرب، وبينما هو يسير في بعض دروبها رأى أطفالاً يلعبون، وسمع أرثهم ثيابًا وأزراهم هيئة يصيح فيهم، أنا أعزكم آبا، وأكرمكم نسبًا، وأكرمكم قبيلة، فلاطفه المطلب ثم سأله عن أبيه فقال له إن أباه هاشم بن عبد مناف زعيم مكة، فاحتمله المطلب على بعيره وانطلق به إلى مكة، ورأى الناس المطلب وهو يردف غلامًا رث الثياب فقالوا، لقد اشترى المطلب عبدًا، ثم دخل به إلى بيته وأصلح من شأنه، وخرج به إلى الناس وعرّفهم أن هذا هو شيبة الحمد بن أخيه هاشم ولكن اسم عبد المطلب غلب على شيبة الحمد جد النبي ﷺ.

وكان الحرث من أبناء المطلب، ثم كان عبيدة من أبناء الحرث. أسلم قديمًا، وكان رأس بني عبد مناف، وعصمه سنّه ووجاهته في مكة من أن يناله من أذى قريش إلا بمقدار ما يختار لنفسه مثل دخوله الشعب مع المسلمين، واحتماله لمقاطعة قريش ولألم الجوع والظمأ وتقلبات الجو.

وعندما أمر المسلمون بالهجرة إلى المدينة فإنه كان سبّاقًا إليها استجابة للأمر، وسعيًا إلى الكمال.

ولما أذن للمسلمين بالقتال جعله النبي ﷺ أميرًا على أول سرية خرجت للجهاد في سبيل الله. يذكر كتّاب المغازي أن سرية عبيدة بن الحرث كان فيها ستون أو ثمانون راكبًا من المهاجرين، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرّة، فلقي بها جمعًا عظيمًا من قريش، ولكن لم يحدث بينهما قتال غير أن سعد بن أبي وقاص رمى بسهم، وكان أول سهم رمي في الإسلام، ثم انصرف القوم عن القوم، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن الأسود حليف بني زهرة، وعتبة بن غزوان المازني حليف بني نوفل، وكانا مسلمين لم يتمكنا من الهجرة، فخرجا مع المشركين ليتوصلا إلى الفرار إلى المسلمين وتم لهما ذلك.

ثم كان يوم بدر، وكتب القتال على المؤمنين وكان كرهًا لهم في ذلك اليوم لأنهم لم يخرجوا بأهبة القتال ويخافون في أول مواجهة أن يتغلب عليهم المشركون، فهم لم يكرهوا القتال خوفًا من الجهاد فالجهاد أعلى ذروة سنام في الإسلام، ولاخوفًامن الموت فالموت في سبيل الله هدف يسعى إليه المسلم، وهو لن يقدم من عمره شيئًا، كما أن الجبن والفرار لن يؤخر في عمره عن الأجل الذي قدره المولى في كتاب، فلكل أجل كتاب، وإنما كره المسلمون القتال في يوم بدر حرصًا على الإسلام، وحبًا لرفعة شأنه و إعلاء نوره ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة ٢١٦).

تواجهت الفئتان، وتقابل الفريقان، وحضر الخصمان بين يدي الرحمن، واستغاث بربه سيد الأنبياء، وضرع الصحابة بصنوف الدعاء، إلى رب الأرض والسماء سامع الدعاء وكاشف البلاء، وكان المسلمون قد جمعوا الماء في بئر واحدة يمنعونها من الشركين، فغضب لذلك أحد أشرارهم وهو الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شرسًا سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فلما خرج خرج إليه حمزة وضربه في نصف ساقه قبل أن يصل إلى الحوض فحبا نحوه يريد - كما يزعم - أن يبر بقسمه فأجهز عليه حمزة رضي الله عنه.

حمي المشركون عند مقتل الأسود فأراد عتبة بن ربيعة أن يظهر شجاعته، فبرز بين ابنه الوليد وأخيه شيبة ودعوا للمبارزة، فخرج إليهم ثلاثة نفر من الأنصار، فقال عتبة: من أنتم؟ قالوا: نحن رهط من الأنصار، فقال: ما لنا بكم حاجة، فأنتم أكفاء كرام، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا، ونادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فندب النبي ﷺ لهم ثلاثة من عشيرته هم حمزة وعليّ ورأس بني عبد مناف عبيدة بن الحرث، فقتل حمزة شيبة، وقتل عليّ الوليد بن عتبة، وجرح عبيدة وعتبة كل صاحبه، فكر حمزة وعليّ على عتبة فأجهزا عليه وحملا عبيدة إلى أصحابهما.

جاء النبي ﷺ إلى عبيدة، ووضع رأسه على رجله الشريفة فقال عبيدة، يا رسول الله لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرّع دونه ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال عبيدة وهو ينظر إلى رجله المقطوعة:

ستبلغ عنا أهل مكة وقعة ... يهب لها من كان عن ذاك نائيًا
بعتبة إذ ولّ وشيبة بعده ... وما كان فيها بكر عتبة راضيًا
فإن تقطعوا رجلي فإني مسلم ... أرجّي بها عيشًا من الله دانيًا
مع الحور أمثال التماثيل أخلصت ... مع الجنة العليا لمن كان عاليًا
وبعت بها عيشًا تعرفت صفوه ... وعالجته حتى فقدت الأدانيا
فأكرمني الرحمن من فضل منه ... بثوب من الإسلام غطى المساويا
وما كان مكروهًا إليّ قتالهم ... غداة دعا الأكفاء من كان داعيًا
ولم يبغ إذ سالوا النبي سواءنا ... ثلاثتنا حتى حضرنا المناديا
لقيناهمُ كالأسد تخطر بالقنا ... نقاتل في الرحمن من كان عاصيًا
فما برحت أقدامنا من مقامنا ... ثلاثتنا حتى أزيروا المناليا

وفي طريق العودة من بدر مات عبيدة رضي الله عنه فقال النبي ﷺ وهو يوسده التراب: أشهد أنك شهيد.

هذا حظ عبيدة من الشهادة، أمّا نصيبه من الشرف والسودد والكرم، ورعاية اليتامى والأرامل، ونصبه القدور تغلي بالطعام، وإيقاده النيران للطراق والضيفان، فذلك مَرْقى آخر من مراقي المجد عبرت عنها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب وهي ترثيه بعد موته في منطقة الصفراء:

لقد ضمن الصفراء مجدًا وسؤددًا — وحلمًا أصيلاً وافر اللب والعقل
عبيدة فابكيه لأضياف غربة — وأرملة تهوي لأشعث كالجذل
وبكيه للأقوام في كل شتوة — إذا احمرّ آفاق السماء من المحل
وبكيه للأيتام والريح زفزفٌ — وتشبيب قدْر طالما أزبدت تغلي
فإن تصبح النيران قد مات ضوؤها — فقد كان يُزْكيهن بالحطب الجذل
لطارق ليل أو لملتمس القرى — ومستنتج أضحى لديه على رسل



عباد بن بشر بن وقش

شابٌ يخطو إلى نهاية العقد الثالث وسيم جسيم، طيب السيرة والرائحة، عذب المنطق والشعور، قوي القلب والبنية، حديد النظر والعزيمة، صائب الفكرة والرمية، أوسي من بني عبد الأشهل الذين لا يعدل بهم أحد من الأنصار.

سمع أن في بيت أبي أمامة أسعد بن زرارة فتى قرشيًّا لا يعدل رقة محضره إلا عذوبة منطقه، يبشر بالدين الجديد الذي يدعو إليه فتى مكة الهاشمي محمد بن عبد الله، الذي انتشر ذكره في يثرب كما ينتشر العبير في جنة وارفة الظلال ملتفة الأيك، باسقة الخمائل.

حاور عباد بن بشر مصعب بن عمير، وعرف منه أن هذا الدين يضع كوابح على شهوات النفس، ويلجم ثورة الغريزة، فيحرم الزنا والخمر والكذب وقول الزور، وينهى عن العقوق والظلم وإساءة الجوار وأكل مال الناس بغير حق، ويمنع التباهي بالأنساب والتفاخر بالأموال، والتنابز بالألقاب، ولا يجعل للغني فضلاً على الفقير، ولاللقويّ رفعة على الضعيف، ولا للسيد مكانة أعلى من الرقيق، ولا للأبيض كرامة على الأسود، فالكل لآدم، وآدم من تراب، والتفاضل بالتقوى، وهذه محلها القلب، والقلب يوجد في جسد السيد والمسود والأبيض والأسود، والعربي والعجمي، والغني والفقير، فمن صلح قلبه صلح كل جسده، وكان كريمًا عند الله، ومن فسد قلبه فسد جسده، وكان أهون على الله عز وجل، فالله ينظر إلى القلوب والأعمال ولا ينظر إلى الصور والأشكال.

استجابت فطرة عبّاد لهذا الدين الجديد الذي يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله عز وجل فبايع مصعبًا على الإسلام، ولزمه وتعلم منه حتى شرفت المدينة المنورة بهجرة النبي ﷺ فكان تابعه وحارسه وصاحبه وحواريه.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: جلس عباد بن بشر وأسيد بن حضير مع النبي ﷺ ثم خرجا من عنده وقد دخل الليل وكانت الليلة مظلمة فكان على رأسهما قنديل يضيء لهما طريقهما فلما تفرقا سار مع كل واحد منهما قنديل حتى أوصله إلى بيته، وفي رواية: فأضاءت عصا أحدهما، فلما افترقا أضاءت عصا كل واحد منهما.

عرف عبّاد بن بشر أن الله عز وجل يهب الصحة والشباب لا ليهدره المسلم في غضب الله عز وجل، أو ليعبّ من الشهوات المزينة في هذه الحياة الدنيا متباهيًا بعصيانه أو مجاهرًا بخطيئته، فكل أمتي معافى إلا المجاهرين.

إن الإنسان الذي يهدر فتوته في التهام الطعام، والجري وراء الدنيا بمالها ونسائها وموبقاتها هو إنسان ردّ نفسه إلى أسفل سافلين، وحقق لها الخسران المبين، أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

وجهتان اثنتان وجه عباد بن بشر قوته وعقله وقلبه إليهما، وهما العبادة والجهاد.

إذا اصطف المسلمون للجماعة خلف النبي ﷺ كان عباد في الصف الأول، وإذا التمسته في الليل وجدته قائمًا يغتنم من الليل نزول رب العزة لتفقد المستغفرين والسائلين، والمسبحين بالأسحار.

قالت عائشة: تهجد رسول الله ﷺ في بيتي فسمع صوت عباد بن بشر، فقال: يا عائشة صوت عباد بن بشر هذا؟ قلت: نعم، قال: اللهم اغفر له. وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ سمع صوت عباد بن بشر فقال: اللهم ارحم عبّادًا. روى عباد بن بشر: أن النبي ﷺ قال: يا معشر الأنصار أنتم الشعار والناس الدثار، فلا أوتين من قبلكم. استوعب عبّاد ما سمعه من رسول الله ﷺ فعزم على أن لا يؤتى رسول الله ﷺ من قبله، فهو المجاهد في بدر، والمقاتل القوي في أحد، والحارس الأمين الذي يبذل نفسه فداءً للنبي ﷺ.

روى ابن هشام: نزل رسول الله ﷺ منزلاً فقال: من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟ فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار، وهما عمار بن ياسر وعبّاد بن بشر بن وقش، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا في فم الشعب - وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي - فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال عبّاد لرفيقه عمار: أي الليل تحب أن أكفيكه، أوله أم آخره، قال: بل اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي، فلما رآه أحد الأعداء عرف أنه الذي يحرس

المسلمين، فرمى بسهم أصاب عبّادًا، فتحامل ونزعه وثبت قائمًا يصلي والدماء تنزف منه، ثم أصابه بسهم آخر أصابه فنزعه وثبت قائمًا، ثم رماه العدو بالثالث فنزعه ثم ركع وسجد وأيقظ صاحبه، وقال له: اجلس فقد أصبت، فوثب عمار فهرب العدو خوفًا منهما، ولما رأى عمار ما بعبّاد من الدماء قال: سبحان الله، أفلا أيقظتني أول ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أكملها، فلما تابع عَلَيَّ الرمي ركعت فأيقظتك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني به رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أكملها.

عندما تفاقم شر كعب بن الأشرف اليهودي في تعبئة المشركين لمقاتلة المسلمين، وإثارة الإحن والضغائن في قلوبهم، ثم في إيذائه نساء المسلمين بالتشبيب بهن في شعره، وبتآمره مع المنافقين، وقال النبي ﷺ من لي بكعب بن الأشرف فقد لبى نداءه محمد بن مسلمة الأوسي، وكان من فريقه عباد بن بشر رضي الله عنه، وقد أرخ عباد بن بشر لهذه الموقعة الكبيرة فقال في قصيدة له:

صرخت به فلم يسمع لصوتي	ووافى طالعًا من رأس صدر
حضرت له فقال من المنادي	فقلت أخوك عباد بن بشر
وهذي درعنا رهنا فخذها	لشهر إن وفى أو نصف شهر
فقال معاشر سغبوا فجاعوا	وما عدموا الغنى من غير فقر
فأقبل نحونا يهوي سريعًا	وقال لنا لقد جئتم لأمر
وفي إيماننا بيض حداد	مدرّبة بها الكفار نفري
فعانقه ابن مسلمة المردّي	بها الكفار كالليث الهزبر
وشد بسيفه سلطا عليه	فقطّره أبوعبس بن جبر
فكان الله سادسنا فأبنا	بأنعم نعمة وأعز نصر
وجاء برأسه نفر كرام	هموا ناهيك من صدق وبر

والذين قتلوا كعب بن الأشرف هم محمد بن مسلمة، وعباد بن بشر بن وقش، والحرث بن أوس، وأبو عبس بن جبر، وأبو نائلة سلكان بن وقش.

قالت عائشة: ثلاثة من الأنصار لم يكن رسول الله ﷺ يعتدّ عليهم فضلاً، كلهم من بني عبد الأشهل، أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وعباد بن بشر بن وقش.

وروى عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أن عائشة أم المؤمنين قالت: كان في بني عبد الأشهل ثلاثة رجال لم يكن بعد النبي ﷺ أحد أفضل منهم، سعد بن

معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر بن وقش.

ويقول عباد بن عبد الله بن الزبير إن أباه لم يسمه عبادًا إلا على اسم عباد بن بشر، رغبة في أن يكون فيه ما في عباد بن بشر من الورع والجهاد وحب لله عز وجل ولرسوله ﷺ. لم يؤت رسول الله ﷺ من قبل عباد بن بشر في حياة النبي ﷺ وكان معه في مشاهده كلها، وطوع بنانه فيما ينتدب الناس له.

ولم يؤت الإسلام - كذلك - من قبل عباد بن بشر، فكان في حروب الردة مجاهدًا لايشق له غبار في سبيل الله، وإعزاز الدين، وأن تكون كلمة الله عز وجل هي العليا.

دعا له النبي ﷺ بالرحمة، وبشره بالمغفرة، وفضله على غيره، ورفع قدره، ثم طمح إلى الشهادة فنالها في اليمامة حتى يعيش حيًا مرزوقًا عند ربه، وحيًا في صدور المؤمنين مثلاً أعلى، وراية شامخة، وحياة باذخة.





عمارة بن حزم

أنصاري خزرجي من بني النجار، لا ينقصه العلم بأن الأصنام عبادة مختلف عليها، فهناك اليهود يساكنون قومه في يثرب وحولها، تكون لهم الغلبة تارة، وتكون للعرب عليهم تارة أخرى.

يزعم اليهود أنهم يعبدون الله، ولكنهم يقيمون سدًا بين الله وعباده، فيزعمون أنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه، ولا ينبغي لأحد غيرهم أن يعبده، إذ لا ينبغي أن يرتفع غيرهم إلى مكانهم، أو أن يهبطوا هم إلى درك غيرهم من البشر.

يُبيح إله اليهود لهم أن ينقضوا العهود، وأن يكذبوا في الحديث، وأن يغشوا في البيع والشراء، وأن لا يتناهوا عن منكر فعلوه، وأن لا يأتمروا بينهم بمعروف. صنع اليهود صورة للإله تُرضي كبرهم، وتحقق مطامعهم، وتضع الخشية والمهابة لهم في نفوس غيرهم.

عندما تغلب العرب على اليهود وأوقعوا بهم هزيمة ثقيلة فإنهم بأنفسهم ومن حيث لم ينتبهوا أسقطوا هذا الحاجز بين الله وعباده، وأصبح العرب يستشرفون بعثة هذا الرسول الذي سيصلهم بالله عز وجل القادر على أن ينصر من يعبده على من يكفر به.

قَدِمَ أبوالحيسر أنس بن رافع مكة، ومعه فتية من بني عبدالأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم به، فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب.

ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلامًا حدثًا:

أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبوالحيسر حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج.

ولم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومه عند موته، أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع ما سمع.

بعد وقعة بعاث، وفي موسم الحج عرض النبي ﷺ نفسه على بعض أهل يثرب فاستجابوا له، وكان عمارة ﷺ في السبعين أصحاب العقبة الثانية. وبعد الهجرة الشريفة آخى النبي ﷺ بينه وبين محرز بن نضلة.

غير أن عمارة منذ شرح الله صدره للإسلام، فإنه أظهر بغضه وبراءته وعداوته لكل مظهر من مظاهر الكفر، فكان يصحبه أسعد بن زرارة، وعوف بن عفراء يغيرون بالليل بعد أن ينام الجميع على أصنام بني مالك بن النجار فيكسرونها.

وكانت بطولته في الجهاد مظهرًا آخر لعداوته للكفر ورموزه والمدافعين عنه، فشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ولكن الإسلام لم يُواجه بالكافرين وحدهم، وإنما ابتلي بفئة من المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ولكن الله عز وجل يشاء لهم الفضيحة حين يفلت من ألسنتهم ما يكشف عن خبيئة نفوسهم في موطن أو آخر دون أن ينتبهوا لما بدر منهم.

في الطريق إلى تبوك نزل المسلمون منزلاً، ثم فقدت ناقة النبي ﷺ وبحث الناس عنها فلم يجدوها، وبينما الناس في ضيق بسبب ذلك خرج عليهم النبي ﷺ وقال: إن رجلاً قال: إن محمدًا يخبركم الخبر من السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله عز وجل، وقد دلني الله عليها، وهي في الوادي في شعب كذا، وقد حبستها شجرة أمسكت بزمامها. فأسرع عمارة في نفر من المسلمين فأتوا بها من حيث أخبرهم بمكانها.

رجع عمارة إلى أصحابه فأخبرهم بما قال النبي ﷺ تعجبًا مما رأى، فقال له بعضهم إن الذي قال هذا هو زيد بن اللصيت، وكان من الذين يصحبون عمارة في رحله، فقام عمارة إليه يطأ عنقه ويقول: في رحلي داهية ولا أدري، أخرج عني ياعدو الله من رحلي ولا تصحبني.

وكان بعض هؤلاء المنافقين يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يومًا في المسجد منهم ناس، فرآهم النبي ﷺ، خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأُخرِجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا. فقام أبوأيوب الأنصاري إلى المنافق عمر بن قيس من بني النجار وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد وهو يقول: أتخرجني ياأبا أيوب من مربد بني ثعلبة، يقصد الأرض التي بني عليها المسجد وكانت مربدًا للتمر يملكه سهل وسهيل ابنا عمرو.

ثم أقبل أبوأيوب أيضًا إلى رافع بن وديعة أحد بني النجار فلبَّبه بردائه ثم هزه هزًا عنيفًا، ولطم وجهه ثم أخرجه من المسجد وهو يقول له: أف لك منافقًا خبيثًا، أدراجك من مسجد رسول الله ﷺ.

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو، وكان رجلاً طويل اللحية، فأخذ بلحيته، فقاده بها قودًا عنيفًا حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عمارة يديه فضربه بهما بعنف ضربة عنيفة في صدره خرَّ منها على الأرض، والمنافق يصيح: خدشتني ياعمارة، قال: أبعدك الله يامنافق، فما أعدَّ الله لك من العذاب أشد من ذلك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ.

وعندما نقض المشركون عهدهم مع النبي ﷺ، فقد أعد المجاهدين وزحف إلى مكة راعية الكفر، وعاصمة الضلال والشرك حينئذ، وقد صدق الله عز وجل وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وفتح له مكة بعد أن أحلها له ساعة من نهار، وكان عمارة يحمل يوم الفتح راية بني مالك بن النجار.

كان عمارة شأن إخوانه خير القرون لا يشغله الجهاد عن العمل، ولا يثبطه العمل عن العبادة، وإنما كانوا يعرفون بما تعلموه من رسول الله ﷺ أن العبادة مفهوم شامل يحقق التوازن للمؤمن بين حاجات الجسد ومراقي الروح، كذلك لا يرى فصلاً بين العبادات فهي كلها عناصر لمعنى الخضوع والانقياد وإسلام الوجه لله عز وجل، وقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: (أربع من عمل بهن كان من المسلمين، ومن ترك واحدة منهن لم ينفعه الثلاث، قال زياد بن نعيم: قلت لعمارة: ماهن؟ الصلاة والزكاة وصيام رمضان والحج.

ظل عمارة في رباط مع رسول الله ﷺ وبعده، لأنه سمع أن غدوة في سبيل الله

أو روحة خير من الدنيا وما فيها، وأنه ما مِن كلم يُكْلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِمَ: اللون لون الدم، والريح ريح المسك، وأنه ما من أحد يَدخل الجنة يحب أن يخرج منها إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يعود إلى الدنيا فيجاهد في سبيل الله فَيُقْتل عشر مرات لما يرى من الكرامة. وقد ارتقى عمارة إلى هذه الكرامة في معركة اليمامة التي أبلى فيها حتى اتخذه رب العزة شهيدًا فيها.





سعد بن عبيد (القارئ)

يسمى سعد القارئ وقد يكنى بـ (أبي زيد) ، وهو من العدد القليل الذي جمع القرآن في صدره على عهد رسول الله ﷺ، وهذه شهادة عظيمة لمن هم مثله.

كان أصحاب النبي ﷺ يحفظون من القرآن عشر آيات ولا يزيدون عليها إلا بعد أن يعملوا بها، فمن عمل بالآيات العشر انتقل إلى عشر آيات أخرى، فمن جمع القرآن كله يكون قد عمل بما يحفظه.

ولكن أصحاب النبي ﷺ كانوا يعملون بكل ما ينزل من القرآن الكريم تأسيًا بفعل رسول الله ﷺ الذي إذا علمهم الصلاة يقول: صلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا خرج إلى الحج قال: حجوا كما رأيتموني أحج، ومن أضاف حفظ القرآن إلى العمل به فقد جمع الحسنيين وأضاف إلى صالح أعماله عشر حسنات عن كل حرف، ودرجة من درجات الجنة.

زاول سعد بن عبيد القارئ شعائر الإسلام، وحفظ القرآن الكريم، وجاهد في الله حق جهاده في بدر وما تلاها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، ثم في حروب الصديق لقمع الردة، وبعد ذلك في حروب الفتح في ميدان العراق.

حقق خالد بن الوليد نجاحات متتالية على جبهة العراق في مواجهة الفرس حتى أتاه أمر الصديق بأن يسارع بنصف الجيش لمؤازرة جبهة الشام في مواجهة الروم.

استقل المثنى بن حارثة عدد الجيش الذي بقي معه في العراق بعد رحيل خالد، في حين يعد الفرس للقصاص مما ألحقه المسلمون بهم من هزائم، واستبطأ خبر الصديق فسار إلى المدينة فوجد الصديق في مرض موته فأخبره بأمر العراق فأوصى الصديق عمر أن يندب الناس لقتال الفرس.

في اليوم التالي لموت الصديق رضي الله عنه أصبح عمر فندب الناس وحثهم على الجهاد، وحرضهم ورغبهم في الثواب على ذلك، فلم يقم أحد لأن الناس كانوا يكرهون قتال الفرس لقوة سطوتهم وشدة قتالهم، ثم ندبهم في اليوم الثاني والثالث فكان أول من أجابه أبو عبيد بن مسعود الثقفي فأمّره عمر على من استجاب له وقال: إنما أُوَمِّرُ أول من استجاب، إنكم إنما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين، وإن هذا هو الذي استجاب قبلكم، ثم دعاه فوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا، وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ.

في معركة وقعة النمارق انتصر رجال أبي عبيد على الفرس وأسروا قائدهم وكان أميرًا يقال له (جابان) وقد خدع جابان من أسره وفرّ منه فأمسكه المسلمون وجاءوا به عند أميرهم أبي عبيد وأشاروا بقتله لكونه أميرًا ولكونه مخادعًا، فقال أبو عبيد: وإن كان أميرًا فإني لا أقتله وقد أمنه رجل من المسلمين.

تعددت المواقع وتتالت الانتصارات في كسكر، والسفاطية وبار وسما ونهر جور، وضربت الجزية وأخذ الخراج وجمعت الغنائم، وكان خمسها يصل إلى بيت المال في المدينة، والفرس يتقهقرون من موقع إلى موقع، ثم احتشدت حشودهم ومعها الفيلة العملاقة وبينهم وبين المسلمين نهر وعليه جسر، فقالوا للمسلمين إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم، فقال المسلمون لأميرهم أبي عبيد: ادعهم فليعبروا إلينا فقال: ما هم بأجرأ على الموت منا، ثم اقتحم إليهم فاجتمعوا في مكان ضيق هناك، فاقتتلوا قتالاً شديدًا لم يعهد مثله المسلمون، وتقدم أبو عبيد إلى أعظم الفيلة فضربه بالسيف فقطع زلومه فحمي الفيل وصاح صيحة عظيمة وتخبط برجليه في أبي عبيد فقتله، وحصر الفرس جنود المسلمين أمام الجسر فقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وتدافع الناس إلى الجسر فانكسر وقتل وغرق كثير من المسلمين وفرّ كثير منهم إلى المدينة منهم سعد بن عبيد القارئ، وأخبر عبد الله بن زيد عمر بالخبر، وبأن المثنى بن حارثة هو الذي استطاع أن يستنقذ بعض الجيش. لم يؤنب عمر أحدًا من الذين فروا إلى المدينة وقال لهم أنا فئتكم.

بقي المثنّى في العراق يجالد الفرس، ويحقق عليهم انتصارات، والخليفة يمده، وفي الوقت نفسه تتوالى عليه أنباء الانتصارات في جبهة الشام، فقال لسعد بن عبيد: هل لك في الشام فإن المسلمين قد نزفوا به، والعدوّ قد دثروا عليهم، ولعلك تغسل عن نفسك الهنيهة التي لحقت بك في جبهة العراق، فقال سعد: لا، إلا الأرض التي فررت منها، والعدو الذي صنعوا بي ما صنعوا.

وصلت الأخبار إلى الخليفة باحتشاد الفرس ونقضهم العهود وتأهبهم لمعركة فاصلة مع المسلمين فحشد الناس وعزم على أن يخرج على رأسهم فقالوا له: إني أخشى إن كسرت أن تضعف شوكة المسلمين في جميع الأقطار، فابعث رجلاً آخر وارجع أنت إلى المدينة، ثم استقر الأمر على أن يرأس الجيش سعد بن أبي وقاص (الأسد في براثنه) فأرسل إليه عمر وأوصاه قائلاً: يا سعد: لايغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحبه، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه، فإنه الأمر، هذه عظتي إياك، فإن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين.

ثم قال له عمر وهو يودعه: إنك ستقدم على أمر شديد، فالصبر الصبر على ما أصابك ونابك، تجمع لك خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين، في طاعته واجتناب معصيته، وإنما طاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وإنما عصيان من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء، منها السِّر ومنها العلانية، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامُّه في الحق سواء، وأما السرّ فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس، ومن محبة الناس فلا تزهد في التحبب، فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحب عبدًا حبّبه، وإذا أبغض عبدًا بغّضه، فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس.

في يوم القادسية صلى سعد بالناس الظهر، ثم خطب الناس فوعظهم وحثهم وتلا قوله تعالى **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾** (الأنبياء ١٠٥). وقرأ القراء آيات الجهاد. ثم وقف سعد بن عبيد القارئ فقال: إنا لاقو العدو غدًا، وإ نا مستشهدون غدًا، فلا تغسلوا عنا دمًا، ولا نكفن إلا في ثوب كان علينا.

بعد المعركة أرسل سعد بن أبي وقاص إلى عمر يخبره بالفتح العظيم ويقول: أما بعد، فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحناهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سُلِبوه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وصفوف الآجام، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ، وفلان

وفلان، ورجال من المسلمين لايعلمهم إلا الله فإنه بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل كدوي النحل، وهم آساد في النهار، لا تشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم.



الأخرم الأسدي

اسمه محرز بن نضلة، ويكنى فهيرة، وينادى (قُمير) وترجع كثرة المسميات التي أطلقت عليه لما حباه الله به من وسامة وبياض وجه، ووضاءة وبهاء تشرح صدر من يراه فيألفه ويسعى إلى التعرف إليه.

أسلم قديمًا مع عامة قومه ومنهم الأعلام في الإسلام مثل عبد الله بن جحش وأخيه أبي أحمد عبد بن جحش، وشجاع بن وهب وأخيه عقبة وغيرهم.

هاجر مع قومه جميعًا بني غنم بن دودان بن خزيمة إلى الحبشة، وهاجروا بعد ذلك بأكملهم إلى المدينة، فكانت دار غنم بن دودان كلها دار إسلام.

مرّ بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل وهم يصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابًا ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنهّد وقال:

كل دار وإن طالت سلامتها ... يومًا ستدركها الحوباء والنُوَبُ

ثم قال عتبة أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها.

قال أبو جهل وماتبكي عليه من قُل بن قُل (يستهين بعددهم) ثم قال: هذا عمل ابن أخي هذا، فرق جماعتنا، وشتّت أمرنا وقطع بيننا.

يصف أبو أحمد عبد بن جحش الهجرة المستوعبة لبني غنم بن دودان فيقول:

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد ... ومروتها بالله برت يمينُها
لنحن الألى كنا بها ثم لم نزل ... بمكة حتى عاد غثًّا سمينها

بها خيمت غنم بن دودان وابتنت   وما إن غدت غنم وخف قطينها
إلى الله نغدو بين مثنى وواحد   ودين رسول الله بالحق دينها

وآخى النبي ﷺ في المدينة بين الأخرم الأسدي محرز بن نضلة، وبين بطل صنديد آخر هو عمارة بن حزم الذي لا يقل عن محرز جمالاً وجلالاً، ولا ينقص عنه إقدامًا وبسالة، بل إن بني عبد الأشهل الذين وصفهم النبي ﷺ بأنهم خير دور الأنصار قد جعلوا من محرز حليفًا لهم ينتسب إليهم، وينتسبون إليه.

الجهاد.. كلمة واحدة هي تلخيص مكثف جدًا، ولكنه واضح تمام الوضوح لحياة الأخرم منذ ولد في الإسلام إلى أن علقت روحه في جناح طائر يحلق في أغصان الجنة.

حياة قصيرة في عمر الزمان في عالم الشهادة، ولكنها حياة مديدة في عالم القيم الرفيعة والحياة المثلى، وفي عالم السموّ والمبادئ القويمة، وفي عالم الرجال حيث ينبغي أن يكون مكان الرجال.

جاهد قيم الجاهلية التي رضعها وليدًا، وعايشها طفلاً، وزاولها شابًا، وتسربت إلى تكوينه أو امتزجت به. وجاهد كوابح القبيلة والمجتمع والمواريث القديمة. وجاهد النفس والشيطان وكلاهما يصرف عن الحق إن بدا، ويحجب النور إن أشرق، ويدعو إلى النار إن دعا داع إلى النجاة. جاهد أنس الوطن وملاعب الرفاق فهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة وعاش يتخذ من إسلامه وطنًا، ومن عقيدته حصنًا، ومن إيمانه سلاحًا ودرعًا. جاهد أقرانه وأهله في بدر فإنهم بكفرهم لم يعودوا أهله وإنما هم عمل غير صالح.

ما ترك مشهدًا بعد بدر إلا وكان إليه مهرولاً يتعجل الجنة ويسعى إليها سعيًا حثيثًا.

جلس إلى أبي بكر يقص عليه رؤياه - وكان الصديق أعبر الناس للرؤيا — فقال محرز: رأيت سماء الدنيا أفرجت لي حتى تخطيت السماء السابعة ثم انتهيت إلى سدرة المنتهى، فقال له الصديق: إنها لرؤيا حق، وأنا أؤوّلها لك، فأبشر بالشهادة.

في اليوم التالي لهذه الرؤيا أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على لقاح النبي ﷺ بالغابة وفيها رجل من غفار ومعه امرأته، فقتلوا الرجل، واحتملوا في اللقاح المرأة، وكان أول من عرف أمرهم سلمة بن الأكوع، فصعد إلى أعلى الجبل وصرخ: واصباحاه، ثم خرج يشتد في أثر القوم، وكان مثل السبع حتى لحق بهم، فجعل يردهم ويرميهم ويقول إذا رمى: خذها وأنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرضع.

بلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة: الفزع، الفزع، فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ، وسارع الفرسان إلى النجدة، فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمَّر عليهم سعيد بن زيد، وقال له: اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس.

كان ذو اللمة فرس محمود بن مسلمة في حائط بني عبد الأشهل ولما سمع صهيل الخيل جال في مكانه، وكان فرسًا سريعًا كالسحاب، فقال نساء من بني عبد الأشهل لمحرز بن نضلة، يا قمير: هل تأخذ هذا الفرس فتدرك فرسان رسول الله ﷺ، فركبه وسبق به الفرسان، فكان أول فارس يصل إلى سلمة، وكان سلمة يرميهم ويختبئ وهم يفرون أمامه ويتركون ما أخذوه حتى استنقذ منهم كل ما أخذوه وهو يتبعهم، فقالوا لبعضهم لقد أخذ منا هذا الأكوع ما بأيدينا، فقام إليه أربعة منهم فصعدوا الجبل، فقال لهم: أتعرفوني؟ قالوا: ومن أنت؟ قال لهم أنا ابن الأكوع، والذي كرم وجه محمد لا يطلبني رجل منكم فيدركني، ولا أطلبه فيفوتني، وأقبل الأخرم الأسدي فولى المشركون مدبرين، فأخذ سلمة بعنان فرس الأخرم وقال له: يا أخرم، احذر القوم وانتظر فرسان المسلمين، فإني لا آمن أن يقتطعوك فاتئد، قال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة، فتركه سلمة، ولحق الأخرم بالمشركين فوقف لهم وقال: قفوا يا معشر بني اللكيعة حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار فالتفوا حوله وعطف عليه عبد الرحمن بن عيينة فقتل الأخرم حصان عبد الرحمن، ولكن طعنة عبد الرحمن أصابت الأخرم فنال الشهادة، وكان قد أدركه أبو قتادة فقتل عبد الرحمن، وتحققت رؤيا الشاب الوسيم الذي خلقه الله من أجل الجنة فسارع إليها وسنه سبع وثلاثون سنة.





معيقيب بن أبي فاطمة

حليف آل سعيد بن العاص بن أمية، ولقبه (الدوسي) . من السابقين إلى الإسلام في مكة، وتحمل من حلفائه، ومن أهل مكة من الأذى ما محّص الله به إيمانه، وعلم صدقه وصبره، ولم يشفع له عند حلفائه ما تميز به من أمانة مطلقة في الحديث والمعاملة والأسرار، إذ كان الإسلام عند مشركي مكة جريمة لا يغفرها تاريخ ناصعٌ لمن دخل منهم إلى الإسلام.

يرى أعداؤه فيه حقًا أبلج تستجيب له الفطرة، وتهفو إليه المشاعر، ويتم به التوازن لعناصر الإنسان فتستقيم حياته، وتنقشع الغشاوات عن عينه، فلا يرى لنفسه فضلا على غيره بسبب وفرة مال ولا كثرة أهل، ولا علوّ نسب، ويرى أن للمجد أسبابًا تختلف عما تعارفت عليها قيم الجاهلية التي مازالت تعبث بقلوب كثير من الناس.

يُعاند الكفر هذا الحق الأبلج، ويستنفر كل هواه لإطفاء نوره الذي يضيء للبصر والبصيرة، لأن هذه القيم الجديدة، بل الأصيلة التي كان للإسلام فضل الكشف عنها، وإجلائها في الضمير الإنساني تهدم نسقًا من القيم بناه ظلم الإنسان لنفسه ولأخيه خلال قرون مغرقة في القدم، استحوذ فيها الشيطان على الناس فأنساهم ذكر الله وجعلهم من حزب الشيطان ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة ١٩).

بِسُلم القيم الجاهلية يظلم الإنسان، والظلم ظلمات يوم القيامة، وهو يفخر بأنه يظلم،

بغـــاةً ظالمـــين وماظُلمـــنا ولكـــنا ســـنبقى ظالمينـــا

وإذا كان الله قد خلق الناس أحرارًا فإن قيم الجاهلية تبيح لبعض الناس وفق

شروط وضعها هذا النظام أن يتحكموا في أرواح وأقدار وأرزاق غيرهم، وما الرق إلا أحد ملامح هذا الوجه القبيح لتحكم الإنسان واستغلاله لأخيه الذي ينتسب معه إلى أب واحد وأم واحدة.

يغير العبيد ويغنم السادة، ويموتون مدافعين ليتمتع الأحرار بالحياة، وينصهر الضعفاء عرقًا فيشربه الأشراف كئوسًا مترعة تراق فيها الأخلاق، وتُمتَهن الكرامة، وتنتهك الأعراض.

في قيم الجاهلية ينتسب الولد لغير أبيه، ويبيع الأب ولده أنانية منه لينعم هو بالحياة، ويقتل ابنته لأنها لن تغنم له من أخيه مالاً أو نساءً. الإسلام يهدم هذه القيم إلا ما سلم لها من الفطرة، ويُقيم هذا النسق الذي ينفض غبار السنين عن صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، والكفر يعلم ذلك حق العلم فيشرع أسلحته ليعاكس هذه الفطرة، فكان مقدار الأذى الذي تعرض له المسلمون شهادة على تجرد الكفر من الرحمة والأخوة الإنسانية، وشهادة على حرص المسلم على دينه، وبذله نفسه في سبيله.

هاجر معيقب مع من هاجر إلى الحبشة، واكتسب بعد ذلك درجة المهاجرين إلى المدينة، ثم ارتقى إلى ملإ المجاهدين منذ غزوة بدر، فلم يفته مشهد من مشاهد الإسلام مع النبي ﷺ.

الحقيقة أن معيقيب هذا الذي قليلاً ما يتردد اسمه كان من العاملين في صمت، وفي مواقع هي أقرب ما تكون إلى صميم القيادة في الحكومة الإسلامية التي كان على رأسها رسول الله ﷺ، فقد اتخذ النبي ﷺ خاتمًا يمهر به الرسائل التي تصدر عنه إلى خارج المدينة، وهذه الرسائل منها ما يمكن أن يعلمه الناس كرسائله لكسرى وقيصر والمقوقس وغيرهم من حكام الأرض، ومنها ما يمكن أن يكون سرًا لا يطلع عليه إلا الكاتب وصاحب الخا؟، وكان صاحب خاتم النبي ﷺ هو معيقيب، لما علم عنه من رسوخ في الدين ومن قدرة على الصمت، ومن محافظة تامة على أسرار الدولة التي تحمل وصبر من أجلها، وهاجر وترك الأهل والأصحاب والوطن ليساهم في قيامها، فأولى به وبمن مثله أن يحاذر أي تصرف يحمل أدنى احتمال لضررها أو الانتقاص منها.

ولم يكن خافيًا على أصحاب النبي ﷺ الأسباب التي حدت بالنبي ﷺ أن يستأمن معيقيب، ولعلهم كانوا يغبطونه على هذا المكان القريب من مركز صنع القرار في الدولة الإسلامية.

كَثُرت الأمـوال في بيت مـال المسلمين أيام عمـر بـن الخطـاب ﷺ حـين توغـل المجاهدون الفاتحون الظافرون في كل أركان الأرض، ولـم يعد الأمر يقتضى كما كان مـن قبل أن توزع أموال الغنائم التي تخص إمام المسلمين علـى مـن يستحقونها مباشرة بحيث توضع الأموال في مكان ويبدأ تقسيمها حتى تنتهي في اليوم نفسه.

نظم عمر بيت المال، وأعد قوائم العطايـا، وجعـل مقياسـها القـرب مـن النبي ﷺ والسبق إلى الإسلام والهجرة والجهاد، ورأى الكاتبون أن هذا المعيار سوف يؤخر آل عمر إلى مكان بعيد في حين قد عُرِفَ بلاؤه في الإسلام، وقربه من قلب النبي ﷺ، فـأرادوا أن يستثنوه من تطبيق هذا المعيار ويضعوه بعد آل النبي ﷺ وبعد آل أبي بكر، ولـم يكـن في الأمر مجاملة لعمر باعتباره الحاكم، وإنما لأن تأخره عن الإسلام قـد تـم تداركـه بمـا قـدم للإسلام والمسلمين، وبشدة إخلاصه ونصحه لله ورسوله، لكن عمـر حـين عـرف نيتهم قال الكلمة الفاصلة التي تقطع الطريق على كـل اجتهـاداتهم، لقـد كـان حازمًـا في قولـه: ضعوا آل عمر حيث وضعهم الله عز وجل.

بيت المال بهذه النظم المعقدة في الصـرف، وتلـك الأمـوال الهائلة الـتي تـرد يحتـاج الخازن لا تضعف شهواته أمام هذا الذهب المتدفق، ولا يعرف كيف يجـامل أهلـه وذويـه، وأن يكون حاسبًا دقيقًا لا تختلط أوراقه، ولا يميل مع هوى، ولا يغفل عن حـق يوديـه إلى مستحقيه، ووجد عمر في معيقيب كل الصفات التي يريدها، حزم وحلـم وصبر وحساب ودقة وأمانة وكتمان، وخوف من النار، ولقد روى محمد بـن معيقيـب عـن أبيـه أن النبي ﷺ قال: هل تدرون على مَنْ تَحْرُم النار؟ قالوا: اللـه ورسوله أعلم، قال: على الهين اللين القريب السهل. وعن سلمة بن عبدالرحمن عن معيقيب قال: سألت النـبي ﷺ عـن مسح الحصى في الصلاة، فقال: إن كنت لابد فاعلاً فمرة واحدة.

فهو يروي أحاديث الأخلاق والآداب الرفيعة، وهو يسأل عن أشياء تبلغ في دقتهـا أن لا يسأل عنها إلا من له عقل دقيق يلمح ويفكر.

أبتلى اللـه عز وجل معيقب بمرض الجزام، فأشفق عليه عمر أيما إشفاق، وأرسـل في طلب الأطباء فعالجوه، فوقف المرض، وقليلاً من كان يبرأ من هذا المرض.

كذلك حمل معيقيب الخاتـم لعثمان بن عفان ﷺ، وهو نفسه الخاتـم الـذي كـان قد اتخذه رسول اللـه ﷺ، وسقط الخاتـم من معيقيب في بئر أريس، فاعتبر مروجـو الفتنـة من السبئيين واليهود أن ضياع الخاتـم دليل على عدم مشروعية خلافـة عثمـان، وليـس في

كلامهم شيء من الحق، لأن البعد عن منهج النبوة، ومنهاج الحق هو المبرر الوحيد لفقدان الحاكم أهليته للحكم، ولكن إذا كان الحاكم ملتزمًا بشرائع الإسلام وتكليفاته في سياسة الدنيا وإمامة الناس فإن تقويم العوج الذي قد يظهر فيه مشروع، أما القدح في إمامته فهو خروج عن الجماعة، والثورة عليه محاربة لله ورسوله وسعي للفساد في الأرض.

كانت الفتنة قد نجمت في عهد ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ، وكانت كل الأسباب التي التمسها المصرون على الضلال أسبابًا واهية لا تقوى أمام تبشير النبي ﷺ بأنه في الجنة، وقوله عنه في تجهيز جيش تبوك: ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم، وقوله إن الملائكة لتستحي من عثمان، وكان أوهى مافي هذه الأسباب هو سقوط خاتم النبوة من معيقيب.





أبومرثد الغنوي

إذا تحدث عنه كُتّاب المغازي وصفوه بأنه من كبار الصحابة وفضلائهم. وقد كان من فضلاء الناس قبل أن يدخل الإسلام، فقد كان حليفًا لحمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله، ويُقَاربهُ سنًا، وشجاعة، طويلاً غزير شعر الرأس، يفيض عقله بالحيوية، وتنتصب قامته بالشموخ، ويمتلئ جسمه بالعافية.

كانت تفصله عن الخمسين سنوات قليلة حين شرح الله صدره للإسلام، ولم يكتسب بمر السنين ألفة مع عقائد الجاهلية، ولم يفقد عقله حكمته فيرفض ولادة جديدة مع عقيدة جديدة، فكان نداء الفطرة أقوى من سلطان العادة، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنعام ١٧).

لم يؤثر عن كَنّاز بن الحصين أبي مرثد الغنوي أنه هاجر إلى الحبشة في إحدى الهجرتين أو في كلتيهما، كذلك لم يحفظ أذى تعرض له واحتفلت به أخبار المسلمين في مكة، ربما لأنه كان حذرًا في تعامله مع المشركين، وربما للحلف الذي كان بينه وبين حمزة، ولا يستطيع مكيٌّ أن يخفر ذمة حمزة، أو أن يعتدي على حليف له.

عندما أمر النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة استجاب كَنّار بن حصين وابنه مرثد، ونزلا أول ما وصلا المدينة على كلثوم بن الهدم في قباء، وهو المنزل الذي نزل فيه رسول الله ﷺ وكثير من المهاجرين، وحين ضاقت حجرات المنزل بالمهاجرين نصب كلثوم رضي الله عنه قباء كبيرًا يستقبل فيه الوافدين.

تبارى المسلمون في المدينة لاستقبال إخوانهم المهاجرين وإكرامهم، وكان بعضهم لا يمتلك أو يكتسب ما يقوت أبناءه وأضيافه، فكان يؤثر أضيافه على أولاده حبًّا لهم،

ورغبة في ثواب الله عز وجل الذي سجل لهم ذلك وحيًا يُتعبد بتلاوته في كتابِ الله العزيز الذي نزله وتعهد بحفظه.

يقول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر ٨-١٠).

آخى النبي ﷺ بين أبي مرثد وعبادة بن الصامت الحكيم الوقور الذي تتفق مشاربه مع أبي مرثد، ويتقارب السن بينهما، وكلها صفات تعزز الألفة، وتقوي أواصر الأخوة بالإضافة إلى نسب الإسلام الذي جعل كل مسلم أخًا لأي مسلم آخر حتى إن تناءت الديار واختلفت الأجناس.

لم يكن المهاجرون ليعيشوا عالة على إخوانهم الأنصار، ولكن ملابسات الهجرة لم تدع لأي واحد منهم خيارًا لكي يستعد لتنظيم حياته، وحمل أمواله، فكانت المؤاخاة تهيئة نفسية للحياة الجديدة فلا يشعر بالغربة بين إخوانه، وإذا كان المهاجرون قد ابتهجوا بالأخوة فإنهم لم يقبلوا أن يعيشوا عالة على إخوانهم بل أسرع كل واحد منهم لمزاولة ما يحسنه من عمل وإذا أحرزت الأنفس قوتها اطمأنت وتأهبت لتحمل المسئوليات التي يفرضها اتباعهم لهذا الدين الذي يتربص به أعداؤه من الداخل ومن الخارج.

كان المسلمون في مكة يواجهون المشركين من أهلها، أما في المدينة فقد صاروا يواجهون أعداء الداخل من اليهود والمنافقين، ويواجهون أعداء الخارج كفار مكة ومن حالفهم، وهؤلاء وأولئك لا يفتأون يكيدون للإسلام ويتربصون بالمسلمين، بالكلمة وبالسيف، ومن واجب المسلمين أن يدفعوا ويدافعوا ليبطلوا كيد الكائدين، ويُحْبِطوا مكر الماكرين.

تصافى أبومرثد مع أخيه عبادة بن الصامت، ولكنه كان يمارس من الأعمال ما يكفي حاجته وحاجة أهله، لا يشغله ذلك عن أن يكون عضوًا فعالاً في مجتمع المسلمين، يتعلم ويعمل، ويجاهد مع النبي ﷺ فلم يغب عن مشهد من مشاهده.

وقد كان مجتمع المسلمين مجتمعًا عاملاً، ومجتمعًا عابدًا، والعمل فيه هو أحد

جوانب العبادة، يعلم يقينًا أن الإخلاص فيه والأمانة يؤديان إلى حسن الثواب، وأن التكاسل والإهمال والغش تؤدي إلى سوء الحساب.

وكان مجتمع المدينة إلى ذلك مجتمع جنود، فهم يتدربون على الرمي في ساحة المسجد، ويلعبون بالسلاح في أوقات فراغهم، حتى إذا سُمِعَ الصريخ تحول هؤلاء العاملون إلى مجاهدين حسورين، لا تنقصهم الخبرة، ولا يعوزهم التدريب، ولا يقعدهم السِّنّ، فكم من مقاتل منهم دون العشرين من عمره، وكم من مقاتل منهم تجاوز الستين مثل أبي مرثد، لا يستشعر ضعفًا، ولا تلين له قناة، ولا يقعده خوف حر ولا برد، ولا وعورة طريق، ولا حذر وعثاء سفر، فلغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وعينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله، ولا يجتمع في جوف مسلم غبار في سبيل الله ودخان جهنم.

يموت ابنه مرثد شهيدًا في يوم بئر معونة فيغبطه، وتذرف عيناه عليه دمعها، ولكنه يحن إلى أن يحصّل من الكرامة مثل ما حصَّل.

كان أبومرثد يحظى باحترام النبي ﷺ، وكان معدودًا من فضلاء الصحابة لسنّه وعبادته وإيجابيته في المجتمع المسلم. ومات رسول الله ﷺ وهو راض عنه، وقربه الصديق رضي الله عنه وكان يجلّه، ولم يتوقف جهاد أبي مرثد معه حتى وافته منيته عن ست وستين عامًا في السنة الثانية عشرة للهجرة المباركة في خلافة الصديق رضي الله عنه، فأفضى إلى ماقدم، وما قدمه كثير يستحق به إن شاء الله جنة عرضها كعرض السماء والأرض أُعدت للذين آمنوا بالله ورسوله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.





الأرقم بن أبي الأرقم

لعل اسم الأرقم من أشهر أسماء الصحابة وأكثرها دورانًا على الألسنة، ولكن داره أشهر منه، إذ دخلت التاريخ والجغرافيا معًا، دخلت الجغرافيا لأنها المكان الذي كان الرسول ﷺ يلتقي فيه بأصحابه على الصفا بعيدًا عن عيون أهل مكة.

وهي المكان الذي يقصده من أراد أن يُشْهِر إسلامه أمام النبي ﷺ، أو أراد أن يتحداه، أو حتى يقتله كما كاد يفعل عمر بن الخطاب يوم أُريد له الخير.

وهي المأوى الآمن الذي يتلقى فيه المسلمون دروس العلم في العقيدة والآداب الإسلامية، وما أكرمهم به رب العزة من محكم آياته، وبليغ عظاته.

ودخلت التاريخ الوضيء لجبين العالم لاتباطها بقبل أو بعد لكل مسلم في مكة، فهو قد أسلم إما قبل دخول المسلمين دار الأرقم أو بعد دخول المسلمين دار الأرقم.

وتم الجهر بالإسلام من دار الأرقم حين خرج المسلمون يُكَبِّرون ويعلنون عن إسلامهم حتى طافوا حول الكعبة وفيهم حمزة وعمر رضي الله عنهما.

وإذ نؤرخ للأرقم فلابد أن نؤرخ لداره تلك التي كانت ملاذ الإسلام، وملجأ المسلمين، ومهد الإسلام. أسلم الأرقم سابع سبعة في الإسلام، فلم يسلم قبله غير ستة من المسلمين، ولكن الأرقم المخزومي كان رجلاً قويّ القلب، عميق الإيمان، باع نفسه لله منذ أول يوم بايع فيه رسول الله ﷺ، وبذل داره في سبيل نصرته، ولكي ندرك مدى الشجاعة التي يتحلى بها الأرقم، ومقدار التضحية التي قدمها فإننا في حاجة لأن نتذكر مانعرفه عن بواكير الدعوة الإسلامية.

كان المسلم يستخفي بدينه حتى لا يكتشف أمره أهل الجاهلية والشرك، لأن اكتشافهم لأمره له ما بعده. لا يفرّق المشركون في إيذائهم، وجمود عواطفهم، وقسوة قلوبهم بين ضعيف وشريف، لقد وقفوا على الجانب الآخر، وأصبح كل مسلم عدوًا لدودًا، ولو كان بالأمس أبًا حانيًا، أو ولدًا بارًا أو أخًا رفيقًا.

مات ياسر وسُميَّة، ويُكْوى خَباب بالنار على رأسه، ويُطْرَح بلال على الرمضاء من تحته، والحجارة الصم على صدره، ويفقد عثمان بن مظعون عينه، وتتهشم عظام عبدالله بن مسعود، وتُوضع أحشاء البهائم بروثها على رأس سيد الخلق محمد ﷺ، ويُخنَق حتى تجحظ عيناه ويُقبل على الموت لولا لطف الله عز وجل.

يعرف هؤلاء جميعًا أنهم مأمورون بالصبر، ولكنهم في بعض الأحيان يُوشِكون أن يفقدوا قدرتهم عليه، فيلجأون للنبي ﷺ يستنصرونه، يطلبون منه أن يدعو لهم أو يدعو على أعدائهم، فيبشرهم بأن الغلبة لحزب الله، وأن المكانة العليا لكلمة الله، وأن الظهور الأكمل لدين الله، وأن نور الله سيتم ولو كره الكافرون، ثم يعيب عليهم العجلة (ولكنكم تستعجلون) .

يجهر الأرقم بإسلامه في هذا الجو المشحون بالغضب والقتامة، ويُقدم داره مقرًا للدعوة التي وهب نفسه لها، ومن وهب نفسه، هل يُنتَظَر منه أن يَبخَل بداره؟ لِتسمى دار الإسلام.

وبعد الأمر بالهجرة إلى المدينة كان الأرقم مع السابقين، وحضر بدرًا والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، أما داره فقد بقيت في مكة، وأقطعه النبي ﷺ دارًا غيرها في المدينة. وبعد الفتح أوقف الأرقم داره على ذريته وجاء في نسختها: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قضى الأرقم في ربعه ما حاز الصفا، إنها محرمة بمكانها من الحرم، لا تُباع ولا تورث، شهد هشام بن العاص، وفلان مولى هشام بن العاص) .

ولم تزل هذه الدار صدقة قائمة فيها ولده يسكنون ويؤاجرون ويأخذون عليها حتى كان زمن ابي جعفر.

قال عمران بن عثمان بن أبي الأرقم: إني لأعلم اليوم الذي وقعت فيه هذه الدار في نفس أبي جعفر.

كان يسعى بين الصفا في حجة حجها، ونحن على ظهر الدار في فسطاط فيمر تحتنا لو أشاء أن آخذ قلنسوته لأخذتها، وإنه لينظر إلينا من حين يهبط بطن الوادي حتى يصعد إلى الصفا.

غضب أبوجعفر على عبدالله بن عثمان بن الأرقم لأمر ما فأمر عامله على المدينة أن يحبسه ويطرحه في الحديد، ثم بعث رجلاً من أهل الكوفة يُقال له شهاب بن عبدرب، وكتب معه إلى عامل المدينة أن يفعل ما يأمره به. دخل شهاب على عبدالله بن عثمان بن الأرقم الحبيس وكان عبدالله شيخًا كبيرًا ابن بضع وثمانين سنة وقد ضجر بالحبس والحديد معًا، فقال له شهاب: هل لك أن أخلصك مما أنت فيه وتبيعني دار الأرقم فإن أمير المؤمنين، يريدها، وعسى إن بعته إياها أن أكلمه فيك فيعفو عنك، قال: إنها صدقة، ولكن حقي منها له، ولي فيها شركاء كثيرون، قال شهاب: إنما عليك نفسك، أعطنا حقك وبرئت، فباع له حقه في الدار بسبعة عشر ألف دينار، ثم تتبع شهاب باقي الورثة ففتنهم بكثرة المال فباعوه، فصارت لأبي جعفر، ثم أعطاها ولده المهدي للخيزران أم موسى وهرون فبنتها وعرفت بها، ثم صارت لجعفر بن موسى، ثم سكنها أصحاب الشتويّ والعدنيّ، ثم اشترى عامتها أو أكثرها غسان بن عباد.

آخى النبي ﷺ بين الأرقم وبين أبي طلحة الأنصاري، وعاش حتى زمان معاوية، ولكنه كان من حزب عليّ، وحضرته الوفاة وكان مروان بن الحكم واليًا لمعاوية على المدينة فأوصى الأرقم أن يصلي عليه سعد بن أبي وقاص، وكان من الذين اعتزلوا الفتنة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان سعد في قصره بالعقيق، فلما مات الأرقم أرسلوا لسعد، وتأخر سعد فقال مروان: أيحبس صاحب رسول الله ﷺ لرجل غائب؟ وأراد أن يتقدم للصلاة عليه، فأبي عبيد الله بن أرقم وقامت معه بنومخزوم، ووقع بينهم كلام، ثم جاء سعد فصلى عليه سنة خمس وخمسين وكانت سن الأرقم بضعًاوثمانين سنة.



شماس بن عثمان

هو عثمان بن عثمان بن الشريد من بني مخزوم، وأمه صفية بنت ربيعة أخت عتبة بن ربيعة.

نزل مكة شماس نصراني، والشماس أحد رجال الدين الذين يخدمون في الكنيسة، وكان هذا الشماس جميلاً جدًا لفت إليه الأنظار وكثر الحديث عن وسامته، فقال لهم عتبة بن ربيعة أنا آتيكم بشماس أجمل منه، وانطلق إلى بيت أخته صفية، واصطحب طفلها عثمان، وذهب به إلى الناس، وكان طفلاً جميلاً فأطلق عليه اسم شماس الذي عرف به بعد.

أسلم قبل الهجرة الثانية إلى الحبشة، فجمع على نفسه عداوة قوم أبيه بني مخزوم، وعداوة قوم أمه بني عبد شمس وكلاهما من الد أعداء الإسلام، لأن بني عبد شمس كانوا يطمعون في زعامة مكة بعد أقوى رجال بني هاشم عبد المطلب، فكانت عداوتهم للنبي ﷺ من قبيل حرصهم على أن تنتقل الزعامة من بني هاشم إليهم، وقد عبّر عن ذلك الحكم بن هشام (أبو جهل) أوضح تعبير في موقف كان أشراف مكة جميعًا على حافة الإسلام.

لقد كان وجهاء مكة مثل أبي سفيان والأخنس بن شريق، وأبي جهل، يتسلل الواحد منهم بعد أن يهجع الناس بالليل فيذهب إلى جوار بيت النبي ﷺ يتسمّع إلى قراءته للقرآن الكريم، فإذا انصرف أحدهم التقى برفيقيه فيتلاومون، ويتعاهدون على عدم العودة إلى ذلك، ثم ينقض كل واحد منهم عهده ويغير الوقت فيذهب ويلتقون ويتم بينهم مثل ما تم فيما سبق، تكرر هذا أكثر من مرة، حتى كان يوم أخذ الأخنس بن

شريق عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج الأخنس من عند أبي سفيان حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه، فقام الأخنس من عنده.

لم تكن الخصومة لعدم قناعتهم بدين الإسلام، وإنما لأن الداعي هو محمد أحد بني هاشم، ومن يناصره فهو ينصره على عشيرته، ومن يخرج على العشيرة فهو عدوٌّ لا ترحمه ولا يتوقف إيذاؤها له.

أما أهل أمه بنو مخزوم فهم أهل القيادة والسلاح في مكة وتلك مكانة لا يحبون أن يخسروها، وإذا كان لابد من نبي فكان ينبغي أن يكون منهم ﴿**وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ (الزخرف ٣١)، وإحدى القريتين مكة، والعظيم الذي يعنون هو الوليد بن المغيرة، وقد رد الله عز وجل بأن النبوة رحمة، وهي اصطفاء من الله عز وجل ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ (الزخرف ٣٢). هاجر شماس ﷺ إلى الحبشة في الهجرة الثانية، ثم هاجر إلى المدينة المنورة ونزل على مبشر بن عبد المنذر في بني عمرو بن عوف، وآخى النبي ﷺ بينه وبين حنظلة بن عامر غسيل الملائكة وجليسهم في الجنة.

يعرف كل مهاجر أنه مطالب بنصرة دينه في المدينة مثل ما كان ينصره في مكة، ولكنه كان ينصره بمكة في نفسه بالصبر والتحمل، وعدم الانتصار بيده، وفي ذلك جهاد للنفس قد يصعب عليها أن تتحمله، إذ أن النفس الأبية الكريمة على صاحبها تأنف أن تتعرض للمهانة ثم لا تحاول ردّها، ولكنها تخضع لأمر الله ورسوله، فهو قد سلم نفسه لهما وأصبحا أحب إليه من أهله وماله ونفسه التي بين جنبيه.

أما بعد الهجرة المباركة إلى المدينة فقد أصبح من صفاتهم ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**﴾ (الشورى ٣٩). وأذن للمؤمنين بقتال من يقاتلهم ﴿**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ**

اللـه الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إنَّ اللـه لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة ١٩٠).

تتالت سرايا النبي ﷺ وفيها تم تأهيل المسلمين على مواجهة أهليهم وذويهم، فهؤلاء حزب اللـه، وأولئك حزب الشيطان وإن كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

وفي بدر كانت ذروة الانفصام بين المسلمين والكافرين، وأبلى شماس مثل ما أبلى الأباة المجاهدون من المهاجرين والأنصار، ورأى ظل الجنة تحت ظلال السيوف، وسمع صهيل خيول الملائكة، وصليل سيوفهم وآثار فعلهم وهم يضربون الكفار فوق الأعناق، ويضربون منهم كل بنان.

وفي أحد اتجهت همة المشركين للقضاء على النبي ﷺ فأعدوا له الكمائن، وحفروا له الحفر، وجندوا له الجناة، وعلم المسلمون ذلك فأخذوا على أنفسهم أن يموتوا دونه، وأن يفتدوه بأرواحهم، فكانت موجات القتلة تتدافع على مكان النبي ﷺ، وكانت مواكب الشهداء ترتفع هامتهم وهم يسقطون دفاعًا عن نبيهم ودينهم لكي تكون كلمة اللـه هي العليا.

يصف رسول اللـه ﷺ شماسًا في أحد فيقول: ما وجدت لشماس بن عثمان شبيهًا إلا الجُنة أي الدرع أي أن شماسًا كان في دفاعه عن النبي ﷺ مثل الدرع الذي يتلقى الضربات عن يمين وشمال، ومن خلف وقدّام.

كان رسول اللـه ﷺ لا يرمي ببصره يمينًا ولا شمالاً إلا رأى شماسًا في ذلك الوجه أو ذاك، يذبُّ بسيفه حتى غشّي رسول اللـه ﷺ بالمشركين، فجعل نفسه ترسًا دونه حتى أصيب شماس إصابة قاتلة، فحمل إلى المدينة وبه رمق، وأمر النبي ﷺ أن يكون في بيته فأدخل إلى بيت عائشة رضي اللـه عنها، فقالت أم سلمة زوج النبي رضي اللـه عنها: ابن عمي يدخل على غيري؟ فقال رسول اللـه ﷺ: احملوه إلى أم سلمة، فحمل إليها فمات عندها.

مكث شماس في بيت النبي ﷺ يومًا وليلة، ولكنه لم يذق شيئًا، ولم يصلّ عليه رسول اللـه ﷺ ولم يغسله، بل أمر بحمله إلى أحد فدفن هناك في ثيابه التي مات فيها، وكانت سنه أربعًا وثلاثين سنة رضي اللـه عنه.





سالم بن عمير

أوسيٌّ من بني عمرو بن عوف، ويكنى: أباسلمة، أسلم مع مصعب بن عمير، وكان فقيرًا، فلم يؤثر أن رسول الله ﷺ آخى بينه وبين أحد من المهاجرين. وكان في المهاجرين فقراء، وكان في الأنصار فقراء كذلك، وكان في هؤلاء وأولئك من يتوقد ذكاء، ويشتعل عاطفة، ويتفجر حيوية، وأبواب العمل محدودة أمامهم، فكان البحث عن مصدر للرزق من شأنه أن يحرمهم علمًا يمكن أن يحصلوه، أو عبادة ينتفعون بها، أو اجتهادًا يرتفعون به إلى الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين.

لم تكن تلهيهم تجارة أو بيع، ولم يحزنوا على مافاتهم من الدنيا، فأمر النبي ﷺ ببناء صفة في مسجده المبارك يأوي إليها فقراء المسلمين إبقاء عليهم وصونًا لهم، وكان النبي ﷺ يقول لأصحابه: من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث من أهل الصفة، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، وكان أبوبكر رضي الله عنه يذهب بالثلاثة وينطلق النبي ﷺ ومعه عشرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر بي رسول الله ﷺ فقال: أباهر؟ فقلت: لبيك يارسول الله، قال: إلحق بأهل الصفة فادعهم، وأهل الصفة هم أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها.

وعن طلحة بن عمرو قال: كان الرجل إذا قَدِمَ على النبي ﷺ وكان له عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة، قال: وكنت فيمن نزل الصفة فوافقت رجلاً وكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مدٌّ من تمر بين رجلين.

أخبر أبوعلي الجهني أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخرّ رجال من قامتهم في صلاتهم لما بهم من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب إن هؤلاء مجانين. وقال أبوهريرة: كان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحد منهم رداء له وحده.

وعن الحسن: جاء رسول الله ﷺ إلى أهل الصفة فقال: كيف أصبحتم؟ قالوا: بخير، فقال رسول الله ﷺ: أنتم اليوم خير، وإذا غدى على أحدكم بجفنة وريح بأخرى، وستر أحدكم بيته كما تستر الكعبة، فقالوا: يارسول الله، نصيب ذلك ونحن على ديننا؟ قال: نعم، قالوا: فنحن يومئذ خير، نتصدق ونعتق، فقال: لا، بل أنتم اليوم خير، إنكم إذا أصبتموها تحاسد؟، وتقاطعتم، وتباغضتم.

وعن عقبة بن عامر: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن بالصفة فقال: أيكم يُحب أن يغدو كل يوم إلى بطحاء مكة والعقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم، فقلنا: يارسول الله، كلنا نحب ذلك، قال: أولا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم آية أو آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل.

وعن أبي سعيد الخدري قال: أتى علينا رسول الله ﷺ ونحن أناس من ضعفة المسلمين، ورجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا، ما أظن رسول الله ﷺ يعرف أحدًا منهم، وإن بعضهم ليتوارى في بعضهم من العرى. فقال رسول الله ﷺ بيده فأدارها شبه الحلقة فاستدارت له الحلقة، فقال: بم كنتم تراجعون؟ قالوا: هذا رجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا، قال: فعودوا لِما كنتم فيه، ثم قال: الحمدلله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم.

وقال لهم: هل تدرون أول من يدخل الجنة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فقراء المهاجرين الذين تتقي بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره لم يستطع لها قضاء، فتقول الملائكة: ربنا نحن ملائكتك وخزنتك ومكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا، فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئًا، تتقى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره لم يستطع لها قضاء، فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. ثم قال النبي ﷺ: يرفع الله بهذا العلم أقوامًا فيجعلهم قادة يُقْتدى بهم في الخير، وتُقتص آثارهم، وتُرمق أعمالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم.

مع هؤلاء الفقراء العلماء الحكماء عاش سالم بن عمير، فإذا دعا الداعي للجهاد كان رهبان الليل فرسان النهار، شهدت بدر بطولتهم، وشهدت أُحد بسالتهم، ولم يتخلف سالم عن مشهد مع رسول الله ﷺ.

ثم يكتب سالم وسامًا آخر أسبغه عليه القرآن الكريم إذ صار من البكّائين. في رجب سنة تسع من الهجرة أمر النبي ﷺ أن يتهيأ المسلمون لغزو الروم في تبوك، في زمان عسرة وشدة حر، وجدْب، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في الثمار والظلال ويكرهون الرحلة، أمرهم الرسول بالخروج، وبين لهم كثرة العدو وبُعد الشُقة، وحض الناس على النفقة، فاعتذر المنافقون، وثبط المعوقون ﴿وَقَالُواْ لا تَنفِرُواْ فِي الْحَرِ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة ٨١). وجعل أهل الغنى يحتسبون نفقتهم عند الله عز وجل، ويحملون من يستطيعون حمله من الفقراء، لكن سبعة من الأنصار منهم سالم بن عمير لم يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه، فغلبهم الحزن وفاضت عيونهم بالدمع لأنهم لا يملكون ما ينفقون على أنفسهم للجهاد في سبيل الله، وعلم المولى عز وجل صدق نيتهم وأشاد بهم ورفع عنهم الحرج في قوله عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لله وَرَسُولِهِ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيل، وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة ٩١). فقد ذكرهم الله عز وجل في إطار قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾، ثم خص الله عز وجل سالم بن عمير ورفاقه البكّائين بآية كاملة في قوله تعالى: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة ٩٢).

ولكن سالم ينهض مكان كتيبة وحده إذا كان الأمر لا يقتضي منه نفقة بالمال، وإن اقتضى إنفاق الروح، والتضحية بالنفس، فأبوعفك كان أحد بني عمرو بن عوف وكان من أكبرهم سنًا وأشدهم تأثيرًا وقد ظهر نفاقه، وأعلن محاربته لله ورسوله، وأكثر من ذلك في شعره، ومن قوله:

لقد عشت دهرًا وما إن أري	من الناس دارًا ولا مجمعا
أبر عهودًا وأوفى لمن	يعاقد فيهم إذا ما دعا
من أولاد قيله في جمعهم	يهد الجبال ولم يخضعا
فصدّعهم راكب جاءهم	حلال حرام لشتىً معا
فلو أن بالعز صدّقتمُ	أو الملك تابعتم تبّعا

بنو قيلة هم الأنصار.

فقال رسول الله ﷺ: من لي بهذا الخبيث، فخرج سالم بن عمير أخو عمرو بن عوف أحد البَكّائين، وأذن له رسول الله ﷺ فقتله، فقالت أمامة النهدية أو المزبرية:

تكذّب دين الله والمرء أحمدا … لعمر الذي أمناك أن بئس ما يُمني

حباك حنيف آخر الليل طعنة … أبا عفك خذها على كبر السّن

وعاش رضي الله عنه حتى مات كريمًا في زمان معاوية.



عبدالله بن زيد بن عاصم

من العسير أن تتحدث عن عبدالله بن زيد فتفصله عن أبويه وإخوته، فقد كانوا مثل الكل في واحد، عقد فريد الجواهر، لكن هذه الجواهر ليست منظومة في خيط مهما كانت شدته، وإنما هي ملتحمة التحامًا لا يمكن التفريق بينها أبدًا حتى تصل إلى جنة المأوى، وتستقر في عليين، وما أدراك ما عليون؟ كتاب مرقوم يشهده المقربون.

وإن تعجب فعجبٌ أن تكون عائلة كلها من المقربين بدعوة خير المرسلين وإمام المتقين. أبوه زيد بن عاصم النجاري، وأمه نسيبة بنت كعب المازنية أم عمارة، ومن يطيق ما تطيقين ياأم عمارة؟ وأخوه حبيب بن زيد، كل واحد منهم أمة وحده، وهم جميعًا قلب واحد، وشعور واحد، وهدف واحد، ومآل واحد.

أسلموا جميعًا حين أضاء أول شعاع من الإسلام جوانب المدينة، ورحلوا جميعًا إلى مكة يتحرقون شوقًا لرؤية رسول النور الإلهي الذي نعموا به، ويأملون معه بنعيم أعظم. مضى ثلث الليل، ورقدت مكة، ولكن أطيافًا نورانية تسري متدثرة بظلام الليل، مسرعة الخطى نحو العقبة. وهناك في الشعب وقف الأنصار في مهابة وجلال يُشهدون رب الأرض والسماء على الوفاء له ولنبيه ولدينه، ووثق البيعة عبدالله ووالداه وأخوه.

لم يحضر منهم بدرًا إلا عبدالله على خلاف بين كُتّاب المغازي ثم مات زيد وتزوجت نسيبة غزيّة بن عمر، حتى كان أحد كانت هناك نسيبة وزوجها وعبدالله. كانت الريح مواتية للمسلمين، ولكن بعض الرماة أقبلوا على متاع الدنيا وعصوا وصية أبي القاسم ﷺ، فيقبل عليهم العدو مجمعًا فلوله بعد أن اتخذت طريق الهرب، فانقلب النصر خذلانًا، وفر الأبطال المغاوير لا يلوون على شيء، والمشركون يحيطون بالرسول

ﷺ من كل صوب، وفي أيديهم أسلحة فاتكة، وفي قلوبهم أحقاد مظلمة، وفي عقولهم عناد لا يقف أمامه شيء، وارتفع لواء النبي ﷺ يطلب من المؤمنين جزاء هدايتهم، ودليل إيمانهم، ورعاية عهودهم.

مات حمزة ومصعب وابن جحش والصناديد، وثبت حول اللواء عدد لا يزيد عن عشرة، يزن إيمان الواحد منهم أمة بأسرها، وارتفعت منهم صيحات التوحيد كأنها صوت جيش خميس لجب، ومن هؤلاء نسيبة، وزوجها غزية، وابنها عبدالله.

كان الشهداء يتساقطون أو يتصاعدون واحدًا إثر واحد، فألقت نسيبة سقاءها حين هُزِم المسلمون واستلت سيفًا ووقف الثلاثة دون رسول الله ﷺ، فقال عنها: (ما التفت يمينا ولا شمالاً إلاّ وأنا أراها تُقاتل دوني)، ومر أحد المنهزمين وفي يده ترس فقال له: (ألق ترسك إلى من يُقاتل)، فألقى ترسه فأخذته أم عمارة.

اشتبكت مع فارس مشرك فنادى النبي ﷺ على عبدالله وقال له: أمك.. أمك، فعاونها ابنها حتى قتلته. جُرِحَ عبدالله جرحًا بليغًا في عضده الأيسر، فسال الدم ولم يتوقف فطلب منه النبي ﷺ أن يعصب جرحه فأقبلت نسيبة وربطت جرح ابنها ثم قالت: انهض فضارب القوم، والرسول يقول لها: ومن يُطيق ما تُطيقين ياأم عمارة.

وأقبل عبدالله إلى جانب النبي ﷺ فقال: ابن أم عمارة؟ قال: نعم، قال: ارم، قال: فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو على فرس فأصبت عين الفرس حتى هوى هو وصاحبه، وجعلت أعلوه بالحجارة حتى رميت عليه حملاً.

وجُرِحَت نسيبة ثلاثة عشر جرحًا، والرسول ﷺ يقول لابنها عبدالله، اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت، رحمكم الله أهل بيت. سمعت نسيبة صوت النبي ﷺ والدم يتفجر منها انفجارًا فصاحت: أدع الله أن نرافقك في الجنة. فأجابها النبي ﷺ: اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة، فهتفت نسيبة: لا أبالي ما أصابني من الدنيا. شهد عبدالله وأمه وأخوه حبيب كل غزوات النبي ﷺ وبايعوا تحت الشجرة.

كان حبيب أحد رسل المسلمين إلى مسيلمة قبل حرب اليمامة، ولكن كذاب اليمامة لم يرع حرمة الرسل فسأل حبيب، أتشهد أن محمدًا رسول الله، قال حبيب: أشهد، فقال مسيلمة: أتشهد أني رسول الله، فقال حبيب: لا أسمع، فأمر مسيلمة بقطع أحد أعضائه ثم سأله فأجاب ثانيًا مثلما أجاب أولاً، وظل على هذه الحال حتى مات حبيب ﷺ ولكن أمه مازالت وأخوه عبدالله، وقد نذرت نسيبة أن ترى مقتل الكذاب.

اشترك عبدالله في قتل مسيلمة، وقُطِعَت ذراع نسيبة، وتحملت آلامًا رهيبة كان يخفف منها فرحها بنصر الله تعالى، ووفاؤها بنذرها، وثأر عبدالله لأخيه من مسيلمة.

بقي عبدالله مجاهدًا يطلب الشهادة ويكتب الله له الحياة، وانتهى عهد الخلفاء الراشدين وانتقلت الخلافة إلى بني أمية، وانتهى عهد معاوية، وتولى يزيد الأمر ورفض أهل المدينة بيعته، فأرسل إليهم رجلاً شديد القسوة قليل الاحترام لأصحاب النبي ﷺ، وهو مسلم بن عقبة، فقتل الرجال واستباح النساء، واجتمع صحابة النبي ﷺ على رأس جيش من أهل المدينة وفي مقدمتهم عبدالله بن زيد، والتحم الجيشان، وشاء الله أن ينتصر مسلم، وجالت خيول بني أمية تقتل وتنهب وتعتدي على الحرمات.

كان عبدالله بن زيد شيخًا كبيرًا فاشفق عليه بعض أهل المدينة فطلبوا منه أن يعلن لمسلم بمكانته من النبي ﷺ فلعله أن يجد أمانًا بسبب ذلك، فقال: والله لا أقبل لهم أمانًا، ولا أبرح حتى أُقتل (لا أفلح من ندم) . فأقبل عليه أحد رجال مسلم من أهل الشام وهو يقول: والله لا أبرح حتى أقتلك، فقال له عبدالله: ذلك شرّ لك وخير لي. وضربه الفاجر بفأس في يده، فسطع من جرحه نور صعد إلى السماء، وكان عبدالله صائمًا.

ومر مسلم بن عقبة بين الجرحى فأجهز عليهم، حتى إذا وصل إلى عبدالله بن زيد جز رأسه عن جسده، ثم قال ساخرًا: ما أرى هؤلاء إلا من أهل الجنة. وقد صدق وهو كذوب، لأن النبي ﷺ سأل المولى عز وجل أن يجعلهم رفقاءه في الجنة، وحسن أولئك رفيقًا.





خلاد بن سويد

أبوه من بني مالك الأغر، وأمه عمرة من بـني الحـارث الخزرجـيّ، وابنـه خـلاد بـن السائب صاحب النبي ﷺ، وزوجته ليلى بنت عُبادة، أخت سعد بـن عُبـادة، فقـد أحيـط بالمكارم من كل جانب حتى بلغ هو شأوًا فيها لـم يصل إلى علمنا أن أحدًا بلغـه. إذ قـال عنه النبي ﷺ إن له أجر شهيدين.

أسلـم حين بلغه خبر الإسلام، وما كان له إلا أن يُسلم، فإن فطرته الخـيرة تنسـجم مع الخير حيث كان. شهد أول تكوين لدولة إسـلامية تتعـدد فيهـا الأقـوام والملـل، ورأى الوثيقة التي تـم فيها التعاقد بين المسلمين وغير المسلمين من أهل المدينة فلـم تغمـط أحـدًا حقه، ولـم تظلـم أحدًا من الرعية في نفسه ولا ماله ولا تعبّده مهما اختلف مع الإسلام.

أعطت الوثيقة لهم كل حقوق المواطنة، ومنحتهـم حريـة واسـعة في كـل شـيء إلا محاربة الإسلام ورجاله، فالإسلام هو الدين القيـم، والمسـلمون هـم الظـاهرون. وجـاء في هذه الصحيفة (إن يهود بني عوف أمة مـع المؤمنـين، لليهـود دينهـم، وللمسـلمين دينهـم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلـم وأثم فإنه لا يوتغ [يهلك] إلا نفسه، وأهـل بيتـه، وإن الـبر دون الإثم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بـإذن محمـد ﷺ، وإن على المسلمين نفقتهم، وعلى اليهود نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حـارب أهـل هـذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لـم يـأثم امـرؤ بحليفـه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهـل هـذه الصحيفـة، وإن الجـار كـالنفس غـير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كا ن بين أهـل هـذه الصحيفـة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ، وإن اللـه على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبـرّه، وإنـه لا تُجَـار قريـش ولا مـن نصرهـا، وإن بينهـم

النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل إناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم) .

وعددت الصحيفة أسماء قبائل العرب وقبائل اليهود، ثم جاء فيها كما في رواية ابن إسحاق: (إن البر دون الاثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد ﷺ.

صحيفة حفظت حقوق الإنسان مهما كان جنسه ودينه، فالبر مع غير المسلم فريضة ما دام لم يقاتلنا في الدين ولم يخرجنا من ديارنا، ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة ٨).

يأمرنا الله ورسوله بالبرّ والعدل مع غير المسلمين مع علمه بشدة عداوتهم للمسلمين، وكراهيتهم لدينهم، ورغبتهم في فتنتهم حسدًا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة ١٠٩).

المسلم الذي اتصل حبله بالله عز وجل واثق من أن عين الله تكلؤه، وهذه الثقة تدعوه إلى أن لا يتخذ من أعداء الله أولياء، وأن يعلن براءته منهم، وبغضه لعقيدتهم، ولكنه يبر بهم ما لم يقاتلوه، ويهادنهم ما لم يعملوا على إخراجه من دياره، أو استلاب ماله، أو الاعتداء على عِرضه، أو خيانته مع أعدائه، أو نقض عهودهم معه.

وقد فعل اليهود ذلك كله مع المسلمين، فنقضوا عهودهم مع النبي ﷺ، وحاولوا الاعتداء على حرمات المسلمين. حدث ذلك مع بني النضير، وبني قينقاع، وليس ذلك بجديد عليهم فهم ما لُعِنوا على لسان داود عيسى بن مريم إلا بسبب عصيانهم وعدوانهم، وسوء فعالهم، ثم تمالأ يهود بني قريظة مع المشركين ضد المسلمين، ونقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا، حين زاغت الأبصار، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وظن الناس بالله الظنون إلا من اطمأنت قلوبهم بالإيمان، فإنهم يعلمون أن الله يبتلي لِيُمحص ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ

وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إلا إيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب ٢٢).

نصر الله المسلمين فرد الأحزاب على أدبارهم، وأخزى الله عز وجل بني قريظة، فجاء أمر الله لنبيه ﷺ بالتوجه إليهم، وصدر البلاغ النبوي (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة) . وانطلق أهل الخندق بغبارهم ومعاناتهم إلى بني قريظة، ومعهم خلاد بن سويد الذي لم يتخلف عن مشهد من مشاهد العزة والجلال، وهناك في بني قريظة كان موعده مع الجنة. ألقت عليه امرأة يهودية قاسية القلب شأن قومها حجرًا أسكنه الجنة، وقد حسبت أن أحدًا لا يراها، ثم خرجت من بيتها حتى أتت إلى عائشة أم المؤمنين تتحدث وتضحك، ولكن جبريل أتى بخبرها للنبي ﷺ.

روى عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (لم يقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تتحدث معي وتضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق إذ هتف هاتف باسمها، أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت لها: ويلك مالك؟ قالت: أقتل، قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته، قالت: فانطلق بها، فَضُرِبَت عُنقها، فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنس عجبًا منها، طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تُقتل.) ، وهي التي طرحت الرحا على خلاد فقتلته.

جاءت أم خلاد إلى النبي ﷺ يوم قُتِل ولدها وهي منتقبة، فقيل لها: ياأم خلاد، قُتِل خلاد وأنت منتقبة؟! قالت: إن كنت رزئت خلادًا فلا أُرزأ حيائي، فَأُخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: أما إن له لأجر شهيدين، فقيل: ولم ذاك يارسول الله؟ فقال: لأن أهل الكتاب قتلوه.





بشير بن سعد

أبوه وأمه من بني مالك الأغر من أشراف يثرب، وزوجته عمرةُ بنت رواحة أخت الشاعر المجاهد الشهيد عبد الله بن رواحة. وهو من الكمَلة (جمع كامل) وهو لقب كان العرب يطلقونه على من يحسن الكتابة والسباحة والرمي في الجاهلية، وكان من يحسن الكتابة بينهم قليلاً. وولده الصحابي الشهير راوي أحاديث النبي ﷺ النعمان بن بشير.

أسلم في بيت أسعد بن زرارة مع مصعب بن عمير وشهد العقبة الثانية مع السبعين.

واستقبل النبي ﷺ في قباء، وشهده في منزل كلثوم بن الهدم، وجلس إليه يستمع إلى حديثه في بيت سعد بن خيثمة الذي كان يسمى (بيت العزاب) .

لم يغب عن مشهد من مشاهد النبي ﷺ منذ بدر، فما تخلف وما ضعف، وما فرّ، وما ولى المشركين دبره حتى في أوقات العسرة.

وكان من الثابتين في أحد بعد أن أشيع أن النبي ﷺ قد قتل، وانكشف المسلمون وولوا الأدبار، وسمع أنس بن النضر عم أنس بن مالك وهو يصيح بأعلى صوته: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين) ثم صاح أنس وهو يخاطب سعد بن معاذ: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، ثم هجم أنس وقد استعرت الحرب وصارت هولاً مقيمًا وهو كالجبل الأشم.

ما زال صائح قريش ينادي، قتل محمد فلم يهن الثابتون المخلصون، ورأى أنس بن النضر رجالاً من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله فصاح فيهم: فماذا تصنعون بالحياة من بعده، فموتوا على ما مات عليه.

كان البشير بن سعد مع هؤلاء الصامدين مثل أنس بن النضر وأبي دجانة، وسهل بن حنيف وشماس بن عثمان، والحارث بن الصمة ونسيبة بيت كعب وعبد الله بن زيد، وغير هؤلاء، ولم يكن من الذين يصعدون ولا يلوون على شيء والرسول يدعوهم في أخراهم.

لقد كان في أحد بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، إذ أن الله عز وجل بصّرهم بأن نصره لهم موقوف على نصرهم له، ﴿إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد ٧). ونصرهم لله يكون باستجابتهم لأمر النبي ﷺ وأخذهم ما آتاهم، وصرف هممهم إلى الوفاء بالتزامهم نحوه، فإذا استزلهم الشيطان، وغفلوا عن الله، وشغلتهم الدنيا فسوف يتخلف نصر الله عز وجل لهم.

إن الله تعالى لم يربط نصره للمسلمين بكثرة في العدد، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. ولم يرتب نصره لهم بكثرة الأسلحة والعتاد، فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.

على مدار التاريخ والكفار أكثر عددًا من المسلمين، وأقوى عدّة وأعلى تدريبًا، وأكثر تنظيمًا منذ آدم عليه السلام وإلى سيدنا محمد ﷺ. وعلى مدار التاريخ يتحقق نصر الله عز وجل للمؤمنين ما وجهوا وجوههم له، وأذلوا أعناقهم لعزته، وباعوا أنفسهم وأموالهم لسلطانه، عند ذلك يكون سلطانه لهم، وتكون عزته لقلتهم، وتكون قوته لضعفهم، فإذا هم الأقوياء الأعزة المنتصرون أو الشهداء، وهم رابحون في الحالين معًا، وقد استزل الشيطان بعض أصحاب أحد ولكن الله عفا عنهم، وخاض المنافقون لتثبيط عزائم المؤمنين وبث بذور الفرقة والخلاف وعدم الثقة بوعود الإسلام للمؤمنين به، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ، وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۞ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّو كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ، واللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۞ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران ١٥٥-١٥٨).

عرف النبي ﷺ لبشير بلاءه وثباته، فأرسله في سرية من ثلاثين رجلاً إلى بني مرة بفدك، لكن المريين كانوا على أهبة كاملة فقاتلوا قتالاً مريرًا، وصمد بشير صمودًا عظيمًا وتحلق حوله المريون وناشوه بسيوفهم من كل جانب فسقط وسط الشهداء من رجاله،

ولكنه لم يزل به حياة ولم يشعر أعداؤه بذلك بل إنهم احتفلوا وفرحوا كثيرًا لزعمهم أنهم قتلوه، وعندما جنه الليل تحامل حتى وصل إلى بيت واحد من اليهود ـ لم يعلم أمره ـ فطبّبه وأطعمه وأواه أيامًا رجع بعدها إلى المدينة حيث احتفل المسلمون بعودته.

ما إن استرد بشير عافيته حتى أشار أبو بكر وعمر على النبي ﷺ أن يرسله لحرب عيينة بن حصن الفزاري فأمّره على سرية من ثلاثمائة رجل إلى يمن وجبار بين فدك ووادي القرى وكان قد تجمع بها ناس من غطفان مع عيينة، فلقيهم بشير وفض جمعهم وظفر بهم وقتل وسبى وغنم، وهرب عيينة وأصحابه في كل وجه.

في عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة استعمل النبي ﷺ بشير بن سعد على السلاح.

استمر بشير في مسيرة الجهاد بعد النبي ﷺ، وكان مع خالد بن الوليد في موقعة عين التمر على موعد مع الشهادة، ولقاء حميم مع الملإ الأعلى حيث الروح والريحان ورب غير غضبان.





معن بن عدي

ابن الجد بن العجلان من قضاعة، أحد الكملة الذين كانوا يكتبون في الجاهلية حيث الكتابة قليلة. شهد العقبة مع الأنصار السبعين.

آخى النبي ﷺ بينه وبين البطل الهمام الورع التقيّ الشهيد زيد بن الخطاب. الأخوة التي ربط بها النبي ﷺ بين قلوب أصحابه كانت تنظيمًا جديدًا للحياة في مجتمع جديد على الكون كله، ليس له مثل يحتذيه في عصره.

لقد وُجدَ هذا المجتمع ليبرز فساد المجتمعات المعاصرة له، والتي ينظر إليها على أنها النموذج والمثلَ في التمتع بزهرة الحياة الدنيا، وقيمتها تُعتبر في نظر البدوي أقصى ما يصل إليه نظره، وغاية ما يطمع إليه فكره. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد ١٢).

تحكمت الأثرة في النفوس، وأنشبت مخالبها في أواصر الإنسانية فمزقتها شر مُمزَّق، فإذا الإنسان يلهث من الجري وراء المتاع ليجمعه من فم أخيه أو ابن جلدته أو من غريب عنه، ويلهث من البطنة لرغبته في أن يتمتع بكل ما جمع قبل أن يدركه الموت، ويأرق ليله وهو يحيك المكائد، أو يتألم من الحقد والحسد، أو يتميز من الغيظ لأن غيره جمع أكثر منه أو شيد أعلى أو أكل أغلى، ثم هو بعد ذلك لا يشبع، وإحساسه بالحاجة يزداد كلما ازداد ما في حوزته. فالعامل يسعى ليكون وزيرًا، والوزير يسعى لسيتأثر وحده بتصريف الأمور حتى تكون لصالحه، والأمير يقتل الملك الذي ربما هو أخوه أو أبوه أو عمه.

والنفاق يستشري من أجل تحقيق المآرب وشراء الذمم بالمال أو الأعراض، قانون يأمر به الجميع من علية القوم وسفلتهم، وبطانة السوء تصاحب الرعاة صغروا أم كبروا،

تزين له، وترضي غروره ليرضي أثرتها وجشعها. ومن أجل الأثرة وفي سبيلها تمهد الطرق ليسهل تدفق الأموال، وتتم السيطرة على مصادر الثروة.

ولإرضاء شهوات النفس تُقام المباني وترتفع وتتسع لكي تعوض ضيق الصدور، وتلتف بالأضواء للتغلب على ظلمات النفوس، وتضج بالموسيقى والغناء والضوضاء لتخفي كآبة القلوب، ويتم الجهر بالفواحش حتى تستر تبلد المشاعر، ويُستذل البشر ويُستعبدون حتى لا ينمو الإحساس بالتفاهة وقلة الحيلة.

يأتي البدوي من جزيرته القاحلة الجرداء، التي رسمت تجاعيدها على ملامح وجهه، وعلى صفحة قلبه، فيرى شوارع واسعة، ومباني فسيحة واسعة، وحدائق غناء، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، وحياة يراها ناعمة، وأجسادًا ممتلئة لحمًا وشحمًا، ويرى نفسه محرومًا من ذلك كله، فالشمس سفعت جسده بأشعتها القاسية، والصحراء تذرو رمالها على جسده وثوبه، والجوع جعله خميص البطن، نافر العروق، يأوي إلى تلك الخيمة التي تخفق الرياح فيها من كل جانب، أو إلى تلك الدار التي تنام فيها ناقته بجواره، وتفصل العنز بينه وبين زوجته.

يرى البدوي ذلك فيغبط هؤلاء الناس على حياتهم، ويتمنى لنفسه أن يتمتع بمثل ما يتمتعون به، ويعتقد أن حياته ستكون أفضل إذا سارت على نمط حياتهم، فتجده يقتبس من صفاتهم، ويحمل من خمورهم وملابسهم، ويقتني من إمائهم ليطرب بهم ويستمتع.

لكنه حمل مع هذه الأمور جشعًا وأثرة، وحرصًا على أن يعبّ ما يستطيع ولو على حساب أقرب الناس إليه، فضاعت المحبة من قلوب الناس، وحل محلها الكراهية والحقد والعداوة.

كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ترسي قيمًا جديدة حل الإيثار فيها محل الأثرة، وأصبح مجال الأثرة هو الآخرة وليست الدنيا، فالسعي للدنيا كان الأمر من الله بلفظ ﴿**فامشوا**﴾ بينما العمل للآخرة كان الأمر بلفظ ﴿**وسارعوا**﴾، و ﴿**سابقوا**﴾، و﴿**لمثل هذا فليتنافس المتنافسون**﴾. هذا التغير في المنظور إلى الدنيا التي هي طريق إلى الآخرة أزال كل أسباب التوتر والقلق، ومحا كل صور الكراهية والبغضاء، وحطم كل حواجز الانفصام والفرقة، ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (الأنفال ٦٣).

وكانت الأخوة بين معن بن عدي وزيد بن الخطاب أخوة مصافاة حتى فنيا في

صداقتهما وحبهما. كانا معًا في بدر، وكانا معًا في أحد، وكانا معًا في المشاهد كلها حتى حصلا على الشهادة معًا.

مات النبي ﷺ وأحس الناس بالفجيعة، وغامت الرؤيا فلم يدر الناس ماذا سيحدث لهم بعد وفاته. سمع معن بن عدي بعض الناس يقولون: (ولله لوددنا أنا متنا قبله، نخشى أن نفتن بعده) ، فقال معن: (إني والله ما أحب أني متّ قبله حتى أصدقه ميتًا كما صدقته حيًا) .

واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يجعلوا الخليفة من بينهم، وأسرع أبوبكر وعمر إلى السقيفة فقابلهم معن في الطريق وقال لهم: (لا عليكم أن لا تقربوهم، واقضوا أمركم) .

في يوم اليمامة وعندما اشتد هجوم بني حنيفة على المسلمين، وانخذل الكثير منهم، فتقدم معن إلى مسيلمة وهو يصيح ياللأنصار كرة كيوم حنين، ثم اندفع وهو يقول (أخلصونا.. أخلصونا) ، فتدافع الأنصار من كل جانب يمتازون عن الناس، وجاوب معن صوت زيد بن الخطاب يحرض المهاجرين على الجهاد فإذا العزائم من حديد حتى أقحموا بني حنيفة إلى حديقة الموت، وكانت الجولة للمسلمين، وقُتِل مسيلمة وكبار قواده، ومات من جنده الكثير، ثم انجلت المعركة عن هزيمة ساحقة للمشركين، ونظر الناس فإذا معن وزيد يتصافيان في الجنة على سرر متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزِفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون.





بشر بن البراء بن معرور

الأبيض الجعد السيد، سديد الرمية، وشهيد الأكْلة. أسلم قبل العقبة، وحضرها مع السبعين برفقة أبيه البراء، ولكنه لم يكن ظلاً، إذ عاد أبوه من العقبة نقيبًا، ورجع بشر من العقبة سيدًا.

تسلل المسلمون من أهل يثرب إلى العقبة حذرين، فهم في مكة، والصراع على أشده بين أهلها المشركين وبين المسلمين.

يقول جابر: اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كان العباس بن عبد المطلب أول متكلم، فقال يا معشر الخزرج - وكانت العرب تسمي هذا الحي من الأنصار (الخزرج) أوسهم وخزرجهم - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

فكان البراء بن معرور أول من تكلم، فحمد الله وأثنى عليه وقال: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وحبانا به، فكنا آخر من دعى وأول من أجاب، فأجبنا رسول الله ﷺ وسمعنا وأطعنا، يا معشر الأوس والخزرج، قد أكرمكم الله بدينه، فإن اخترتم السمع والطاعة والموازرة بالشكر فأطيعوا الله ورسوله.

جلس البراء فقال الأنصار، قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لربك ولنفسك ما أحببت. تكلم النبي ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

أخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزْرنا، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر.

وقال النبي ﷺ: أخرجوا إليّ اثني عشر نقيبًا، فأخرجوا إليه تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

ثم نظر النبي ﷺ إلى بني سلمة بن الخزرج وقال من سيدكم يا بني سلمة؟ فقالوا: الجد بن قيس وإننا لنصفه بالبخل، فقال النبي ﷺ: وهل هناك داء أدوأ من البخل، بل سيدكم الأبيض الجعد، بشر بن البراء بن معرور.

يقول ابن سعد: جاء البراء بن معرور إلى مكة قبل أن يهاجر النبي ﷺ، وكان البراء يستقبل الكعبة في صلاته فأمره النبي ﷺ أن يتجه إلى بيت المقدس قبلة المسلمين حينئذ، ففعل ولكنه عندما حضرته الوفاة قبل الهجرة النبوية بوقت قصير أوصى بثلث ماله إلى النبي - ﷺ، وهو أول من أوصى بثلث ماله في الإسلام، ثم أمر إذا مات أن يوجه في قبره ناحية الكعبة، وقدم النبي ﷺ بعد موته، فقالت أم بشر: يا رسول الله، هذا قبر البراء، فانطلق النبي ﷺ فصف أصحابه وكبّر فصلّى عليه، ثم دعا فقال: اللهم اغفر له وارحمه وارض عنه وقد فعلت.

وآخى النبي ﷺ بين بشر بن البراء وبين واقد بن عبد الله التميمي حليف بني عديّ وأحد السابقين إلى الإسلام.

كان البشر من الرماة المذكورين عند رسول الله ﷺ، ولم يأل في الدفاع عن دينه وجهاد أعدائه في بدر وفي أحد وفيما حضره من المشاهد قبل خيبر.

قال ابن اسحق عن أبي معتب بن عمرو: إن النبي ﷺ قال لأصحابه وأنا فيهم - حين أشرف على خيبر - قفوا، ثم قال: اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله.

ونزل المسلمون بخيبر ليلاً فباتوا وفي الصباح خرج عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش، قالوا: محمد والخميس معه، فأدبروا هربًا، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

وأخذ أهل خيبر السلاح استعدادًا للحرب فرآهم عبد أسود كان يرعى غنمًا فسأل: ماذا تريدون؟ قالوا نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ فأقبل بغنمه فقال: إلام تدعو؟ قال: أدعوك إلى الإسلام، إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وألا تعبد إلا الله، فقال العبد: فماذا يكون لي إن شهدت بذلك وآمنت بالله، قال النبي ﷺ، لك الجنة إن مت على ذلك. فأسلم العبد فقال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسول الله ﷺ: أخرجها من معسكرنا وارمها بالحصى فإن الله سيؤدي عنك أمانتك، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم أن عبده أسلم.

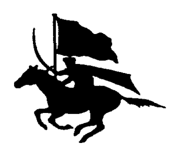
وفي اليوم الأخير في خيبر قال النبي ﷺ لأعطين الراية غدًا لرجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، فأخذ علي راية النبي وفتح الله عليه خيبر، وقتل معه هذا العبد الأسود، فاحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فاطلع النبي ﷺ في الفسطاط، ثم اطلع على أصحابه وقال لهم، لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير، قد كان الإسلام في قلبه حقًا، وقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين.

وأسرع أهل فدك فطلبوا الصلح مع النبي ﷺ، ثم سألت امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم فقالت: أي عضو من الشاة يحبه رسول الله ﷺ، فقيل لها الذراع فأهدت للنبي ﷺ شاة ناضجة ووضعت فيها السم وأكثرته في الذراع، وجلس معه جماعة منهم بشر بن البراء، فتناول النبي ذراع الشاة ونهس منه قليلاً ثم قال: كفوا أيديكم فلا تأكلوا، فإن هذه الذراع أخبرتني أنها مسمومة، ثم سأل اليهودية، ما الذي دفعك إلى هذا، فقالت: لقد بلغت من قومي ما لم يخف عليك، تقصد هزيمته لأهل خيبر وصلحه مع فدك، وأنه أذلهم ونصره الله عليهم، ثم أضافت وهو تمكر وتدور، فقلت إن كان ملكًا استرحنا منه، وإن كان نبيًا فسيخبره ربه، فعفا النبي ﷺ عنها، ولكن بشر بن البراء كان قد بلع القطعة التي أخذها من الشاة فمات من السم، فقتلها النبي ﷺ قصاصًا وترحم على بشر وأعلن أنه شهيد.

في مرض النبي ﷺ الذي مات فيه دخلت عليه أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده بسبب مرضه، فقال لها: يا أم بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر.

قال أبو سعيد بن المعلي: فإنْ كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدًا مع ما أكرمه الله عز وجل من النبوة.





مرثد بن أبي مرثد

شهدته دروب مكة واحدًا من المستهترين الذين أنعم الله عليهم بفتوة الشباب، فبطروا نعمة الله، واستعملوها في غضبه وارتكاب الذنوب، ومقارفة الآثام. لم يكن لأهل مكة عقيدة تُحَرِّم الزنا، وشرب الخمر، ولكن العرف كان يعتبر ذلك استهتارًا يمارسه الأشراف لأن الأشراف في عرفهم من حقهم أن يستهتروا، وإن كانوا يجعلون للاستهتار وقتًا، وللجد وقتًا آخر.

كان للأشراف زوجات وإماء، ولهن كذلك بغايا ينصبن خيامهن الحمراء حتى يعرف الرجال طريقهم إليهن دون حاجة إلى دليل. وكان السهر والقصف وشرب الخمر ومقارفة الزنا ومضاجعة البغايا هي عمل الأشراف، فهم لا يخرجون لتجارة إلا قليلاً لقيادة القافلة، ولا يشتركون في حرب حيث يدبرون هم لإشعالها، ويكفيهم الضعفاء مؤونة القيام بأعبائها، وقتل أنفسهم فداء لسادتهم وكبرائهم الذين أطاعوهم فأضلوهم السبيل، ثم ينال السادة والكبراء نصيبهم من مغانم الحروب فيصطفون أجمل السبايا لأنفسهم، ويتخيرون أكرم الأموال لخزائنهم، ويتركون ما يتبقى منهم للأتباع الذي اصطلوا بنار الحرب، وذاقوا مرارتها، وتجرعوا آلامها.

أما الشباب مثل مرثد وخاصة إذا كان حليفًا فلم يكن العرف يسيغ لهم أن ينعموا بمثل ما ينعم به الكبراء، أو أن يحاكوهم في فسقهم وفجورهم. لكن مرثد الحليف لم يكن يأبه لما يرجف به الناس عن سلوكه، وكان يطمع في أن يكون من الكبراء وهو يعلم أن نسق الحياة العربية يجعل أمنيته عسيرة التحقيق إن لم تكن مستحيلة ولكن مجاراتهم والخوض فيما يخوضون فيه من وحل ليس مستحيلاً، وإنه لأقدر منهم على ذلك بفتوة جسده، وفورة شبابه، وإذا كان المال يمكن أن يشتري وقت البغيّ، فإن الشباب يجعلها

هي التي تلهث وراءه، وتعطيه من نفسها مالا يستطيع مال الشريف الوجيه أن يحصل عليه منها، أو أن يناله من عواطفها.

ولكن تلك النجاسات التي خالطت ثوب مرثد لحسن حظه لم تنفذ إلى وجدانه، ولم تمسك بعواطفه أو تضل عقله فتشغله، ومن ثم فلم يكد يسمع بالإسلام حتى سارع ليعرف عنه، ولم يكد يعرف عنه حتى اعتنقه وتشبث به، فإذا الفتوة صبر على الأذى لا يعتريه وهن، وإذا الحيوية أمل في النفس لا يخبو، وإذا ما ذاق من لذائذ الحياة يُشعره بالظمأ إلى اللذائذ العليا التي ترى العفة شرفًا، والجهاد متعة، والشهادة أمنية عزيزة، والجنة سلعة غالية ترخص النفس في سبيلها.

كان مرثد مثل أبيه سبَّاقًا إلى الإسلام، وكان مع أبيه سبَّاقًا إلى الهجرة، ولكن مرثد القوي الفتيّ رأى أن له دورًا أكبر من أن يُهاجر بنفسه، فالمسلم علَّمَهُ رسول الله ﷺ ليس مسئولاً عن نفسه فقط، وإنما مسئولية الإسلام مسئولية تضامنية يحمل تبعتها كل المسلمين.

أتصور أن الصفحة السوداء في حياة مرثد كانت إعداداً لصحائف ناصعة البياض سجلتها أعماله، وبقيت مشرَعة أمام الناظرين، تُعطي المثل والأسوة للباحثين عنهما، وتُلزم الحجة، وتدمغ المتقاعسين الذين لم ينهضوا لمكرمة، أو يقوموا لنصرة.

لم تكن غير حياة السفه والضياع التي عاشها مرثد قبل إسلامه سبيلاً لمعرفة دروب مكة وخوافي فجاجها وشِعابها بحيث لو عصبت عيناه، أو كان الظلام كثيفًا في ليلة لو أخرج يده لم يكد يراها لاستطاع الوصول إلى أخفى بيت فيها لا يضل عنه خطوة واحدة. لقد اهتدى مرثد إلى وسيلة لاستثمار هذه المعرفة، وهي إنقاذ المستضعفين الأسارى في مكة، وكان المشركون حين نزف المسلمون بالهجرة لا يكتفون بمراقبة الطرق وإرجاع من يحاول الهجرة، ومطاردة من أفلتوا منهم ما وجدوا لذلك سبيلاً ولكنهم أخذوا كذلك بالحزم فوضعوا أيدي وأرجل المسلمين في الأغلال، وحبسوهم في البيوت الخربة، يقدمون إليهم قليلاً من ردئ الطعام، ويصبون عليهم كثيرًا من الأذى، فإمَّا أن يرجعوا عن دينهم، وإمَّا أن يصل الموت إليهم، وإمَّا أن يشقوا في العذاب.

وكان في مكة مسلمون يكتمون إسلامهم، وستر الله عز وجل عليهم فهم يتسمعون أخبار هؤلاء ثم يرسلونها إلى المسلمين في المدينة ليكونوا على دراية بما يُصيب إخوانهم. يسمع مرثد أنباء هؤلاء الأسرى المُعَذَّبين، فيتبع تفاصيلها حتى يحدد له مكان

هذا الأسير أو ذاك فيركب راحلته وينطلق من المدينة إلى مكة، ويترك راحلته خارجها، ثم يتسلل إلى أن يصل إلى الأسير فيتسلق الجدار حتى يصل إليه، وبحذر شديد يُلقي عنه أغلاله، ثم يحمله فيتسلق به الجدار، ثم يهبط به ويُسرع حتى يأخذه على راحلته ويعود به إلى المدينة.

وفي يوم دخل مكة في ليلة قمراء، فكان يتخفى حتى انتهى إلى حائط من حوائط مكة، فأبصرته إحدى بغايا مكة اللاتي كن يعرفنه في جاهليته فاندفعت تجاهه وكان مغرمًا بها كثيرًا وقالت: مرثد؟ فقال: مرثد، قالت: مرحبًا وأهلاً: تعال فبت عندنا الليلة، فقال: ياعناق، إن الله حرم الزنا، راودته عناق عن نفسه وأمعنت في المراودة، وأمعن مرثد في التأبي والرفض، فصرخت بأعلى صوتها قائلة: ياأهل مكة، إن هذا هو الذي يحمل الأسرى من مكة، فتبعه ثمانية رجال، ولكنه أوى إلى كهف، وجاءوا حتى قاموا على رأسه، وأعماهم الله عنه فرجعوا، وعندما أحس بابتعادهم خرج من مكمنه، ورجع إلى صاحبه الذي أراد أن يحمله، وكان ثقيلاً فحمله بأغلاله وقيوده حتى انتهى إلى مكان في أطراف مكة اسمه الإذخر، ففك قيوده، وحمله على راحلته إلى المدينة.

اتى مرثد إلى النبي ﷺ وقال: يارسول الله، أريد أن أنكح عناقًا، فسكت رسول الله ﷺ حتى نزلت الآية الكريمة ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ (النور ٣) فأذهب الله الرغبة في عناق من نفس مرثد، وأغرق نفسه في الجهاد في سبيل الله من أجل نساء الجنة التي لو نزل خمار إحداهن إلى الأرض لخسف نوره نور الشمس والقمر والكواكب، فطلب الشهادة في بدر وأحد، ولكن الله كان يدخره لموقف آخر يمحصه ثم يتقبله ثم يُدخِله الدرجات العلا من الجنة.

روى مرثد عن النبي ﷺ أنه قال: (إن سَرَّكُم أن تُقبل صلاتكم فليؤمكم خياركم، فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم) . في يوم الرجيع كان مرثد أميرًا للسرية المكونة من ستة شهداء، وعندما ساومهم الهذيليون قائلين: إنا لن نقتلكم ولكن سنأخذكم لقريش نصيب بكم منها مالاً أو مكانة، فإن مرثد وعاصم بن ثابت قالا: لن نقدم أنفسنا لكم، وتذكر مرثد موقف رفيقه عاصم في غزوة بدر حين سأله النبي ﷺ: (كيف تقاتلون) ، فقال عاصم: إذا كان القوم قريبًا من مائتي ذراع كان الرمي، فإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت الرماح حتى تتقصف، فإذا تقصفت وضعناهم وأخذنا السيوف، وكانت المجالدة. فقال النبي ﷺ: هكذا نزلت الحرب، من قاتل فليقاتل كما يُقاتل عاصم بن ثابت.

وصاح عاصم وخالد بن البكير ومرثد بن أبي مرثد: والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا، واستلوا سيوفهم، وماذا عسى يفعل ستة أمام أكثر من مائة، وإذا كانوا لا يستطيعون أن يتغلبوا على سيوف هؤلاء فإنهم غلبوهم بقوة اليقين وإباء النفس، وبالشهادة التي تجعل مكانهم عاليًا يوم القيامة، ينظر إليه الناس هكذا.. ورفع رسول الله ﷺ رأسه حتى سقطت قلنسوته.



عقبة بن عامر

جده نابي بن زيد بن حرام، وقومه بنو سلمة. قال عنه ابن الأثير: أعلى قدرًا، وأعظم محلاً، معرق في الأنصار، أحد الستة الذين أسلموا بمكة أول الأنصار، ولم يكن قبلهم أحد.

وهؤلاء الستة هم الذين حملوا أمانة تبليغ الدعوة إلى أهل يثرب، وقد وجدوا آذانًا صاغية عند ذويهم لما يتمتعون به من رجاحة في العقل تجعل حكمهم على الأمور صائبًا، وليس من شك في أن أهل يثرب من العرب كانوا يترقبون إشراق نور الإسلام، وينتظرون خروج النبي العربيّ الذي كان اليهود يبشرون باقتراب زمانه، ويستفتحون به على العرب، أي يهددونهم بأنهم سيؤمنون به أولاً لكي يتمكنوا من الاستئثار بيثرب لأن في كتبهم أن من يؤمن به ويتبعه سوف تكون له الغلبة على خصمه.

على الرغم من عدم توافر الثقة بين العرب واليهود، وما قاساه العرب منهم من جراء حرص اليهود على الثراء، واحتكارهم للتجارة، واستغلالهم للناس، وارتكابهم للموبقات، واستعلائهم على غيرهم، وكذبهم في الحديث، وخلفهم للوعود، وفجرهم في الخصومة، وغدرهم في العهود، وعلى الرغم من الأحقاد التي تملأ صدورهم وتبدو أعراضها في الحسد وحب الوقيعة بين الناس، وسعادتهم بالفرقة والاختلاف، ودعوتهم إليهما، ومكرهم ودسهم لفساد ذات البين في صفوف جيرانهم، وعلى الرغم من شدة يقين العرب في يثرب بأن الشر كله في اليهود، وأن الخير لا يعرف طريقًا إلى قلوبهم، ولا يجد منفذًا إلى أخلاقهم.

على الرغم من ذلك كله وغيره، إلا أن العرب كانوا يعظمون دين اليهود، ويرونه

قبسًا من دين أبيهم إبراهيم الحنيف عليه الصلاة والسلام، والعرب على شركهم وضلالهم يُجلّون الخليل ويعظمونه، ويحجون إلى البيت الحرام تلبية لندائه، ويحرمون الشهر الحرام، ويقدمون القرابين عند الكعبة، ولا ينفقون في الحج نفقة مصدرها الظلم والإغارة، أو السرقة والنهب.

إذا تكلم اليهود في الدنيا لم يكن يصدقهم العرب، ولكن إذا تكلموا في الدين فإن العرب تخشع وتصدق، ولا تترك مجالاً للارتياب في قولهم. فإذا بشر اليهود بدنوّ زمن نبي آخر الزمان صدقهم العرب. وإذا قالت اليهود بأن من يتبع هذا النبي الخاتم ستكون لهم الغلبة على غيرهم، استشرف العرب هذا النبي وحرصوا على أن يتبعوه قبل اليهود لتكون لهم الغلبة القاهرة عليهم.

وعلى النقيض من العرب كان اليهود، لا يثقون فيما بقي لديهم من صحيح العلم، وتعاملوا معه على ديدنهم في الحياة أن يقولوا مالا يفعلون، ويذيعوا مالا يعتقدون، ويستفتحوا بما يكذبون ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٨٩)، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٠١).

كانت اليهود تكذب، وكان العرب يصدقون، على أن يصلهم خبر هذا النبي ممن يثقون به لأن هذا النبأ سوف يترتب عليه مصير الدين الذي يدينون، والحياة التي يعيشون، ونسق القيم التي بها يتخلقون. وليس أدل على ثقة أهل يثرب بعقبة بن عامر ورفاقه من أن الإسلام فشا في المدينة بدعوتهم، حتى طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم من يعلمهم الإسلام، ويُقرئهم القرآن.

مع النبي ﷺ في المدينة كان عقبة بن عامر صاحبًا صدوقًا، ومتعلمًا فاقهًا، ومقاتلاً صنديدًا، يأخذ نفسه بالشدة والجلد، ففي بدر أبلى وأحسن البلاء، وفي أُحد وقد كان القرح، يعلم الأبطال أنفسهم حتى لا تحدثهم بالوهن والخذلان، فيرى الناس منهم ذلك، فعلم أبودجانة نفسه بعصابة حمراء، وعلم عقبة بن عامر السلمي نفسه بعصابة خضراء في مغفره الذي يلبسه تحت القلنسوة.

قال عقبة: جئت رسول الله ﷺ بابني، وهو غلام حديث السن، فقلت: بأبي أنت وأمي، علم ابني دعوات يدعو الله بهنّ، وخفّف عليه، فقال النبي ﷺ: قل ياغلام: اللهم

إني أسألك صحة في إيمان، وإيمانًا في حسن خلق، وصلاحًا يتبعه نجاح.

فهو محب لابنه، يريد له الخير بأن يحظى بمباركة النبي ﷺ، وينال مثل أبيه شرف أن يتعلم منه، وأن يكون ذلك منذ حداثة سنه لينشأ محبًا لله ولرسوله، ومقبلاً على العلم النافع، وهو مشفق عليه لحداثة سنه، فيقول للنبي ﷺ : عَلمه، ثم يلتمس منه أن يخفف، ربما لصغر سنه، وربما لأنه لن يستطيع أن يستوعب الموعظة إذا كانت كبيرة، وهو يرغب أن لا يضيع من ابنه شيء من عظات النبي ﷺ.

شهد عقبة كل المشاهد مع رسول الله ﷺ، لأن التخلف عصيان لأمر الله تعالى للمؤمنين أن ينفروا خفافًا وثقالاً ﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة ٤١).

والتخلف من ناحية أخرى علامة على كره الله للمتخلفين حتى لا ينسبوا إلى شرف لا يستحقونه، وقد يكون في خروجهم تفريق لكلمة المسلمين، ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ۝ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة ٤٦-٤٧).

وفي السبق للإسلام وشهود العقبة، وفي شهود بدر وأحد عصمة من الضلالة والظلم، وحائل قوي دون المؤمن وكراهية الله عز وجل له. ولئن مات النبي ﷺ فإن دعوته باقية يذود عنها صحابته، فيدفعون المرتدين، ويدعون الضالين، ويجاهدون الكافرين، تساميًا إلى ذروة الأمر، فالجهاد ذروة سنام الإسلام، وكان في اليمامة موعده شهيدًا تعلقت روحه بأغصان الجنة طائرًا واضح البهاء، مشرق الضياء، عظيم الرواء.





أبواليسر

كعب بن عمرو بن عباد من بني سلمة. شَهِدَ العقبة فكان من سابقي الأنصار إلى الإسلام، وشَهِدَ بدرًا وهو في العشرين من عمره، وكان له بلاؤه المشهود فيها على صِغر سنه.

يقول ابن الأثير في أسد الغابة: شهد العقبة وبدرًا، وكان عظيم الغناء يوم بدر وغيره.

وضع نصب عينيه أن يصل إلى راية المشركين، فانتزعها من يد أبي عزيز بن عمير، وكان لهذا الموقف أثره على نفوس المشركين، أضعف من قوتهم، وفل من عزيمتهم. كانت ملائكة الرحمة ترافقه في القتال كما رافقت المسلمين في ذلك اليوم، والنبي ﷺ في حومة القتال، يحرض المؤمنين ويقول: والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فَيُقتَل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.

والمسلمون يلوذون برسول الله ﷺ فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه، وكان من أشد الناس بأسًا.

عن رافع الزرقي من أهل بدر: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها قال جبريل: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة.

جاء أبواليسر يوم بدر ممسكًا بالعباس بن عبدالمطلب يبشر النبي ﷺ بأنه أسره، فقال العباس: يارسول الله، والله إن هذا ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق ما أراه في القوم، فقال أبواليسر: أنا أسرته يارسول الله، فقال: اسكت فقد أيدك الله بملك كريم.

وكان الأنصار قد أوعدوا العباس أن يقتلوه إذا وقع في أيديهم، فلما أسره أبواليسر، قال النبي ﷺ: إني لـم أنـم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه، فسمع الأنصار ذلك فشدوا وثاقه ولـم يقتلوه، فلما أمسى رسـول اللـه ﷺ بـات ساهرًا أول الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام يارسول الله، فقال: سمعت أنين عمـي العبـاس في وثاقه، فأطلقوه فنام رسول الله ﷺ. ثم لمّا أصبح الصبح جيء بالعباس وكـان موسـرًا فطلب منه النبي ﷺ أن يدفع فداءً لنفسه يلائم ما يملك من مال: فادَّعَى أن لا مال عنـده، فقال له النبي ﷺ: فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلت لها: إن أصبت في سـفري فهذا لبنيّ الفضل وقثم وعبدالله؟ فقال: والله إني لأعلـم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل.

ثم ادعى العباس أنه أسلـم ولكنه يخفي إسلامه، فقال له النبي ﷺ: أما ظاهرك فكان علينا، والله يعلـم بإسلامك وسيجزيك. ثم إن أباالیسر جاء إلى النـبي ﷺ في رجـال مـن الأنصار فاستأذنوا رسول الله ﷺ في أن يتركوا للعباس فداءه، فقال لهم: واللـه لا تـذرُنَّ منه درهمًا واحدًا، شأنه شأن غيره من الأسارى، ففادى نفسه بمائة أوقية من الذهب.

وفي خيبر يقول أبواليسر: والله إنا لمع رسول الله ﷺ بخيبر ذات عشية، إذ أقبلـت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم، ونحن محاصروهم، فقال رسـول اللـه ﷺ: مـن رجـل يطعمنا من هذه الغنم؟ فقلت: أنا يارسول اللـه، قـال: فـافعل. قـال أبواليسـر: فخرجـت أشتد مثل الظليم (ولد النعام)، فلما نظر إليَّ رسول الله ﷺ موليًا قال: اللـهم أمتعنا بـه، قال: فأدركت الغنم وقد دخلت أولاها الحصن، فأخذت شاتين من أخراها، فاحتضنتهمـا تحت يدي، ثم أقبلت بهما أشتد كأنه ليس معي شيء حتى ألقيتهما عند رسول الله ﷺ، فذبحوهما فأكلوهما.

قال الصحابة لأبي اليسر: لقـد أمتعنـا بـك رسـول اللـه ﷺ، وكـان أبواليسـر إذا حَدَّثَ بهذا الحديث بكى، ثم قال: أمتعوا بي، لعمري، حتى كنت آخرهم هلكًا.

كان أبواليسر قصيرًا دحداحًا ذا بطـن، ولكنـه كـان عظيـم الهمـة، عميـق الإيمـان، متأسيًا برسول اللـه ﷺ، مصغيًا لقوله، عاملاً بما يسمع.

عن أبن البجير وكان من أصحاب النبي ﷺ أنه قال: أصاب النبي ﷺجوع فوضـع حجرًا على بطنه، فقال: ألا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رُبَّ نفس عارية جائعة في الدنيا طاعمة كاسية يوم القيامة، ألا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها

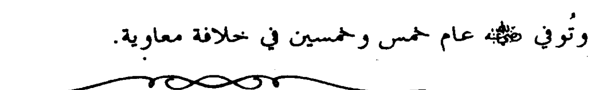
مهين، ألا رُبَّ مهين لنفسه وهو لها مكرم، ألا رُبَّ متخوص ومنفق مما أفاء الله على رسوله ماله عند الله من خلاق، ألا وإن عمل الجنة حزنة بربوة، ألا وإن عمل النار سهلة بسهوة، ألا رُبَّ شهوة ساعة أورثت صاحبها حزنًا طويلاً.

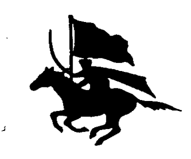
كان على رجل دين لأبي اليسر، وعند موعد السداد ذهب إليه ليتقاضاه، فلما سمع الرجل صوت اليسر اختبأ وقال لجاريته أخبريه أني لست هنا، فخرج طفل صغير للرجل وقال: إن أبي مختبيء منك في حجرة أمي، فنادى أبواليسر على الرجل وقال له: أخرج إليَّ وإلا دخلت إليك في مخبئك، فخرج الرجل، وهو في حرج شديد، فقال له أبواليسر: ما الذي حملك على ماصنعت؟ قال: العسرة، فليس معي ما أقضي به دينك، فسأله أبواليسر مؤكدًا: الله، قال الرجل: الله، طلب أبواليسر من الرجل أن يقسم له أن العسرة هي التي تمنعه من الوفاء بدينه، فأقسم الرجل، فقال له أبواليسر: اذهب فلك ماعليك، لقد تجاوزت عن الدين الذي عندك وتصدقت به عليك، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أنظرَ مُعْسِرًا أو وضع له كان في ظل الله يوم القيامة، أو في كنف الله يوم القيامة.

شَهِدَ أبواليسر مشاهد النبي ﷺ، وشَهِدَ بعده، وكان له رأيه في الأحداث من حوله، حتى إذا نشبت الفتنة كانت له رؤياه، وإذا كانت الفتنة نتيجة لاختلاف الاجتهادات بين أصحاب النبي ﷺ فقد كان ينفخ في نارها الشانئون والمنافقون، والذين يسوؤهم أن تقوى ريح المسلمين، وأن يظل حزب الله هم الغالبون، لكن أباليسر حزم رأيه وأخذ جانب عليٍّ ﷺ، فوقف معه، وقاتل، وكان له في صفين بلاء على كِبر سنه، ولكن عزمه لم يهن، لكن نفسه كانت قلقة متألمة أن يتقاتل الأخوة، وأن يتنازع المسلمون، حتى أصابهم الفشل وذهبت ريحهم.

لا ينبغي أن يتطرق الشك إلى قلب مسلم في صدق نوايا هذا السلف، فهم خير القرون، وإن كان من حقه أن يتفطر قلبه من الأسى حين واجهوا بعضهم في ساحات القتال، ولكنه لابد يدرك أن لرب العزة حكمة في مايقضي به بين الخلائق، ولا يسمح لفكره أن يصل إلى أبعد من ذلك، ولا لسانه في أن يخوض فيما عصمه الله من أن يكون في زمانه، كما قال عمر بن عبدالعزيز: تلك دماء طهر الله أيدينا منها فلا نخوض فيها بأفواهنا.

وتُوفي ﷺ عام خمس وخمسين في خلافة معاوية.





عبدالله بن زيد

ابن عبدربه بن ثعلبة من بني الحارث بن الخزرج، وهو غير عبدالله بن زيد بن نسيبة بن كعب. أحد الذين أجادوا الكتابة في الجاهلية، ومن كان كذلك يطلقون عليهم وصف (كامل) .

دفعه حبه للكمال إلى أن يكون من السابقين إلى الإسلام من أهل المدينة، وشَهِدَ العقبة الثانية مع السبعين. وكما يحمل الإنسان هَمَّ التمكين لنفسه في الدنيا، فعقله منشغل بحساب ما أصابه منها، وما يرغب في أن يصل إليه منها، فهو يُجَالس الناس بجسده، ويُخاطبهم بلسانه، ويسير معهم بقدميه، ولكنه منصرف العقل في كل ذلك إلى التنقيب عن الوسائل أو الوسائط التي تحقق له أن يبلغ مايتمنى أن يكون له ومعه من زخرفها، وكما أن أمل الذي شغل نفسه بهذا الزخرف لا ينتهي عند غاية، إذ كلما وجد نفسه قد أوشك على بلوغ ما كان يأمله، إذ يَلُوح له أمل آخر، وتُسفر له غاية أخرى، فأصبح عمله للدنيا همًّا شاغلاً يحمله ويحلم به، ويحسب له، فكذلك كان هم التمكين للإسلام في الأرض عند عبدالله بن زيد وكثير من أهل تلك الحقبة المثالية في تاريخ الرسالات، وهذا المجتمع الفريد الأسوة الذي أصبح أملاً تهفو إليه نفوس المسلمين، وأصبح أغلب أفراده هداةً يُقْتَدى بهم، ويَهْتدي بهديهم المؤمنون.

وكانت الهجرة النبوية المباركة إلى المدينة أول خطوة في طريق التمكين للإسلام في الأرض، إذ بها تحولت العقيدة من طور الثورة إلى مجتمع الدولة، وبني المسجد، وتم تأليف القلوب بين الأوس والخزرج، والمواخاة بين المهاجرين والأنصار، وأُبْرمت العهود بين المسلمين واليهود، وتم فيها الاعتراف بأن الإسلام هو الدين الرسمي للمدينة، وأن المسلمين هم أهل الدار، وأن غير المسلمين أقلية، لا نجبرهم على دخول الإسلام، لكن

ينطبق قانونه عليهم، وإذا اختلف بعض الناس على بعض فمرد الخلاف إلى رسول الله ﷺ الذي يحكم بينهم بما أنزل الله، ويُلزمهم على قبول مايحكم به.

عندما كان الإسلام محصورًا مطاردًا في مكة، لم يكن الناس مطالبين بصلاة الجماعة، إذ أنها دار حرب فيُصلي المسلم حيث يأمن على نفسه، ويستخفي عن الآخرين، فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، واستحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفُرضَت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفُرضَ الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهر هذا الحيّ من الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان.

وكان رسول الله ﷺ حين قَدِمَ المدينة يصلي بمن يجتمع لديه من الناس وقت الصلاة من غير دعوة إليها، فهم رسول الله ﷺ أن يجعل بوقًا كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فصنع له ليضرب به وقت الصلاة، فبينما هم على ذلك جاء عبدالله بن زيد بن عبدربه إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مرَّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا في يده، فقلت ياعبدالله، أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قال: قلت ندعو به إلى الصلاة، قال: ألا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وماهو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

يقول الرواة أن عبدالله بن زيد رأى هذه الرؤيا ثلاث مرات فطرق عبدالله بن زيد باب رسول الله ﷺ ليلاً وقص عليه رؤياه، فقال له: إنها رؤيا حق، صدقت، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتًا منك.

وعند أبي داود أن طائف الليل علمه الإقامة كذلك، وقال له ثم تقول إذا أقمت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، حي على الصلاة، حيّ على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

قال ابن هشام: وبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس، إذ رأى في منامه من يقول له: لا تجعلوا الناقوس في صلاتكم، بل أذنوا للصلاة، ثم علمه كلمات

الأذان، فلمَّا أذن بها بلال بتلقين عبدالله بن زيد سمعه عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يجر رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يارسول الله، لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد.

وذكر بعض أهل العلم أن أكثر من سبعين رجلاً من المسلمين رأوا هذه الرؤيا في تلك الليلة التي طرق بها عبدالله بن زيد باب رسول الله ﷺ ليخبره بها، ولكن ذهب عبدالله بالفضل، وإذا عَرَّفَ به كُتّاب السير يقولون عنه: عبدالله بن زيد الذي أرى الأذان.

وروى ابن ماجة أن عبدالله بن زيد الأنصاري قال في ذلك شعرًا ومنه:

الحمد لله ذي الجلال وذي الإ	**كرام حمدًا على الأذان كبيرا**
إذ أتاني به البشير من اللـ	**ـه فأكرم به لديّ بشيرا**
في ليال والي بهن ثلاث	**كلما جاء زادني توقيرا**

وأضاف بلال من عنده في أذان الصبح (الصلاة خير من النوم، وأقره رسول الله ﷺ.) وورد كذلك أن الوحي جاء إلى النبي ﷺ بتصديق رؤيا عبدالله بن زيد.

شَهِدَ عبدالله بن زيد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكانت معه راية بني الحارث بن الخزرج في فتح مكة، وكان النبي ﷺ يعتم بعمامة سوداء ومعه لواء أبيض، وراية سوداء تسمى العقاب في يد الزبير بن العوام، وكان يقرأ سورة الفتح متخشعًا تواضعًا لله عز وجل حتى إن عثنون لحيته يكاد يصل إلى وسط الرحل من تواضعه وخشوعه، فلما أطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعًا على راحلته يستلم الركن، وكان ﷺ حين قام على باب الكعبة يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ولما قام النبي ﷺ يدعو على الصفا وقد أحدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها؟ فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يارسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال: معاذ الله: المحيا محياكم، والممات مماتكم.

حَدَّثَ محمد بن عبدالله بن زيد فقال: إن أباه شهد حجة الوداع مع النبي ﷺ، وعند المنحر كان معه رجل وقَدَّمَ رسول الله ﷺ ضحاياه، وفرقها على المسلمين، فلم يُصب عبدالله ولا صاحبه منها شيئًا، فحلق رسول الله رأسه في ثوبه، فقسم شعره على

رجال، وقلم أظفاره فأعطى عبدالله وصاحبه منها، يقول محمد بن عبدالله: فهذا الظفر عندنا خضبناه بالحنّاء والطيب.

وتوفي عبدالله بن زيد بالمدينة سنة (ثنتين وثلاثين) وهو ابن أربع وستين سنة، وصلى عليه عثمان بن عفان ﷺ.



أبو عمرة الأنصاري

بشير، وقيل ثعلبة، نجاري أنصاري خزرجيّ. عقبي بدري أحدي، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

جاء مع أخوة له يوم بدر أو يوم أحد، فأعطى رسول الله ﷺ الرجال سهمًا سهمًا، وأعطى الفرس سهمين.

حَدَّثَ أبوعمرة عن إحدى غزواته مع النبي ﷺ فقال: كُنّا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فأصاب الناس مخمصة، فاستأذن الناس رسول الله ﷺ في نحر بعض ظهورهم، وقالوا: يارسول الله، يبلغنا الله به، فلما رأى عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قد هم أن يأذن لهم في نحر بعض ظهرهم، قال: يارسول الله، كيف بنا إذا لقينا القوم غدًا رجالاً جياعًا؟! ولكن إن رأيت يارسول الله أن تدعو الناس ببقايا أذوادهم فتجمعها، ثم تدعو فيها بالبركة، فدعا النبي ﷺ ببقايا أذوادهم، فجعل الناس يجيئون بالحثية من الطعام وفوق ذلك، فجمعها رسول الله ﷺ، ثم قام فدعا الله ما شاء أن يدعو، ثم دعا الجيش بأوعيتهم وأمرهم أن يحتثوا، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملئوه وبقي مثله، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه.

وليست هذه أولى ولا أخر بركات النبي ﷺ، فقد كان الله يُغيثه، ويُغيث المسلمين ببركة وجوده بينهم، كيف لا وهو يكف عذابه عن الكافرين لوجوده فيهم ﴿وَمَا كَانَ اللّه لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ...﴾ (الأنفال ٣٣).

عاش المسلمون أعظم أيام الأرض حتى أواخر أيام أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، حيث برزت الفتنة بوجهها القبيح يُغذيها اليهود والمنافقون، والمنتفعون بفرقة المسلمين، وقد

انتهى فصلها الأول بمقتل الخليفة، وبدأت الفصول تتالى، فتولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خلافة المسلمين، وانقسم الناس بين مطالب بدم عثمان، ومطالب بتدعيم بنيان الدولة، واختلفت الاجتهادات حول الأولويات، وتزعمت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها اجتهادًا يُعارض اجتهاد الخليفة، ورأت أن عليها واجبًا دينيًا يدفعها إلى تعبئة الناس للمطالبة بإقامة حدود الله في قتلة عثمان حتى لا يتعطل حد من حدود الله عز وجل، وتزعم أمير المؤمنين ﷺ اجتهادًا بأن حدود الله لا يجوز تعطيلها ولكن يجوز تأخيرها من أجل هدف أولى منها وهو استتباب الأمن والنظام في الدولة وحمايتها من الاضطراب والفوضى، إذ أن الفوضى من شأنها أن لا تحكم قبضة الخليفة على الأمر فلا يكون في مقدوره أن يقيم أي حد من حدود الله.

وتَبِعَ أم المؤمنين كثير من أصحاب النبي ﷺ من منطلق حرصهم على إقامة الحدود خاصة وأن ما يتعامل به علي مع قتلة عثمان لم يحدث في عهد أي خليفة ممن سبقوه ولا في أيام النبي ﷺ. وتَبِعَ كثير من أصحاب النبي ﷺ أمير المؤمنين عليًا لفهمهم بأن الظرف إذا تغير لابد أن يتم التعامل معه بحيث لا تتعطل الحدود ولا يُعْتَدَى عليها.

وبلغ هذا الفصل ذروته بموقعة الجمل التي نشط فيها ابن السوداء اليهودي، لقد كان فريق يحجز الناس عن القتال بينما كان ابن السوداء يحرض عليه، ويمعن في القتل هو وعصابته حتى فرضت الحرب، ولم يمكن تلافيها، وانتصر فيها فريق عليّ ﷺ، وأرسل أم المؤمنين إلى المدينة، وتولى معاوية في الشام تبعة المطالبة بدم عثمان ﷺ، وعرض قميصه المخضب بالدماء على منبر المسجد في دمشق، وحفز الناس وحرضهم، فأسرع إليه عليّ قادمًا مع جيش العراق، وتمت مراسلات بين الفريقين. وعند صفين ارتاد عليّ لجيشه منزلاً، وكان معاوية قد سبقه ونزل على مشرعة الماء في أسهل موضع وأفسحه، وجاء أهل العراق ليردوا من الماء فمنعهم أهل الشام، وعطش أصحاب عليّ عطشًا شديدًا، فبعث عليّ الأشعث بن قيس في جماعة ليصلوا إلى الماء، فمنعهم أولئك وقالوا لهم: موتوا عطشًا كما منعتم عثمان الماء، فتراموا بالنبل ساعة، ثم تطاعنوا بالرماح أخرى، ثم تقاتلوا بالسيوف بعد ذلك حتى أزاح جند عليّ من كانوا على الماء من جند معاوية، ثم اصطلحوا على أن يردوا الماء جميعًا، فكانوا يزدحمون عليه لا يكلم إنسان إنسانًا، ولا يؤذي إنسان إنسانًا.

بقي عليّ أيامًا لا يكاتب معاوية، ولا يستقبل منه كتابًا، ثم دعا عليٌّ أباعمرة الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمذاني، وشبيب بن ربعي السهمي فقال: اذهبوا إلى هذا

الرجل فادعوه إلى الطاعة والجماعة واسمعوا ما يقول لكم. فلما دخلوا على معاوية قال أبوعمرة: يامعاوية، إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، والله محاسبك بعملك، ومجازيك بما قدمت يداك، وإني أنشدك الله لا تفرق جماعة هذه الأمة، ولا تسفك دماءها بينها، فقال له معاوية: هلا أوصيت بذلك صاحبك، فقال أبوعمرة: إن صاحبي أحق هذه البرية بالأمر في فضله ودينه وسابقته وقرابته، وإنه يدعوك إلى مبايعته فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في آخرتك. فقال معاوية: ويطل دم عثمان، لا والله لا أفعل ذلك أبدًا، ثم أراد سعيد بن قيس الهمداني أن يتكلم فسبقه شبيب بن ربعي فتكلم بكلام فيه غلظة وجفاء في حق معاوية، فزجره معاوية في افتيائه على من هو أشرف منه، وكلامه بما لا علم له به، ثم أمر بهم فأخرجوا من بين يديه، وصمم على المطالبة بدم عثمان الذي قُتِلَ مظلومًا، ثم نشبت الحرب بين الفريقين واستمرت أيامًا.

وجاء وفد من قُرَّاء أهل العراق فدخلوا على معاوية فقالوا له: ما تطلب؟ قال: أطلب دم عثمان، قالوا: فمن تطلب به؟ قال: عليًا، قالوا: أهو قتله؟ قال: نعم، وآوى قتلته، فانصرفوا إلى عليّ فذكروا له ما قال معاوية، فقال: كذب، لم أقتله وأنتم تعلمون أني لم أقتله. فرجعوا إلى معاوية، فقال: إن لم يكن قتله بيده فقد أمر رجالاً، فرجعوا إلى عليّ فقال: والله لا قتلت ولا أمرت ولا مالأت، فرجعوا فقال معاوية: فإن كان صادقًا فليقدنا من قتلة عثمان، فإنهم معه وفي عسكره، فرجعوا إلى عليّ فقال: تأول القوم القرآن عليه في فتنة، ووقعت الفرقة لأجلها، وقتلوه في سلطانه، وليس لي عليهم سبيل، فرجعوا إلى معاوية فقال: إن كان الأمر على ما يقول: فماله أنفذ الأمر دوننا من غير مشورة منا ولا ممن هاهنا؟ فرجعوا إلى علي فقال: إنما الناس مع المهاجرين والأنصار، فهم شهود الناس على ولايتهم وأمر دينهم، ورضوا وبايعوني، ولست أستحل أن أدع مثل معاوية يحكم على الأمة ويشق عصاها، فرجعوا إلى معاوية فقال: ما بال من هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر؟ فرجعوا: فقال عليّ: إنما هذا للبدريين، وليس على وجه الأرض بدري إلا وهو معي، وقد بايعني ورضي، فلا يغرنكم عن دينكم وأنفسكم، فأقاموا يتراسلون في ذلك شهر ربيع الآخر وجمادين، ويقرعون القرعة بعد القرعة، ويزحف بعضهم على بعض، ويُحجز بينهم القُراء، فلا يكون قتال، فقرعوا في ثلاثة أشهر خمسة وثمانين قرعة، وقال عليّ لأصحابه: لا يبدأ واحد منكم بالقتال حتى يبدأ أهل الشام، ولا يذفّف على جريح، ولا يتبع مدبرًا، ولا يكشف ستر امرأة ولا يهينها، وإن شتمت امراء الناس وصلحاءها. وكانت ذروة فصل آخر من فصول الفتنة بموقعة صفين، وكان أبوعمرة أحد رجالها على كبر سنه وضعفه، وعطشه حيث كان صائمًا.

عن محمد بن الحنفية قال: رأيت أباعمرة الأنصاري يوم صفين وكان عقبيًا بدريًا أحديًا وهو صائم يتلوى من العطش، فقال لغلام له: ترّسني، فترّسه الغلام، ثم رمي بسهم في أهل الشام، فنزع نزعًا ضعيفًا حتى رمى بثلاثة أسهم، ثم قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من رمى بسهم في سبيل الله فبلغ أو قصر، كان ذلك السهم له نورًا يوم القيامة. وقُتِلَ قبل غروب الشمس.



أوس بن خولي

ابن عبد الله بن الحارث الأنصاري. أحد الكملة في الجاهلية والإسلام فكان يحسن الرمي والكتابة والسباحة، وتلك كانت - ولا تزال - من صفات الكمال.

و لعلي أذكر هنا بعض ما ذكرته الكتب عن الشمس التي غربت في الأندلس، وقد كانت تشع على جانب شديد الإظلام -ولا زال- في غرب العالم.

أضاؤا الأرض كلها بمصابيح الكهرباء، ولوثوا هواءها بضجيج الآلة، وسودوا سماءها بدخان المصانع، وزاحموا الطير بسفن الفضاء، ووطئوا بأقدامهم الثقيلة وجه القمر فطمسوا نبل صورته في الصدور والمشاعر وتسللوا كالوباء اللعين فأشربوا أنفسنا محبة التلذذ بما جعلوه نعائم وأطايب، وتسرب إلى أفئدتنا وعقولنا ما أصابهم من قلق وتوتر، وعدم سكينة في الحياة، فتلاشى الرضا، وحرم الناس القناعة، ونزعت البركة من أوقاتهم وأعمارهم وأرزاقهم، فكثرت الأموال في الخزائن والأيدي، وقل الشكر عليها فلم تغن من فقر، ولم تشبع من حاجة.

وقربت المسافات ولم تقض المصالح فضاعت الأوقات هباء، وسوف يسألون عنها يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وامتلأت المعى بالطعام فلم يشبع من جوع ولم يحفظ صحة، وتفشّى موت الفجأة، وكم تعوذ منه رسول الله ﷺ.

يكابر من يجادل في هذه المسلمات إذ أن السؤال الذي تحسم إجابته كل جدال يتلخص في: ما العائد الذي كسبه الإنسان من هذا الزبد الذي تموج به الأرض ويتدفق تياره من الغرب.

إن مقاصد الفطرة التي يسعى الإنسان لتحقيقها ولا تنصلح حياته إلا بها هي حفظ الصحة والنفس والمال، فإذا أضيف إليهـا الدين تحققت السعادة الكاملة للإنسان على الأرض ناهيك عن كونه من الذين سعدوا يوم ينقسم الناس إلى شقي وسعيد.

فماذا تحقق للإنسان من هذه المقاصد من وراء ثورة العلم الغربية؟

يشهد على الإجابة التي عندنا أبواب جهنم التي لا يخمد أوارها في جميع أرجاء الأرض، وجيوش الأطباء الذين يلهثون وراء الأمراض وينجحون غالبًا في اكتشاف رصيد جديد يضاف إلى قوائمها أكثر مما يصلون إلى علاج لما هو معروض، وفقدان نعمة الأمن، وهتك أغلفة العفّة والتصوّن، ولا أظن أن هذا هو العائد الذي يرجوه إنسان لنفسه ولجنسه.

في أوج المد الإسلامي في الأندلس تسلل بعض عيون العدو إلى بلاد المسلمين فرأوا طفلاً يحمل عدة الحرب، ويقف على شاطئ نهر وهو يبكي، وعندما سألوه عن سبب بكائه قال إنه كان يرمي على أوراق شجرة يدرب نفسه على قتال الأعداء، ولكن سهمًا ضل رميته فلم يصب العدو، قالوا له: ارم سهمًا غيره، فقال: ولكن لو كنت في إحدى المعارك مع أعداء الإسلام وضاع السهم دون أن يصيب عدوًا، ألا يكون ذلك خسارة تعود علينا وعلى ديننا.

قال سادتهم وكبراؤهم عندما وصلهم هذا النبأ، إنكم لن تصلوا إلى هدفكم مع هؤلاء ما دام صغارهم بهذا الإباء والشموخ.

وفي أيام الجزْر القبيحة رأى عيون الأعداء شابًا من المسلمين يقف على شاطئ نهر وهو يبكي، وعندما سألوه عن سر بكائه قال: إن خاتم حبيبته سقط منه في هذا النهر، وهو لا يحسن الغوص فهو بين نارين، إما أن يعترف لحبيبته بضياع خاتمه فيفقدها، وإما أن يغوص في النهر لكي يبحث عن الخاتم وقد يفقد حياته.

عندما دخل عليهم مدّ التفسخ الغربيّ والميوعة والخلاعة أصابهم انحسار في قوتهم وهيبتهم ففقدوا عناصر الكمال ومنها قدرتهم على السباحة التي كانت منذ القديم أحد عناصر الكمال.

أسلم أوس قبل هجرة النبي ﷺ، وكان يعتبر نفسه من أخواله، وكان قد بلغه قول أبي طالب عم النبي ﷺ والمدافع عنه والحامي له ومانعه من أذى قريش، ولما حضرته الوفاة قال للنبي ﷺ: يا ابن أخي، إذا أنا مت فأت أخوالك من بني النجار فإنهم أمنع

الناس لما في بيوتهم. آخى النبي ﷺ بين أوس بن خولي وبين شجاع بن وهب أحد شجعان مكة ورماتها.

في بدر وأحد والخندق كان أوس مقاتلاً لا يشق له غبار دفاعًا عن دينه ونبيه والمسلمين.

في صلح الحديبية كان أوس يشهد إحدى ملامح العظمة والجلال، فالنبي ﷺ يأخذ المسلمين غير مسلحين ليقتحم بهم عرين أعدائه المصرين على عداوتهم، وتبرك ناقته في الحديبية، ويتمالأ المشركون عليه، ويظهرون الخصومة، ثم يتم الصلح الذي يتعنت فيه المشركون أيما تعنت ويتسامح فيه النبي ﷺ أيما تسامح، فيقبل أن تمحى صفته التي أكرمه الله بها ويكتب اسمه واسم أبيه، وأن يمحى اسم الله ويكتب باسمك اللهم كما يكتب المشركون، ويسمح بأن لا يقبل من يدخل الإسلام من أهل مكة في حين إذا ارتد مسلم يمكنه أن يلجأ إلى مكة، وحين غضب أصحابه قال لهم: من أتى منهم مسلمًا فمعه الله، ومن يخرج عنا مرتدًا فلا رده الله.

وفي العام التالي يخرج النبي ﷺ بالمسلمين لأداء عمرة القضاء التي منع منها في العام الذي قبله، ولكنه كان يخشى غدر المشركين فحمل معه كثيرًا من السلاح، ووكل به مائتي رجل من خيرة أبطال المسلمين، وأمّر عليهم أوس بن خولي.

مات النبي ﷺ فتغيرت الدنيا أمام أعين المسلمين، ما عاد الناس هم الناس ولا النهار هو النهار ولا الليل هو الليل، وأحاط به أهله ليغسلوه ويدفنوه، ورأى الأنصار أن لهم فيه حقًا فهو لم يكن لأهله وحدهم وإنما للمسلمين جميعًا، ورأى بنو النجار أن لهم فيه حقًا كبيرًا فهم أخواله، والخال والد، فلا يجوز أن يحرموا من حقهم.

تكاثر الأنصار على باب النبي ﷺ يطالبون بحقهم فيه، ليحضروا تجهيزه لاستقبال ربه. يذكر الأنصار وصيته بهم في ابتداء وجعه حين قال: يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيرًا، فإن الناس يزيدون، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وأنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم.

نادىٰ الأنصار عليًّا فقالوا: يا علي: أنشدك الله، وحظّنا من رسول الله ﷺ فقال علي: اصطلحوا على واحد منكم يحضر تجهيزه، فاختار الأنصار أوسًا ليكون نقيبهم ونال هذا الشرف من بينهم.

ونزل عليّ وأوس وصالح شقران مولى النبي ﷺ في قبره الشريف، ثم أسرع شقران

فأخذ قطيفة كان يلبسها النبي ﷺ ويفترشها، فدفنها في القبر وقال، والله لا يلبسها أحـد بعدك.

وقال حسان بن ثابت يرثي النبي ﷺ:

مـا بـال عينـك لا تنـام كأنمـا كحلـت مآقيهـا بكحـل الأرمـد

جزعًا على المهـدي أصبـح ثاويـا يـا خـير مـن وطـئ الحصـى لا تبعـد

وجهـي يقيـك الـترب لهفـي ليتـني غيبـت قبلـك في بقيـع الغرقـد

بـأبي وأمـي مـن شـهدت وفاتـه في يـوم الاثنـين النـبي المهتـدي

فظللـت بعـد وفاتـه متبلـدًا متلـددًا يـاليتني لـم أولـد

أأقيـم بعـدك في المدينـة بينهـم ياليتـني صبحـت سـمّ الأسـود

وتوفي أوس بالمدينة في خلافة عثمان ﷺ.



أبوحذيفة بن عتبة (1)

اسمه هشيم أو هاشم أو مهشم، اختلفوا حول الاسم لأن كنيته هي التي غلبت عليه، وبها سُجلَ في الملأ الأعلى. أبوه عتبة بن ربيعة، وعمه شيبة، وأخوه الوليد بن عتبة، وجميعهم من أشراف مكة وكبرائها. وأخته هند بنت عتبة أشهر من أن يجهلها مسلم، ولعله لا يُنسَى لها حتى بعد إسلامها أنها آكلة الأكباد يوم أحد لما أساءت به إلى جثمان حمزة أسدُ الله وأسدُ رسوله.

وصهره أبوزوجته سهيل بن عمرو صاحب العناد والمكابرة في صلح الحديبية، وصاحب المقام المشهود في نصرة الإسلام حين بلغ مكة خبر وفاة النبي ﷺ، وتحدث بعض أهلها بنقض البيعة ومفارقة الدين.

لم يُسلم أبوحذيفة لأنه ضعيف، والإسلام يرفع الضعفاء، ويضع معايير للسيادة في متناول يد كل بني آدم، ويكون التفاضل بمقدار ما يأخذ الإنسان من أسبابها. ولم يُسلم أبوحذيفة لأنه فقير، والإسلام يجبر فقره، ويُطعمه من جوع. كان أبوحذيفة شريفاً مثل أبيه وعشيرته، وغنيًا، وله عزوة من أهله وأصهاره وحلفائهم، ولذلك كان الإسلام مفاجأة كبيرة لهم، وكانوا هم من أشد الناس انشغالاً بأمره، لأن أي تغيير في مكة سيصيبهم، فإذا انصرف الناس عن الحج إلى البيت بأصنامهم بسبب الإسلام، فإن ذلك سيضر بتجارتهم، وإذا زالت مهابة قريش بين العرب لأنها غيرت دينها، فإن ذلك سيضر بمكانتهم، وإذا كانت عشيرته ناصبت الإسلام العداوة، وأعلنت منابذتها له، فإن أباحذيفة وجد فيه شرفاً كم شغفت به روحه ولم يكن يعرف إليه سبيلاً، ووجد فيه غنى لا يعتريه فقر، ولا تذهبه حاجة. ففي الوقت التي أدارت فيه عشيرته ظهرها للإسلام، كان هو يبيع نفسه لله عز وجل في عبودية خاشعة ذليلة أورثته سيادة وشرفاً مجيدًا لا يبلى جديده، وقد تبلى الأيام والسنون.

والعجيب أن عتبة والده كان في عداوته للإسلام أكثر قربًا للإسلام من غيره، دائم التفكر فيه، كثير القلق بشأنه، ولكنه رضي أن يكون جزءًا من آلة قريش يميل حيث تميل، ويغضب حين تغضب، وإن يكن في ميله وغضبه مظاهرًا لهم بظاهره، وباطنه كبركان ثائر بعدم الرضا والغضب.

وكان أبوحذيفة يعرف ذلك في أبيه، وكم حدثه في الإسلام ودعاه إليه، والرجل يفكر ويمعن في الفكر، ولا يجيب ولده بقبول ولا رفض، ولا ينهره إذا دعاه ولا ينصرف عنه، ولكنه كذلك لا يقبل عليه، ولا يظهر احتفاله بما يقوله، وكأنه يتساءل بينه وبين نفسه عن موقف قريش إذا ضيعت هذا الجاه العريض في الجزيرة إذا صبأت عن دين أسلافها وجافت الأصنام والنصب.

يُصيب أبوحذيفة العنت والأذى من أهله وعشيرته فلا يدافع أبوه عنه، ولا يأمر بتعذيبه، فَيُطَمِّع هذا ولده في أن يرجو له الهداية إلى الرشد والحق المبين. لقد رضي أبوحذيفة بصفقته مع الله عز وجل، وليكن الثمن الذي سيلقاه من قريش أيًا كان، إنه لا يتردد ولا يتوقف، فدعوة الحق ظاهرة بَيِّنة، وأشعتها النقية تصل إلى القلوب والأسماع، تدعو إلى عبادة الواحد الأحد، ولا يزال يرى في قومه الحلم والرأي، وهم يُذيقونه من الأذى مالا يصرفهم عنه حلم ولا رأي، ولا وخز ضمير، ولا آصرة قربى.

وإذا كان الإسلام قد أحدث تبديلاً في النظم الاجتماعية، فقدم أخوة الإسلام على أخوة النسب، ووثق بين المؤمنين، وإن تباعدت أجناسهم، وتباينت ألوانهم، وباعد بينهم وبين الكافرين ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم، فإن مشركي مكة هم الذين بدءوا العداوة والبغضاء حتى أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، ولم يكن أبوحذيفة راغبًا في أن يبتعد عن النبي ﷺ، وقد كان يرجو أن يبقى قريبًا من أبيه لعله يستطيع أن يستنفر فيه رأيه وعقله، ولكنه أُمر بالهجرة، والطاعة واجبة عليه فنهض بزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو مهاجرًا إلى الله عز وجل. وفي الحبشة وُلِدَ له ابنه محمد بن أبي حذيفة، ولكنه كان يحمل هم أبيه الذي بقي يحمل همه طوال حياته.

ازدادت قريش إمعانًا في اضطهاد المؤمنين، وازداد النبي ﷺ إمعانًا في الدعوة إلى الله، وازداد من بقي معه في مكة إيمانًا واعتصامًا بحبل الله، وكان الإسلام يكتسب رجالاً كل يوم حتى أسلم حمزة بن عبدالمطلب، فسار عتبة إلى نادي قريش بجوار الكعبة، ورأى النبي ﷺ جالسًا وحده، فقال عتبة: يامعشر قريش.. ألا أقدم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيّهَا شاء، ويكف عنّا؟ فقالوا: بلى ياأباالوليد،

قم إليه فكلمه. فقام عتبة حتى جلس إلى النبي ﷺ وهو يتمعن في هذا الوجه كأنه لم يره من قبل، فقال: ياابن أخي، إنك منّا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، مزقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله ﷺ بأدبه الجم وخلقه العظيم: قل ياأباالوليد. قال عتبة: يابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت إنما تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

كان المصطفى ﷺ يستمع، فلم يغضب من محدثه، ولم يثر للإهانات التي وجهها إليه، وكأنه صاحب منفعة من سلطة أو مال، أو كأنه مريض أصابه مسٌّ من الشيطان، وبعد أن سكت عتبة قال النبي ﷺ: أقد فرغت ياأباالوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال الوليد: أفعل، فتلا عليه النبي ﷺ من سورة فُصِّلَت: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم ۞ تنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ، وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت ١-٦).

أنصت عتبة إلى النبي ﷺ وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليها، حتى انتهى النبي ﷺ إلى موضع السجدة فسجد ثم قال: قد سمعت ياأباالوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

قام عُتبة إلى أصحابه فقال بعضهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك ياأباالوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ماهو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يامعشر قريش، أطيعوني وخلوا.بينكم وبين الرجل، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله ياأباالوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فاصنعوا مابدالكم.

تصل هذه الأنباء إلى أبي حذيفة فيزيد أمله في أن يهتدي أبوه إلى الحق الذي عرفه،

ودعا قومه إلى كف أيديهم عن مقاومته، ومن ثم يسارع إلى العودة بعد إسلام عمر، ولكن قريشًا مالبثت أن صبت جام غضبها على المسلمين مما اضطر كثيرًا منهم إلى الرجوع إلى مهجرهم في الحبشة، لكن أباحذيفة لم يستطع أن يفارق النبي مرة أخرى، وأن يحاول مع أبيه برًا به، وقيامًا بأعباء الدعوة، وكان أبوه يحيا في عذاب نفسي مستمر، إنه ليشعر أن الإسلام حق، وأن قومه على باطل، لكن الخروج على دين قومه كان يخيفه ويروعه، فلقد كان يخشى على كبريائه أن تصاب بما أصيبت به كبرياء من أسلم من الشرفاء والأمجاد مثل أبي بكر وعثمان بن عفان، وحتىعمر نفسه.

كانت عين عتبة عمياء لا ترى إلا ظاهر الحياة الدنيا، ويرى شأن المشركين من أمثاله أن التمكين فيها هو التمكين، وأن العذاب فيها هو العذاب، وأن الموت نهاية كل ذلك، وهو في نفس الوقت على يقين بصدق النبي ﷺ، لكنها قناعة يساورها الشك في أن يعلو هذا الدين وأن يتم التمكين لأهله.

خرج النبي ﷺ إلى الطائف عسى أن يجد فيها ما لم يجده في قريش من نصرة للدين وإقبال على الحق، فقابلوه أسوأ مقابلة، وأغروا به عبيدهم وسفهاءهم يسبونه ويصيحون به، ويحصبونه بالحجارة حتى ألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فجلس في ظله متعبًا منهوكًا مطاردًا، يرفع رأسه إلى السماء، وتمتلئ عيناه بالدموع، ويفعم قلبه بالأسى والرجاء، ويتذلل إلى ربه بالدعاء (اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، ياأرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكتهُ أمري، إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسعُ لي. أعوذُ بنور وجهكَ الذي أشرقت له الظلمات، وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبُك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

ربما لو كان الذي رأى النبي ﷺ في هذه الحال هو أبوجهل لملأته الشماتة، ولكن الذي رآه عتبة بن ربيعة الذي مازال يسمع من ولده أبي حذيفة عن النور الذي يمثله لهم رسول الله ﷺ، تحركت عاطفة الرحمة في نفس عتبة وأخيه فأرسلا إليه غلامهما عدّاسًا بقطف من عنب في طبق، ورأى عداس أمارات النبوة في النبي ﷺفأكب عليه يقبل رأسه وقدميه، وعندما سألاه وهما يلومانه عن سبب مافعل قال لهما عداس: ياسيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي. ثم تركهما وعاد عتبة يفكر.





أبوحذيفة بن عتبة (٣)

سبق أبوحذيفة إلى الإسلام قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وسبق إلى الهجرة إلى الحبشة، ولما أمروا بالهجرة إلى المدينة سبق إليها، فقد كان من فضلاء الصحابة الذين جمع الله عز وجل لهم أطراف الفضل والشرف، وادَّخَرَ له كثيرًا من الابتلاء ليمحصه فيرى منه حبًا لله ولرسوله ولدينه أكبر من حبه لأبيه ونفسه.

وقالت فيه أخته هند بنت عتبة تهجوه بعد بدر حين دعا أباه للمبارزة، وتشير إلى حوله وثعله، فقد كان صبيح الوجه، أحول العين، أثعل الأسنان، له سن زائدة، تقول هند:

فما شكرت أبًا رباك من صغر — حتى شببت شبابًا غير محجون

الأحول الأثعل المشنوم طائره — أبوحذيفة شر الناس في الدين

وكذبت، فقد كان خير الناس في الدين. وآخى النبي ﷺ بينه وبين عباد بن بشر بن وقش أحد فضلاء الأنصار ومن خيرهم في الدين، والذي دعا له النبي ﷺ بقوله: يرحم الله عبادًا، والذي كانت تضيء له عصاه في الليلة المظلمة بعد أن يخرج من عند النبي ﷺ حتى يصل إلى بيته.

خرج المسلمون إلى بدر يترقبون عير قريش، ولكن العير نجت وعادت إلى مكة بعد أن أخذ أهلها عدتهم لملاقاة المسلمين دفاعًا عنها، وتخلف بعض أهل مكة عن الخروج مادامت العير قد وصلت سالمة، ولكن جهل زعمائها قاد الآخرين إلى الخروج.

قال النبي ﷺ حين رآهم: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحاول تكذيب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة.

وبعثت قريش عمير بن وهب يتحسَّس أخبار المسلمين فعاد إليهم يقول: لقد رأيت يامعشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام هذا وكان يعلم أن عتبة بن ربيعة إنما خرج مستكرهًا، فذهب إليه وقال: ياأباالوليد، إنك كبير قريش.وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر بخير إلى آخر الدهر؟ قال عتبة: وماذاك ياحكيم. قال حكيم: ترجع الناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي الذي قتله المسلمون. قال عتبة: قد فعلت، أنت عليّ بذلك، إنما هو حليفي فعليّ عقله (ديته) وما أُصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية (يقصد أباجهل) فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة خطيبًا فقال: يامعشر قريش إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه وابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ماتريدون.

وقال النبي ﷺ حين بلغه قول عتبة، ورآه على جمله الأحمر: إن لم يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا.

كَبُرَ الأمل في نفس أبي حذيفة وهو يسمع هذه الشهادة لأبيه، وبقي يراقب مايدور بين صفوف أهل مكة.

انطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل فقال له: ياأباالحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال أبوجهل: انتفخ والله سحره حين رأى محمدًا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جزور (أي في غاية الضعف) وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه، ثم بعث أبوجهل إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينيك، فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرمي وصرخ بالناس، واعمراه، واعمراه، فحمي الناس للحرب، وأفسد أبوجهل على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، وأصبح عتبة مثبطًا عن القتال، ينظر إليه الناس على أنه يخاف على نفسه، أو يخاف على ابنه أبي حذيفة، وهو يكره أن يتصف بالجبن، فتملكته حمية الجاهلية، وقال ردًا

على اتهام أبي جهل له بقوله: انتفخ سحره، فقال: سيعلم مصفر الاست من انتفخ سحره. وكلمة (انتفخ سحره) تُقال للدلالة على الجبن الذي يملأ قلب الجبان بالخوف، أي امتلأت رئته بالخوف بدلاً عن الهواء (تاج العروس). وقال ابن هشام: السحْر الرئة وما حولها مما يعلق بالحلقوم من فوق السرّة.

ثم التمس عتبة خوذة يدخل فيها رأسه فما وجد في الجيش ما يناسبه لعظم هامته فاعتجر على رأسه ببردة له ثم خرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى وقف بين الصفين ودعا إلى المبارزة. كان قد وضح لأبي حذيفة أو هكذا كان يأمل أن أباه يعلم أنه على باطل، وأن كثيرين من قريش يعلمون أنهم على باطل، وأن الحق البين الواضح على الجانب الآخر، فلماذا يحاربون وينافقون.

ويعرف عتبة أن ابنه في معسكر المسلمين، وقد يقابله في ميدان النزال يدافع عن إيمانه بالحقيقة الإلهية بينما هو يدافع عن أوثان لا تغني من الله شيئًا، وربما قابله في الميدان، فأي خير في العيش حينئذ. كانت قريش مضعضعة الكيان حين رأت تضعضع نفسية شريفها عتبة، ثم استشرى شيطان أبي جهل فأشعل نيران الضلال التي غطت ألسنتها على كل فكر، وأحرقت كل وسيلة إلى الرشد والاعتدال، وأغلقت كل سبيل إلى الصلح.

كانت مفاجأة بالغة القسوة على نفس أبي حذيفة، وهو يرى ضياع الحكمة والعدل والفضل من أبيه، وتغلب جانب الغيّ والضلالة والعمى عليه فيبرز في خيلائه لمحاربة الله ورسوله والمؤمنين. كره أبوحذيفة أن يرى أباه في هذا الموقف، وتمزق قلبه من الحسرة والأسف إذْ تمنى أن يُقْهَر أبوه في هذا الموقف، لأن في قهره عزة للإسلام، ونصرًا لهذه الكتيبة المؤمنة التي يعلم كل فرد فيها أنه لا يدافع عن نفسه وإنما عن دينه، فكان الفرد لا يقاتل بقوة ذاته، بل بقوة المجموعة كلها، لأن غاياتهم واحدة، وقائدهم واحد، وسبيلهم إلى الله ورسوله النصر والشهادة.

لقد عُرِفَت الغاية، وعُرِفَ القائد، وعُرِفَت الوسيلة، فلو اجتمعت الأرض عليهم بأجمعها في ذلك اليوم مانالت منهم شيئًا، إنهم حجة السماء على من في الأرض، وبرهان الله على المارقين من عباده، فلابد أن يتحقق النصر لهم.

تمنى أبوحذيفة أن ينسحب أبوه، أو أن يجبن عن المبارزة، ولكن أباه يريد أن يُري أباجهل وغيره أن سحره لم ينتفخ، وأنه شريف مكة وسيدها وعظيمها، فطلب أبوحذيفة من النبي ﷺ أن يأذن له في مبارزة أبيه، إنه ليعلم أن أباه خرج مستكرهًا لقتال المسلمين، وقد ضاع منه حلمه وحكمته واتزانه ليموت بأيدي المسلمين خالدًا في النار، حزن

أبوحذيفة، ولكن لابد من أن يُقتل حتى لا ينال من مسلم، وما كان النبي ﷺ ليأذن له بمبارزة أبيه حتى يجتمع عليه هم القتل مع هم ضياع الرشد من عقل أبيه.

وقف أبوحذيفة يرقب المبارزة التي لم تمهل أباه حتى خر صريعًا وشاهد أخاه وعمه وهما يلحقان به، فتفجرت في نفسه براكين الأحزان، واعتصر الألم قلبه، ولعله يعجب مما يحس به ويعتريه، لقد كان حريصًا على أن ينجو أبوه من ظلام الجهل والضلالة، ثم كان يرغب أشد الرغبة في أن يفر أبوه من المبارزة، ورغب بعد ذلك في أن يُقتل حتى لا ينال من مسلم أو يصاب مسلم بسيفه، ثم هاهو ينقبض بالحزن وينقبض عليه الألم وهو يرى أباه صريعًا يسيل دمه على وجه الأرض فيلوث نقاءها، وتُفسِد رائحته هواءها.

حاول أبوحذيفة أن يتجاوز آلامه بضربه هامات المشركين عن يمينه وشماله، لكنه يئوب إليه مرة أخرى وهو يسمع صوت المنادي يبلغ الناس أمر النبي ﷺ الذي يقول فيه (إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أباالبختري بن هشام بن الحارث فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهًا.

سمع أبوحذيفة هذا النداء فتراءت له صورة أبيه الصريع، وقال: وأبي ألم يخرج هو الآخر مستكرهًا، ونسي أن حمية الجاهلية عند أبيه هي التي سعرت نار الحرب حين برز بين الصفوف متحديًا ومستفزًا ومستثيرًا، حتى أنه هو نفسه أبوحذيفة طلب له الموت ونهض لمبارزته.

غلب الانفعال على التعقل، وأصاب إيمانه الوهن في هذا الموقف الرهيب فصاح: أتقتل آباءنا وإخواننا، وتترك العباس، والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف.

وسمع النبي ﷺ ما قال أبوحذيفة، فقال لعمر بن الخطاب وكان بجواره: ياأباحفص، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يارسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

لو قالها واحد غير أبي حذيفة لصدق عليه وصف عمر، ولكان عاصيًا لرسول الله ﷺ الذي أمر الله عز وجل بطاعته حين قال ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر ٧)، وقال كذلك ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ (الأحزاب ٣٦). وجعل الله عز وجل طاعته هي علامة حب الناس له حين قال ﴿قُلْ إِن

كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران ٣١).

لكن الذي قال ذلك هو أبوحذيفة السابق إلى الإسلام، وصاحب الهجرتين، والذي أحب الله ورسوله أكثر مما أحب أهله ونفسه. أشفق رسول الله ﷺ على صاحبه أبي حذيفة، وتجاوز عن خطئه، وبرر ذلك لعمر في عبارة واحدة جمعت العفو والاعتذار عنه والرضا عنه فقال لعمر: (لقد رأى مصرع أبيه بعينيه) .

ماذا قلت ياأباحذيفة، وكيف تدنيت إلى هذا الدرك، إن صليل السيوف، وتكسر العظام والجماجم، وأنين الجرحي، وصياح المصابين، لـم تستطع أن تطغى على صوت ضميره الذي يعذبه، ولا أن تغطي على المعركة الدائرة في أعماقه.

ياأباحذيفة، ماذا فعلت فوقفت تعارض رسول الله ﷺ وتحادّه وتعصي أمره. وهل صحيح أنك أصبحت من المنافقين، من أبوك؟ ومن أخوك؟ ومن عمك؟ من كل هؤلاء بجانب العباس عم النبي ؟ لم يكن العباس كافرًا، وإنما بقي مع الكافرين عينًا لرسول الله ﷺ يبعث إليه بما يدور في مكة ويرعى المستضعفين من المسلمين الذين لا يستطيعون الهجرة، ويخذّل عنه عنفوان المشركين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أما أبوك فقد أعلن تحديه للمسلمين، وإصراره على قتلهم، ليحفظ لنفسه كبرياءها، وشتان من ينتصر لنفسه وكبريائه، ومن ينتصر لله ولرسوله وللمؤمنين. إن في مقتل عتبة بن ربيعة عزة للدين وخذلانًا للمشركين، ولكن في مقتل العباس خذلانًا للمسلمين ونصرًا للكافرين، وقد كنت حريصًا على قتل عتبة لتنصر دينك، فكيف ترضى بأن تلحم العباس بالسيف لتحتج على دعوتك. أي الناس أنت ياأباحذيفة، وأي تناقض في فعالك، أيعقل أن يجتمع فيك ضلال وهداية؟ هل يصدق عليك وصف عمر فتكون منافقًا، ويشهد الله أنك ما حملت في قلبك غير النصح لله ولرسوله ولدينه. لم يكن ما بدر منك غير كلمة في غمرة أحاسيس لم يكن لك بها طاقة على تحملها، إنها مجرد كلمة لم تصدر عن إصرار على المعصية، ولم يترتب عليها عمل، ولَلْعَباس أحب إليك من أبيك وأخيك وعمك.

وما زال أبوحذيفة يردد: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عني الشهادة.





أبوحذيفة بن عتبة (٣)

قذف أبوحذيفة بنفسه في أتون بدر، راغبًا في أن يلحم أحد المشركين وجهه بالسيف لعل ذلك يكفر عنه تلك الكلمة التي بدرت منه، ولعل الشيطان هو الذي وضعها على لسانه ليحبط له عمله، ويضيع منه رصيده في الدعوة، وبلاءه في الصبر على الأذى، وسبقه للإسلام والهجرة والنصرة.

لكن الله عز وجل يدخر أباحذيفة لأجلٍ مسمًّى حتى يعرضه لبلاء آخر في يوم بدر، وليكون يوم بدر يومًا لأبي حذيفة. انجلت المعركة، ونصر الله فئته المؤمنة، وقُتِلَ زعماء الشرك، وعتاة الضلال: مثل أبي جهل، والأسود المخزومي، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة. وأمر النبي ﷺ أن يحفر قليب فيطرح فيه قتلى المشركين، ووقف حسان على القليب وقال:

عرفت ديار زينب بالكثيب ... كخط الوحي في الورق القشيب
تداولها الرياح وكل جون ... من الوسميِّ منهمر سكوبِ
فأمسى رسمها خلقا وأمست ... يبابا بعد ساكنها الحبيب
فدع عنك التذكّر كل يوم ... ورد حرارة الصدر الكئيب
وخبِّر بالذي لا عيب فيه ... بصدق غير إخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة بدر ... لنا في المشركين من النصيب
غداة كأن جمعهم جراءً ... بدت أركانه جنح الغروب
فلاقيناهمُ منا بجمع ... كأسد الغاب مُردان وشيب
أمام محمد قد وازروه ... على الأعداء في لفح الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات ... وكل مجرب خاظي الكعوب

بنـو الأوس الغطـارف وازرتهـا ... بنـو النجـار في الديـن الصليـب
فغادرنـا أبـا جهـل صريعـا ... وعتبـة قـد تركنـا بـالجبوب
وشـيبة قـد تركنـا في رجـال ... ذوي حسـب إذا نسـبوا حسـيب
ينـاديهم رسـول اللـه لمـا ... قذفنـاهم كبـاكب في القليـب
ألـم تجـدوا كلامـي كـان حقـا ... وأمـر اللـه يـأخذ بـالقلوب
فمـا نطقـوا ولـو نطقـوا لقالـوا ... صدقـت وكنـت ذا رأي مصـيب

ولما طُرِحَ المشركون في القليب وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال: ياأهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا، فقال المسلمون: يارسول الله، أتنادي قومًا قد جيفُوا، قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

قال ابن إسحق: ولما أمر رسول الله ﷺ أن يلقوا في القليب، أخُذ عتبة بن ربيعة فَسُحِبَ إلى القليب، فنظر رسول الله ﷺ فيما بلغني في وجه أبي حذيفة، فإذا هو كئيب قد تغير لونه، قال: ياأباحذيفة، لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟ فقال: لا والله يارسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من كفر بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا.

كان لابد أن يُبْتَلى أبوحذيفة بهذا الموقف الجديد، وهو يرى أباه يُطرح في القليب لتتم التصفية بينه وبين قائده. وكان قائده ﷺ يعلم ما أصاب أباحذيفة من حرج بسبب كلمته التي قالها.

ولم تكن الكلمة صغيرة في حد ذاتها، ولكن مثل أبي حذيفةَ لا يقولها عن إصرار على المعصية ولا نية لها، ولكن مثل أبي حذيفة أيضًا لا ينبغي له أن يقول مثلها، لأنه من المقربين، والمقربون تعظم الكلمة الصغيرة منهم فما بالك إذا كانت الكلمة كبيرة، وما يتسامح فيه مع غيرهم لا يتسامحون هم فيه مع أنفسهم. إن النبي الحكيم ﷺ أدرى بخوالج النفس البشرية وأعلم بمكامن القصور فيها، وأخبر بحال صحابته، بالفراسة التي هي نتيجة بصيرة كاشفة، وبالوحي الذي يأتيه من الخبير البصير الذي يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور.

كذلك يعلم رسول الله ﷺ أن بين أصحابه من يزيد إيمانهم على إيمان الملائكة،

وفيهم من يرق إيمانهم حتى يُصبح كالقشرة التي إذا تعرضت لوهج اختبار صغير قد يصيبها التشقق أو التصدع. ومثل هؤلاء يأخذون بالرخص أكثر من أخذهم بالعزائم، وسيأتي من بعدهم من يترخصون من عند أنفسهم، ويرضون لأنفسهم مالا يقرونه في غيرهم، فيرون القذاة في عيون الآخرين، ولا يرون العود في عيون أنفسهم، ويتكئون في ذلك على كلمات خرجت في ظرف استثنائي، مثل ماحدث من أبي حذيفة.

يعي ذلك رسول الله ﷺ بما علّمَهُ ربّه، ويقطع الطريق عليهم بأن يترك الأمور واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

يأمر رسول الله ﷺ أصحابه بأمر (من لقي منكم العباس بن عبدالمطلب فلا يقتله)، وشأن المسلمين إذا أمرهم نبيهم أن يستجيبوا مُسَلّمِينَ، لأنه لا يأمرهم إلا بما فيه صلاحهم، ويقطع الطريق على أي تساؤل يدور في خلد بعضهم، أو تشكك يمكن أن يلقي بظلاله عليهم وسوسة شيطان أو كيد حاقد، فيذكر السبب (لأنه إنما خرج مستكرهًا) . وفي هذا التوضيح كفاية يزول معها أي تساؤل، ويمتنع أي تشكك. أحد فضلاء صحابته يرد عليه أمره بقوله: أتقتل آباءنا وإخوتنا وتتركه ليعيش؟! استنكار وتعجب، ومنطق في الرد يباين الطاعة المطلقة التي عاهد النبي أصحابه عليها. ويتصاعد الموقف، ويتأكد العصيان بقوله: والله إن لقيته لألجمنه بالسيف.

لا ينبغي أن يُترَك الأمر بدون حسم، ولكن الحسم يكون نبويًا، من القائد الذي يدرك خوالج النفس الإنسانية وخوافيها، ويشخص عيوبها وأمراضها ويمتلك القدرة على علاجها وإصلاحها. ينظر النبي ﷺ إلى عمر بن الخطاب، ويجعل صوته يصل إلى أبي حذيفة وهو يقول: ياأباحفص، أترضى أن يُلجم وجه عم نبيكم بالسيف؟

كان السؤال موجهًا إلى أبي حذيفة لينقذه من غمرته حتى تنجلي عنه، ولكن المُخَاطب به عمر بن الخطاب، فأجاب بما يقتضيه ظاهر الحال، فقال: دعني أضرب عنقه بالسيف، فقد نافق.

هذه الصفة، وهذا العقاب هما جزاء من يعصي أمر رسول الله ﷺ، ويُسيء الأدب في مخاطبته أو الحديث عنه. يخفف النبي ﷺ من غضب عمر، ولا يترك سبيلاً لأحد ممن بعدهم أن يخالف قائده المسلم محتذيًا فعل أبي حذيفة (إنه رأى أباه يُقتل أمامه).

ينبغي أن يلتقي القائد بصاحبه ليبرئ ساحته من صفة النفاق، ويشمله بعفوه ورحمته، ويضمه إلى جناحه كما كان من قبل. لكن ذلك يتم في لحظة أضافت همًّا

جديدًا إلى هموم أبي حذيفة، في اللحظة التي يُجَر فيها أبوه إلى القليب، ويتغير وجه أبي حذيفة، وربما يفهم هذا التغير بأنه ليس راضيًا عن قتله، فيكون مصرًا على الكلام الذي قال من قبل.

لا يشك رسول الله ﷺ في إيمان أبي حذيفة، ولا في سلامة موقفه، ولكن آخرين قد يشكون أو يشككون، فيسأله: لعلك دخلك شيء في مقتل أبيك. يعرف أبوحذيفة ما يقصد إليه رسول الله ﷺ، فيبدأ الإجابة من حيث ينتظر الآخرون، إنه لم يشك أبدًا في أن أباه كافر مصر على كفره، فهو إذا كان قد شارك في المعركة مستكرهًا، لكنه لم يكن مستكرهًا على الكفر، أما تغير وجهه فمن الأسف على أن عقل أبيه وفضله لم يستطيعا أن يرشداه إلى الإسلام. تم التصفية وأعلن القائد رضاه عن صاحبه، فدعا له بخير وقال له خيرًا.

ولكن هل انتهى الأمر عند ذلك، لقد انتهى الأمر بالنسبة للمؤمنين والمنافقين، وانتهى بالنسبة للقدوة والتأسيّ، لكنه لم ينته بالنسبة لأبي حذيفة، فهو لا يرى شيئًا يكفر عنه هذه الكلمة إلا الشهادة في سبيل الله، لقد مات أبوه في سبيل الكفر، وتحمَّل همَّه حيًا وميتًا، فليمت هو في نصرة الإيمان تكفيرًا عن هذا الهم الذي أزعجه وآلمه. طلب الشهادة في أُحد، ونقب عنها في خيبر، وصمد في حنين مستأسدًا يبحث عن الشهادة وليس الموت، ولكنه كان على موعد معها في اليمامة.

لقد اقتنع أبوحذيفة، واقتنع من حوله أن علامة توبة الله عنه أن ينال الشهادة في سبيله، وفي يوم اليمامة التقى المسلمون بجيش كثيف يتقدمه بنوحنيفة، وبدأت المعركة بهزيمة قاسية للمسلمين جعلت خالد بن الوليد يخرج من معسكره ويصيح وامحمداه. فتذكر المهاجرون والأنصار عهودهم، وصرخ معن بن عدي، ياللأنصار، وتعالت الأصوات: كرة كيوم حنين، وحمل الراية زيد بن الخطاب، فبدأت الصفحة الثانية وفيها ثبت المسلمون واستُشهِدَ زيد، فتقدم أبوحذيفة وحمل لواء المسلمين وصاح فيهم، ياأهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال، وهنا تم دحر المشركين وقتل مسيلمة الكذّاب ومعه كذّابون كثيرون.

وبحث الناس عن شهدائهم فوجدوا بينهم أباحذيفة، وقد صعدت نفسه اللوامة إلى بارئها الكريم، قَابل التَوب، وغَافِر الذنب.





محمد بن مسلمة (١)

بطل همام أشهر من أن يُنكر، وأحق أن يُذكر، ولكن التاريخ وضعه في موضع نصفه في الظل ونصفه في الضوء، وكأنما هو الموضع الذي وضع فيه نفسه، يُنكر ذاته في الله، ويبذل نفسه لله، ويكتفي بمكانه عند الله.

أسلم في الثلاثين مع مصعب بن عمير قبل إسلام أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، ومنذ ذلك اليوم وإلى أن وافته منيته، وأثره ولمسته وبلاؤه في كل بقعة ضوء ينثرها الإسلام على صفحة الدنيا، وسيفه وعزيمته وإيمانه في كل نصر يحققه الإسلام على جحافل الضلال والخطيئة.

آخى النبي ﷺ بينه وبين أمين أمه الإسلام، أبي عبيدة بن الجراح، ليجمع بين أمين المهاجرين وأمين الأنصار. أحد الأبطال المعدودين في بدر، وأحد الصامدين في أحد حين اختلط الأمر على المسلمين، وفرَّ من فرّ.

وأمَّرَهُ النبي ﷺ رئيسًا على الحرس في خمسين رجلاً لحراسة معسكر المسلمين في أحد. وبعد بدر حيث أصيب من أصيب من زعماء مكة، وأرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة إلى أهل السافلة من المدينة يبشرهم بالنصر، وعبدالله بن رواحة إلى أهل العالية، قال كعب بن الأشرف إذ سمع عن قتلى المشركين، أحق هذا؟ أترون محمدًا قتل هؤلاء الذين يُسَمِّي هذان الرجلان زيد وعبدالله بن رواحة فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها.

فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة، فنزل على المطلب بن وداعة السهمي، فأنزلته زوجته وأكرمته، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار،

ويبكي أصحاب القليب من قريش الذي أصيبوا ببدر، فقال:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد ... ذي بهجة يأوي إليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن الأشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلهم ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع

ثم رجع كعب إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فقال النبي ﷺ: من لي بكعب بن الأشرف، قال ابن أبي بردة: فقال محمد بن مسلمة أخو بني عبدالأشهل: انى لك به يارسول الله، أنا أقتله، قال: فافعل إن قدرت على ذلك.

فرجع محمد بن مسلمة، فسكت ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب إلا مايعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه، فقال له: ولم تركت الطعام والشراب، فقال: يارسول الله، قلت لك قولاً لا أدري هل أفين لك به أم لا؟ فقال: إنما عليك الجهد، فقال: يارسول الله، إنه لابد لنا من أن نقول (أي لابد أن يكذبوا في حديثهم لابن الأشرف حتى يأمن جانبهم) قال: قولوا مابدا لكم فأنتم في حل من ذلك.

فاجتمع في قتله مع محمد بن مسلمة، عباد بن بشر، والحارث بن أوس، وأبوعبس، وأبونائلة سلكان بن سلامة، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، ثم قدموا إليه أبا نائلة قبل أن يأتوه. جاءه أبونائلة فتحدث معه ساعة، وتناشدوا شعرًا، وكان أبونائلة يقول الشعر، ثم قال: ويحك يابن الأشرف، إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك، فاكتم عني، قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا به العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السُبُل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا، فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرك يابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول، فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعامًا، ونرهنك ونوثق لك، وتحسن في ذلك، فقال: أترهنونني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معي أصحابًا على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم، فتبيعهم وتحسن في ذلك، ونرهنك من الدروع ما فيه وفاء أراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا به.

فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، وطلب منهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم فقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم، ثم رجع إلى بيته.

كانت ليلة مقمرة حين توجه الأصحاب المجاهدون إلى بيت عدو الله كعب بن الأشرف وكان حديث عهد بزواج، فهتف به أبونائلة، فوثب من ملحفته فأخذته المرأة وقالت: إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، قال: إنه أبونائلة، لو وجدني نائمًا لِما أيقظني، فقالت: والله إني لأعرف الشر في صوته، فقال لها: لو يُدعى الفتى لطعنة لأجاب. والحقيقة أنه كان حريصًا على الصفقة، فأضاع الحرص عقله، وعطل فكره، واستهان بتحذير عروسه.

نزل ابن الأشرف، وتحدث معهم ساعة، ثم قالوا له: هل لك أن نتماشى ساعة إلى مكان خال فنتحدث فيه باقي ليلتنا هذه؟ فقال: إن شئتم، فمشوا ساعة، ثم أن أبانائلة أدخل يده في شعر كعب ثم شم يده فقال: مارأيت كالليلة طيبًا أعطر قط، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن كعب، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها فأمسك بفوده، وقال: اضربوا عدو الله، فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن عنهم شيئًا.

قال محمد بن مسلمة، فذكرت معولاً معي (حديدة في السوط) كنت وضعته في سيفي حين رايت أسيافنا لا تغني شيئًا، فأخذت المعول، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا وقد أوقدت عليه نار، فوضعته عند سرته وتحاملت عليه حتى وصل إلى عانته فوقع عدو الله، وأصيب الحارث بن أوس بجرح في رأسه أو رجله، أصابه بعض أسيافنا، فخرجنا ووقفنا ساعة ننتظر صاحبنا الذي أبطأ علينا، ونزفه الدم، ثم أتانا يتبع آثارنا، فاحتملناه فجئنا رسول الله ﷺ آخر الليل، وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله.

وقال كعب بن مالك في قتل ابن الأشرف

فغودر منهم كعب صريعا	**فذلت بعد مصرعه النضير**
على الكفين ثم وقد علته	**بأيدينا مشهرة ذكور**
بأمر محمد إذ دسّ ليلا	**إلى كعب أخا كعب يسير**
فما كره فأنزله بمكر	**ومحمود أخو ثقة جسور**

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الله عز وجل يقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى ٤٠) والتآمر في الخفاء، والدس ضد الإسلام وأهله، والمكر بالليل، وتبييت الغدر، والتحريض على الحرب كانت صفات كعب بن الأشرف، بالإضافة إلى سوء أخلاقه وتعرضه للنساء المسلمات، والتشبيب بهن، فكان المكر به، وأخذه على غرة، ومعاملته بمثل ما يعامل به الناس هو مقتضى العدل والإنصاف، خاصة وأنه يعيش في منعة من قومه

بني النضير، والتعرض له جهارًا يعني حربًا وخسائر في الأرواح والأموال يغني عنها جميعًا تلك الخطة المحكمة التي دبرها محمد بن مسلمة واختار لها عناصر كانت تقدر حجم الأمر الذي تُقْدِم عليه، وكلهم من فتية الإسلام الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

في يوم بئر معونة وتم الغدر بالمسلمين حتى قُتِل منهم ستون أو ثمانون وهم كل الرجال، وفرَّ عمرو بن أمية الضمري فرأى رجلين كان يعرفهما من المشركين فقتلهما، وأبلغ خبرهما إلى رسول الله ﷺ فأخبره أنهما جاءا إليه وأسلما، فكان لابد من دفع الدية لذويهما على هذا القتل الخطأ، وكان الحلف مع بني النضير يلزمهما كما يلزم المسلمين بالمشاركة في دية القتل الخطأ، فذهب النبي ﷺ في جمع من أصحابه إلى بني النضير يطلب عونهم بدفع نصيبهم من الدية، فألانوا له في الكلام وقالوا: نعينك ياأبا القاسم، ثم أجلسوه إلى ظل بيت واحد منهم، وانحازوا يأتمرون به، فقالوا لبعضهم: هذه فرصتكم ألا من أحد يخلصنا منه، وبرز واحد منهم فحمل حجرًا وصعد إلى أعلى البيت ليقذفه على رأس رسول الله ﷺ، لكن الله كان قد أبلغه مكرهم فهب واقفًا وانصرف، واستبطأه أصحابه فلحقوا به، فأبلغهم نبأهم وأرسل إليهم محمد بن مسلمة بأمره فقال لهم: يقول لكم رسول الله ﷺ: اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم شهرًا.

في غزوة بني قينقاع حين نقض اليهود عهدهم، وأظهروا العداوة والبغضاء، وقالوا للنبي ﷺ في وجهه: لا يغرنكم أنكم تغلبون قريشًا وهم لا يُحسنون القتال، ولكن إذا لقيتمونا فستعرفون أننا الرجال، ومازالوا يستفزون المسلمين حتى اعتدى واحد منهم على امرأة مسلمة في محل صائغ يهودي فقتله أحد المسلمين، فقتل اليهود المسلم، ولم يجنحوا للسلم، فأجلاهم النبي ﷺ، وولى محمد بن مسلمة مسئولية تخميس أموالهم حسب أمر الله عز وجل.

وحين خفر يهود بني قريظة ذمتهم مع الله ورسوله، وتآمروا مع الأحزاب على المسلمين، أمر الله نبيه ﷺ بعد أن نصره الله في الخندق أن لا يصلي العصر إلا في بني قريظة، وحكم فيهم سعد بن معاذ بحكم الله من فوق سبع سموات بأن يُقتل المحاربون منهم، وأن تُسبى النساء والذرية، وتُغنم الأموال، وكان تنفيذ هذا الحكم عملاً شاقًا أُلقي على كاهل محمد بن مسلمة الذي كان يُسمى فارس رسول الله ﷺ.

وفي عُمرة القضاء بعد عام من الحديبية، وانتهى النبي ﷺ إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه تستكشف الطريق، وكانت مائة فرس أَمَّرَ عليها فارسه محمد بن مسلمة.

واستعمله النبي ﷺ على سرية إلى القرطاء في ثلاثين راكبًا، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأغار وقتل نفرًا، وفر الباقون، واستاق نعمًا وشاءً خَمَّسَها النبي ﷺ وغاب في هذه السرية تسع عشرة ليلة.

وبعثه النبي ﷺ في سرية إلى ذي القصة، ونال العدوّ منهم وجرح جرحًا بليغًا حتى ظن الأعداء أنه مع الموتى حتى عثر عليه واحد من المسلمين فحمله إلى المدينة.

لم يتخلف محمد بن مسلمة فارس رسول الله ﷺ عن مشهد إلا غزوة تبوك حيث استخلفه النبي ﷺ على المدينة، وكان يقول لأبنائه ورواده: يابنيّ سلوني عن مشاهد النبي ﷺ ومواطنه، فإني لم أتخلف عنه في غزوة قط إلا واحدة هي تبوك، خلفني على المدينة، وسلوني عن سراياه ﷺ، فإنه ليس منها سرية تخفى عليّ، إما أن أكون فيها، أو أن أعلمها حين خرجت.

يصفه رفاعة بن رافع فيقول: كان رجلاً أسود طويلاً عظيمًا، وكان معتدلاً أصلع. روى الزهري وابن اسحق عن جابر: خرج مرحب اليهودي من حصنه يوم خيبر وهو يرتجز

قد علمت خيبر أني مرحب — شاكي السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وحينا أضرب — إذا الليوث أقبلت تلهب
إن حماي لَلْحمى لا يقرب

وجعل مرحب يرتجز ويصيح: هل من مبارز؟ فقال رسول الله ﷺ: من لهذا؟ فقال محمد بن سلمة: أنا له يارسول الله، أنا الموتور والله، والثائر، قتلوا أخي محمود بالأمس، فقال النبي ﷺ: قم إليه، اللهم أعنه عليه، فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عظيمة فجعل احدهما يلوذ من صاحبه بها، وكلما لاذ واحد منهما بها قطع الذي يليه من أغصانها حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم مافيها غصن واحد، ثم حمل مرحب علىمحمد بن مسلمة فضربه واتقاه بالدرقة، فوقع سيفه فيها فعضه وجرحه، فاستله، وضربه محمد حتى قتله.

وذكر الواقدي أن محمدًا قطع رجل مرحب فصاح به من شدة الألم وقال له: أجهز عليّ، فقال محمد: لا، بل ذق الموت كما ذاقه محمود بن مسلمة، فمرَّ علي بن أبي طالب بمرحب وهو يصرخ من الألم فقطع رأسه وحمله إلى رسول الله ﷺ، فاختصم علي ومحمد بن مسلمة في سلب مرحب إلى رسول الله ﷺ، فأعطى محمد بن مسلمة

سيفه ورمحه ومغفره وبيضته وكان مكتوبًا على سيفه:

هـــذا ســـيف مرحـــب   مـــن يذقـــه يعطـــب

ولكن مرحب هو الذي أصابه العطب على يد محمد بن مسلمة فارس رسول اللـه، أو عليّ بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ.

وقالوا إن محمد بن مسلمة قال حين ضرب مرحب:

قـــد علمـــت خـــيبر أنـــي مـــاض   حـــلو إذا شـــئت وســـم قـــاض



محمد بن مسلمة (٣)

محمد بن مسلمة فارس رسول الله ﷺ بطل بدر. الصامد في أحد حين فرّ الأبطال حتى أثخنته الجراح وأحضروا له ماءً عذبًا. وقائد الفرسان في عمرة القضاء، وأمير السرايا المنتصر الظافر، والغانم المكتسب.

نائب النبي ﷺ في حكم المدينة مدة غيابه في غزوة تبوك. القائم على تنفيذ حكم الله عز وجل في بني قريظة، ورسوله وحامل إنذاره إلى بني النضير، والقوي الشجاع الذي قتل رأس الكفر في خيبر.

أتكفي هذه الأوسمة صدر الأسمر الطويل الأصلع. إن وسامًا واحدًا منها يزين صدر من يحمله، ويأخذ بيده إلى أن يوصله إلى مكانه في الفردوس الأعلى. ولكن قلبًا كبيرًا ينطوي على هذا الإيمان العميق بالله عز وجل، وهذا الحب العظيم لنبيه ﷺ لا يقنعه ذلك ولا أكثر منه، إن له من فيض الملكات التي وهبه الله بها ما يمكنه من العطاء.

إن قلب المؤمن خزانة من الأسرار يَكشفها سرًّا سرًّا كلما كان الدين في حاجة إلى هذا السرّ، خاصة إذا كان هذا القلب معلقًا بالله عز وجل الذي لا تنفد خزائنه، ولا يتوقف تثبيته للذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة:

كانت تلك الجوانب التي عرضنا لشيء منها هي جانب الحيوية والجندية العسكرية في محمد بن مسلمة، ولكن العسكرية ليست هي آخر المطاف عنده. كان محمد بن مسلمة أحد كتّاب النبي ﷺ يكتب له عهوده ومواثيقه ويشهد عليها.

حضر يوم الحديبية، وبايع تحت الشجرة، وكان شاهدًا على كتاب الصلح الذي كتبه علي بن أبي طالب. وكان شاهد النبي ﷺ على بيعتة لوفلتالة. وهوأحد أبطال

حروب الردّة حتى أتم الله نعمته، وأظهر دينه على الدين كله، وردّ كيد الكائدين إلى نحورهم. وقضى على الفتنة في مهدها.

وعندما تولّى عمر بن الخطاب الخلافة فإنه أقام العدل على طريقته العمرية، فقد كان يختار عماله اختيارًا دقيقًا يستشير فيه أهل التقى من المسلمين ويستخير الله عز وجل، ويستعمل بصيرته الكاشفة وفراسته النافذة، وملاحظته التي تدق حتى تبصر فتكون عينًا أخرى بجوار عين رأسه وعين قلبه وعيون أصحابه وأهل مشورته.

بذل جهده حتى انتهى إلى رجل ليستعمله على إحدى بقاع الدولة، وفي جلسة الوداع بينهما التي يوصيه فيها عمر ويستمع منه تشعب الحديث بينهما فقال الرجل: لقد رأيت رؤيا ما زلت أعجب لها، فسأله عمر عن رؤياه، فقال الرجل، رأيت كأن خلافًا شديدًا نشب بين الشمس والقمر، فسأله عمر: ولمن كانت الغلبة؟ قال الرجل: كانت الغلبة للقمر، فقال عمر: فالحق ببيتك فإني لن أوليك هذا العمل، وعندما سأله الرجل عن سبب ذلك، قال له: تذكرت قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء ١٢)، ورعاية شئون المسلمين والقيام بأمرهم تحتاج إلى الآية المبصرة.

مع هذه الدقة في الاختيار فإنه كان يخشى على العامل أن تفتنه الدنيا أو تدفعه السلطة إلى الظلم، فكان محمد بن مسلمة هو عينه على عماله يرسله كل حين يراقب عمل الوالي ويسأل عنه الرعية، وينقل نبأه إلى عمر ويأخذ عمر بمشورته، وكان عمر يخشى أن تدخل أموال الوالي شبهة أن تروج تجارتهم بسبب سلطانهم فكان يرسل محمدًا بن مسلمة يقاسمهم أموالهم فيترك لهم شطرها، ويحمل شطرها إلى بيت مال المسلمين.

شكا أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص إلى عمر في كل شيء حتى قالوا: لايحسن يصلي، وقال لهم عمر: إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الحال عليه، وهو مستعد لقتال أعداء الله، وقد جمعوا لكم، ومع هذا لا يمنعني أن أنظر في أمركم، ثم بعث محمد بن مسلمة فقدم الكوفة وطاف على القبائل والعشائر والمساجد فكل يثني على سعد خيرًا، إلا ناحية الجراح بن سنان الذي ذهب بالشكوى إلى المدينة فإنهم سكتوا، فلم يذموا ولم يشكروا، حتى إذا انتهى إلى بني عبس فقام رجل منهم اسمه أبو سعدة أسامة بن قتادة، أما إذ ناشدتنا فإن سعدًا لايقسم بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولايغزو في السرية، ثم إن محمدًا بن مسلمة استنفر أهل الكوفة لغزو الفرس في نهاوند، وكان محمد بن مسلمة قد أحرق باب سعد وخصه بالكوفة كما أمره عمر ولم يخش في الله لومة لائم.

عندما نشبت الفتنة في عهد عثمان، وجاء المصريون في المرة الأولى توسط محمد بن مسلمة بينهم وبين عثمان، فأصلح بينهم، وأقنعهم بالرجوع حتى عثروا في طريقهم على كتاب عليه ختم عثمان يوصي عبد الله واليه على مصر بقتلهم إذا عادوا، فرجع الناس مصرين على الشر فرفض أن يتوسط بينهم مرة أخرى.

بعد مقتل عثمان ﷺ بايع محمد بن مسلمة عليًا أميرًا للمؤمنين، لكنه رأى بابًا واسعًا للفتنة يفتح على مصراعيه فهؤلاء أصحاب النبي ﷺ يختلفون، والشر تبرز قرونه بينهم، فكانت ذروة المواقف التي كان من أبطالها محمد بن مسلمة فارس رسول الله ﷺ.

عن ضبيعة الثعلبي قال: كنا جلوسًا مع حذيفة بن اليمان صاحب سر النبي ﷺ فقال: إني لأعلم رجلاً لا تنقصه الفتنة شيئًا، أو لا تضره الفتنة، محمد بن مسلمة، فلما مات حذيفة وكانت الفتنة خرجت فيمن خرج من الناس، فأتيت أهل ماءٍ -عند الربذة- فإذا أنا بفسطاط مضروب متنحّى تضربه الرياح، فقلت لمن هذا الفسطاط؟ قالوا: لمحمد بن مسلمة، فأتيته فإذا هو شيخ، فقلت له: يرحمك الله، أراك رجلاً من خيار المسلمين تركت بلدك ودارك وأهلك وجيرتك، قال تركته كراهية الشر، ما في نفسي أن تشتمل على مصر من أمصارهم حتى تنجلي عما انجلت.

أخبر زيد بن أسلم عن محمد بن مسلمة قال: أعطاني رسول الله ﷺ سيفًا فقال: يا محمد بن مسلمة، جاهد بهذا السيف في سبيل الله، حتى إذا رأيت من المسلمين فتتين تقتتلان فاضرب به الحجر حتى تكسره - وفي رواية فاذهب إلى أحد فاكسره — ثم كف لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية أو يد خاطئة، فلما قتل عثمان وكان من أمر الناس ما كان خرج إلى صخرة في فنائه فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره.

واتخذ محمد بن مسلمة سيفًا من عود قد نحته وصيره في الغمد معلقًا في فسطاطه وقال: إنما علقته أهيّب به ذاعرا.

محمد بن مسلمة صاحب المبدأ القويم، المجاهد حين تكون الرؤيا واضحة أمامه، والذي سكن المدينة، ولم يتخذ غيرها دارًا، يخرج من أهله وداره وأولاده العشرة وبناته الست، ونصب لنفسه خيمة في مفترق الطرق عند الربذة، وكسر سيفه ويصمت يخشى أن ينتصر لفريق فيكون الحق مع غيره، ولا يخوض في أمر الناس. ويبقى على صمته المعبّر الفصيح حتى تأتيه المنية القاضية التي وعدها الله عز وجل كل حيّ سنة ست وأربعين

وهو ابن سبع وسبعين سنة، وهناك يكلم ربه بحجته ويشكو إليه بثه وحزنه، فيجده سميعًا مكافئًا، يقبل من عبده القليل، ويجزي عليه بالكثير، ولكن ابن مسلمة قدم الكثير الذي يتقبله من يتقبل من عباده أحسن ما عملوا، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا.





عبدالله بن جحش (١)

أحد أفراد البيت الذي دخل كل رجاله ونسائه الإسلام. وابن أميمة بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ. وأخته زينب بنت جحش أم المؤمنين، التي ذكر الله عز وجل قصة زواجها ليقرر بهذا الزواج حكمًا فقهيًا يُعيد به الاحترام إلى الأنساب، ويُسمي كل واحد باسم أبيه، وذلك من بر الولد بأبيه، وبر الأب بابنه. وأمير أول سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وفارس بدر، والمجدّع في الله في أحد.

ولكننا نعود إلى أول شعاع الضوء، فذلك أحرى أن يصل بنا إلى هالة النور.

على مشارف الثلاثين بلغت رسالة الإسلام إلى عبدالله بن جحش وأخويه وبقية عشيرته، فأسلم عبدالله وعبيدالله وأبوأحمد عبد بن جحش أبناء أميمة بن عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ، فاستجابوا له جميعًا قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، ودخلوا بذلك في ديوان السابقين الأولين الذين أشاد بهم رب العزة سبحانه وتعالى في كثير من آيات القرآن الكريم.

أوذوا في الله كما أوذي السابقون ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فما وهن لهم عزم، ولا لانت لهم قناة، وعَلم الله عز وجل أنهم من الصادقين.

هاجروا جميعًا إلى الحبشة وبعدها إلى المدينة وكانوا أول فوج وصلها، ونزلوا على مبشر بن عبدالمنذر، وأغلقت دورهم وكانت الرياح تصفقها، وأهل مكة يستوحشون لفقدهم وينسبون خرابها كجزء من أفاعيل النبي ﷺ بأهل مكة.

لم يدرك مشركو مكة أن الهجرة بعث وحياة، وأن المهاجر إنما يخلف وراءه موتًا لا يحب أن يعود إليه، وظلامًا يؤذي عينه أن يتذكره ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ**

نورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام ١٢٢). إن الهجرة إعادة لاستقامة الإنسان بعد أن نكس على رأسه في الضلال، وبلوغ به إلى أحسن تقويم بعد أن انحدر إلى أسفل سافلين، حيث أغلق عينه عن النور، وقلبه عن الهدى، وأذنه عن الحق، فعاش في عماء وخواء ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۞ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ۞ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۞ إِنْ أَنتَ إِلا نَذِيرٌ ۞ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر ١٩-٢٤).

يخطئ أهل مكة إذ رأوا في الهجرة انتقالاً جسديًا من بلد إلى بلد، ذلك أن الأجساد هي الصور التي لا يأبه الله عز وجل بها، ولا ينظر إليها، فالله عز وجل ينظر للقلوب والأعمال، لا للصور والأشكال، وإذا عمرت القلوب بمحبته، نزع منها محبة ما سواه، من بيت أو أهل أو عشيرة، فهو بالله ورسوله في سكن أنعم من البيت وأورف ظلاً، وفي عشيرة أكثر عزًا، وفي أهل أعظم أنسًا، وفي غنى أبقى وأغلا ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة ٢٤).

يُعْجَب الكافر بما يجمعه في الدنيا من مال وولد، ويُنكر فضل الله الذي وهبه، ويعمى عن وجوده وعن جوده، فينقلب ذلك وبالاً عليه في الدنيا والآخرة. وقد حذرهم الله عز وجل من نقمته عليهم بما يرونه مغنمًا، وفي آيتين في سورة التوبة يكاد التطابق في الألفاظ يكون كاملاً فيهما، يحذر أن يُفتن المسلمون بما يصيب الكافرين من متاع الدنيا، ويحذر الكافرين كذلك بأن هذا الذي كان يمكن أن يُعتبر نعمة وهبة وسبيلاً إلى السعادة إذا قوبل الشكر ينقلب عليهم وبالاً وشرًا مستطيرًا بالعجب والبطر ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة ٥٥) ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة ٨٥).

لقد باع المهاجرون دنياهم بآخرتهم، وأخربوا بيوتهم في مكة ليعمروا قصورهم في الجنة، وتركوا زادهم وتزودوا بالتقوى وهي خير زاد، وتبوءوا الإيمان سكنًا آمنًا، وتخلصوا من ماضيهم ليبدءوا حياتهم الجديدة على أسس من العقيدة الصافية، والشريعة السمحة، وفي ظل علاقات اجتماعية يضعون دعائمها لمن بعدهم، فتم لهم هجرتان.. بالبدن

والقلب، وتبوءوا دارين.. يثرب والإيمان، وعاشوا لغايتين.. الله والجنة، واتخذوا لذلك وسيلتين.. الجهاد وصالح الأعمال، ونعموا بسعادتين.. رضا الله ورسوله، وأخوة المؤمنين.

لا عجب حينئذ أن يكون بنوغنم بن دودان ومنهم عبدالله بن جحش أسرع الناس إلى الهجرة، لأن هذا يتفق مع سبقهم للإسلام، وكِلا الأمرين الإسلام والهجرة أمر الله إلى عباده، وحكمته فيهم، ومنته عليه ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران ١٦٤)، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات ١٧).

كان عبدالله بن جحش رجلاً حازمًا شديد الصلابة على نفسه وعلى أعداء الإسلام، ولقد يشتد عليه الجوع والعطش فلا يهن من عزمه، ولا يصرفه عن وجهته إذا كانت لله ورسوله، وهذه الصفة أهلته ليكون أول أمير في الإسلام يستعمله النبي ﷺ على إحدى سراياه.

بعد أن وضع النبي ﷺ نواة الدولة في المدينة ببناء المسجد الشريف، والصلح بين الأوس والخزرج، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ووضع دستور التعايش في الدولة بين المسلمين واليهود، وضع الله مهابته في نفوس عرب الجزيرة، ودخلتهم الخشية من هذا الكيان النامي في ظل الإيمان والقوة. فَقَدِمَتْ جهينة إلى المدينة، وقالوا للنبي ﷺ إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا أي عاهدنا على النصرة والأمن ونحن نأتيك بقومنا، فأوثق لهم فأسلموا جميعًا، ثم إن النبي ﷺ أرسل من أصحابه قريبًا من مائة، وأمرهم أن يُغيروا على حيّ من بني كنانة إلى جنب جهينة، فأغاروا عليهم وكان عدد الكنانيين كبيرًا، فنفروا لملاقاة المسلمين، فلجأ المسلمون إلى جهينة فمنعوهم، وقالوا لهم: لم تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقال الصحابة لبعضهم: ماترون؟ فقال فريق منهم: نأتي رسول الله ﷺ فنخبره بما قالت جهينة، ورأى فريق آخر أن يبقوا في جوار جهينة حتى ينتهي الشهر الحرام، في حين رأى فريق ثالث أن يخرجوا لعير قريش فيقتطعون منها، وانطلق كل فريق إلى ماعزم عليه، وتفرقت كلمتهم، فقال النبي ﷺ للفريق الذي ذهب إليه وقد غضب حتى احمر وجهه: أذهبتم من عندي جميعًا، ورجعتم متفرقين؟ إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة.

أراد النبي ﷺ أن يلقن أصحابه درسًا عمليًا في ضرورة أن يكون لهم أمير له سلطة الأمر والنهي، وعليهم واجب السمع والطاعة في غير المعصية، فكلفهم بأمر ولم يول

عليهم أميرًا، ولـم يفكروا هم في أن يختاروا من بينهم من يكون له حق الطاعة عليهم، وإذ واجههم ما يمكن أن يواجه مثله من يكون في موقعهم، فقد تعددت الاجتهادات، ونهـض كل فريق للوفاء بما ألزم نفسه به.

نتج عن ذلك أن تفرق الجمع، وتضاءلت القوة إلى الثلث، وإذا كانت حكمة النبي ﷺ رأت أن هذا العمل يقـوم بـه مائـة، فـإن عـدم حكمـة أصحابـه أنقصـت هـذا العـدد فضعفت القوة عما اقتضته الحكمة.

ليس هناك أدنى ريب في قوة إيمان أصحابه، ولا في صدق نياتهم، ولا في نصحهـم للـه ولرسوله، ولكن صدق النية في حاجة إلى حسن العمل، وليـس مـن حسـن العمـل أن تتفرق الكلمة، وبسبب ذلك احمرّ وجهه ﷺ من الغضب ولامهم على أن لـم يظلوا علـى حالهم الذي تركوه وهم عليها.

فإذا أمرهم بعد ذلك بقوله: (إذا كنتم ثلاثة فأمِّروا عليكم واحدًا) ، فإنهم قد لمسوا صدق ذلك في أنفسهم. وإذا قال لهم: اسمعوا وأطيعوا وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشـيٌّ رأسـه كأنه زبيبة، فإن تجربتهم تجعل الحكمة من هذا القول الحكيم لا تحجب عنهم.

بعد أن لامهم النبي ﷺ على تفرقهم وهم مائة، قـال: لأبعثـن عليكـم رجـلاً ليـس بخيركم، أصبركم على الجوع والعطش. فبعث عبداللـه بـن جحـش الأسـدي أمـيرًا علـى سرية من سبعة أو ثمانية من صناديد المهاجرين، كـل واحـد منهـم يصلـح أن يكـون قـائدًا لجيش بأكمله، وأميرهم صنديد مثلهم حتى يعلـم أصحابه أن العدد القليل الذي اجتمعـت كلمته على أمير من بينهم يستطيع أن يُنجز أكمل مما يمكن أن يقوم بـه عـدد كبـير قَسَّـمَهُ التفرق.





عبدالله بن جحش (٣)

انتدب النبي ﷺ سبعة أو ثمانية من المهاجرين، منهم سعد بن أبي وقاص، وعُتبة بن غزوان وكانا يعتقبان بعيرًا واحدًا وعكاشة بن محصن، وأبوحذيفة بن عتبة، وواقد بن عبدالله، وسهل بن بيضاء، وأمَّرَ عليهم عبدالله بن جحش، وفي رواية ابن كثير أنها أولى السرايا في الإسلام، وسُمي فيها عبدالله بن جحش أمير المؤمنين.

كتب النبي ﷺ كتابًا لعبدالله بن جحش وأمره أن لا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين في طريق مكة، فإذا قرأ الكتاب أخبر به أصحابه وأخبرهم أن لا يسير معه واحد منهم وهو مستكره على ذلك، فمن أراد الرجوع فليرجع غير ملوم ولا خاطئ.

فلمَّا سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم. فلمَّا نظر عبدالله بن جحش في الكتاب قال: سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بما فيه وقال: لقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة، أو يرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، أما أنا فماض لأمر رسول الله، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد، وعندما اجتازوا منطقة بحران في الحجاز أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما فتخلفا يبحثان عنه، وانطلق هو بمن بقي معه حتى نزل نخلة، فمرَّت قافلة لقريش فيها عمرو الحضرمي، ونزلت العير قريبًا من الموضع الذي ينزل فيه عبدالله بن جحش ورجاله، فلمَّا رآهم القوم هابوهم، وتوجسوا منهم، وحاولوا الاستعداد لملاقاتهم، فربما كانوا من قطاع الطرق الذين يُغيرون على القوافل.

انتبه لذلك عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه فنزع غطاءها وأشرف عليهم،

فقالوا لبعضهم: إنهم عمّارٌ لا بأس عليكم منهم، وأمنوا جانبهم. وجلس ابن جحش مع أصحابه يتشاورون في هذا العنصر الذي طرأ على مهمتهم. لقد جاءوا للتعرُّف على أخبار قريش، لكن هذه القافلة التي رأتهم تنذر بخطر داهم يتهددهم، وإذا كانت خدعة عكاشة قد هدأتهم، غير أنهم إذا دخلوا مكة وأصبحوا بين ذويهم وفي منعتهم، فلا يُؤمن أن يتحرك جانب الخوف والتوجس في أهل مكة فيخرجوا إليهم، فتفشل مهمتهم، وتغلب رأي الحزم الذي يقضي بمهاجمتهم وسلب ما يمكن سلبه معهم، والتعجيل بالعودة قبل أن تنفر قريش لهم.

لكنهم ووجِهُوا بمعضلة أخرى، فاليوم قد يكون آخر يوم في رجب، أو أول يوم في شعبان، ورجب من الأشهر الحرم التي يأمن فيها العرب فلا يُغِيرون على بعضهم، وتتوقف الحروب فيما بينهم. فإذا أخذوا الحيطة بالنسبة للشهر الحرام فقدوا حيطتهم لأنفسهم، وحرصهم على نجاح مهمتهم، وإذا أخذوا بالحزم فهاجموا القافلة ولا يسلم أن يكون هذا آخر يوم في رجب فتحوا مجالاً للمشركين للوقيعة بين العرب والإسلام، ولكن النبي ﷺ لم يأمر ولم ينه في أمر قتالهم في الشهر الحرام، وقد بعثهم فيه، فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ مامعهم، فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وطلب الأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان، وأفلت الآخرون، وتركوا العير وراءهم، وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا المدينة، فقال لأصحابه: نجعل لرسول الله ﷺ الخمس فيما غنمنا، ولم يكن القرآن قد جاء بتخميس الغنائم، فعزل الخمس والأسيرين، وقسم الغنائم عليه وعلى أصحابه.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فأسقط في أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، وكان يرد عليهم من بقي في مكة من المسلمين بقولهم: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.

وفَرِحَ اليهود وتفاءلوا بحرب ضروس بين المسلمين والمشركين، وقالوا القاتل واقد، فقد وقدت الحرب، والمقتول عمرو فقد عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب.

فلما أكثر الناس في ذلك، واشتد الجدال بينهم أنزل الله عز وجل في ذلك قوله

تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ، وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة ٢١٧)، أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم، والفتنة أكبر من القتل، أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مازالوا مصرين على المكر بكم والكيد لكم، والإصرار على معصية الله عز وجل بحرصهم على فتنتكم وردكم عن دينكم ماوجدوا إلى ذلك سبيلا ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة ٢١٧).

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرَّجَ الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف والإشفاق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت قريش في فداء أسيريها، فقال النبي ﷺ: لا نفديكموهما حتى يحضر صاحبانا: سعد وعتبة، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم، فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله ﷺ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قُتِلَ يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبدالله فلحق بمكة ومات بها كافرًا.

فلمَّا تجلى عن عبدالله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طَمِعُوا في الأجر، فقالوا: يارسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزاة نُعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ، والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة ٢١٨)، فكانوا من هذه الليلة على أعظم رجاء بنزول هذه الآية المباركة التي وصفتهم بالإيمان وأشادت بهجرتهم، وجعلتهم مجاهدين في سبيل الله، راغبين في رحمته، فهم في هذه الآية على رغبة كبيرة ورجاء عظيم في الله عز وجل أن يكونوا مشمولين برحمته، وعقب في آخر الآية بأنه غفور رحيم، وفي هذا التعقيب طمع في الرجاء وتطلع إلى تحقيقه.

قال ابن هشام: كان ابن الحضرمي أول قتيل قتله المسلمون، وهذه أول غنيمة غنمها المسلمون، وعثمان والحكم أول أسيرين أسرهما المسلمون، وفي هذه السرية سمي عبدالله بن جحش أمير المؤمنين، وقد أنشأ عن هذه السرية بعد أن فرج الله كربه:

تعدون قتلا في الحرام عظيمة	**وأعظم منه لو يرى الرشدَ راشدُ**
صدودكم عما يقول محمد	**وكفر به والله راء وشاهد**

وإخراجكم من مسجد الله أهله	لئلا يرى لله في البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله	وأرجف بالإسلام باغ وحاقد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا	بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما وابن عبدالله عثمان بيننا	ينازعه غل من القيد عاقد

ما نتج عن هذه السرية من عبر ودروس، وما تخلف عنها من أحكام فقهية، وما أثارته من جدل، وما نزل فيها من قرآن، لا يشغل عن الدرس الأول الذي وجدوه في أنفسهم، فإن مائة أو يقاربها لم ينجزوا ما أنجزه عدد قليل بالوحدة، واتفاق الكلمة، والقيادة المؤمنة التي حين بلغها أمر النبي ﷺ قالت: سمعًا وطاعة، ثم التفت إلى أصحابه وقال: إني موصٍ وصيتي، وماضٍ لما أمرني به رسول الله ﷺ، فمن أراد أن يتبعني فليوص.

المنهج واضح، والمشرع حدد لهم الهدف، والأمير ملتزم بوضوح المنهج، ومتبع لهدف المشرِّع، والرعية أسلمت نفسها لله، وأسلمت قيادتها لأميرها، والأمر شورى بينهم ﴿...وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ...﴾ (آل عمران ١٥٩) فهو لا يقطع أمرًا بغير مشورتهم، لكنهم لا يبرمون أمرًا إلا إذا أقرَّه، وعزم عليه، وهو أصبرهم على الجوع والعطش، والإمارة ليست مكانًا فوق الرءوس، ولا استبدادًا ولا تشريفًا، وإنما هي تكليف، وبذل للنفس في سبيل المأمورين، وحرصًا على أن يتحقق هدفهم بأقل ضرر يصيبهم.

وكانت سرية عبدالله بن جحش هذه الحافلة بأحداثها وعبرها وأحكامها مقدمة لغزوة بدر.. يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان.





عبدالله بن جحش (٣)

بعد سرية عبدالله بن جحش بشهرين، سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن صخر مقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال وتجارة، وفيها ثلاثون أو أربعون رجلاً، وكان في العير ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها. وعلم موعد قدومها فانتدب الناس إليها، فخف بعضهم، وثقل بعض، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا.

علم أبوسفيان عن طريق عيونه بما عزم عليه رسول الله ﷺ فأرسل إلى قريش يستنفرها، وفي الوقت نفسه غير طريق قافلته، وقبل قدوم ضمضم إلى مكة بثلاث ليال رأت عاتكة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبدالمطلب، فقالت له: ياأخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عليّ ما أحدثكه، قال لها: وماذا رأيت؟ قالت: رأيت راكبًا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته، ألا انفروا ياآل غدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، ثم صرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل، ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منه فلقة.

قال العباس: والله إن هذه لرؤيا فاكتميها ولا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة وكان صديقًا له فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لابيه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش، قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت، وأبوجهل في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبوجهل قال: ياأبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلمّا فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال

أبوجهل: يابني عبدالمطلب متى حدثت فيكم هذه النبية؟ فقلت: وماذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة، قلت: ومارأت؟ قال: يـابني عبدالمطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقًا ما يقول، فستكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب، فجحدت أن تكون قد رأت شيئًا، ثم تفرقنا فلما أمسيت لم يبق امرأة من بني عبدالمطلب إلا أتتني فقالت: أأقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيرة لما سمعت؟ قلت: قد فعلت، ولكن وايم الله لأتعرضن له وإذا عاد لأكفينّكه.

قال العباس: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا حديد مغضب، أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه، فدخلت المسجد فرأيته، فوالله إني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلاً خفيفًا حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر، إذ رأيته يخرج من باب المسجد يشتد، فقلت في نفسي، ماله لعنه الله، أكل هذا من الخوف أن أشاتمه، وإذا هو قد سمع ما لم أسمع، صوت ضمضم الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره وقد جدعه، وحول رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يامعشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث.. الغوث، فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر، فتجمهر الناس سراعًا وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرميّ.

وعندما التقى الجمعان في بدر، أشار على القوم عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام أن يعودوا إلى مكة مادامت العير قد نجت، وتعهد عتبة بدفع دية عمرو بن الحضرمي الذي قُتل في سرية عبدالله بن جحش، فإن أبا جهل لم يعجبه ماسمع، وأمر عامر بن الحضرمي أن يصرخ مطالبًا بدم أخيه، فقام صارخًا، واعمراه، واعمراه، فوقعت الحرب ولم يعد مجال للرجوع.

وقد بدا للوهلة الأولى كثرة العَدَد وقوة العُدَد عند المشركين، وبدا معها تفرق الكلمة، وتصدع البنيان، مع فساد المنهج وانعدام الهدف، واستبداد القيادة. وبدا كذلك قلة عدد المسلمين، وانعدام عُدتهم، لأنهم خرجوا لثلاثين أو أربعين رجلاً يسيرون بالقافلة، ولم يكن في الحسبان أن يلتقوا بأكباد مكة وقد خرجت جميعًا تبحث عنهم، وتعزم على أن تثأر منهم أو أن تستأصل شأفتهم إن استطاعت.

ولكن هذه الفئة القليلة كانت تسير على منهج صحيح، وفي ظل قيادة حكيمة،

وعلى هدي من عقيدة في الله عز وجل يجعلها تبذل نفسها في مرضاته، وتثق في أن قوته تجبر ضعفها، وأن عينه تكلؤها، وأن نصره لها واقع لا محالة، إما بهزيمة الأعداء، أو بالفوز بالشهادة، فالمؤمن منتصر على كل حال: إذا هزم أعداء الإسلام فإنه انتصر بجعله كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وإن أدركته الشهادة، أو أدركها فقد انتصر إذ تحقق له مطلب الأنبياء والأبرار بأنه أقرض الله نفسه أو باعها له، ومن ثَمَّ يأمل أن يُضَاعف له القرض، وأن يربح له البيع.

كان عبدالله بن جحش من الذين انتصروا لله بأنفسهم فنصرهم بأن حقق لهم الغلبة على أعدائهم، ولكن عبدالله يأمل في أن ينصر الله في نفسه بأن يقرضه إياها أو أن يبيعها له، وهذا ما عزم عليه عبدالله في أحد، وأربح الله عز وجل له بيعه فيها.

وكان عبدالله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية مشوا في رجال من قريش أصيب أباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أباسفيان، ومن له في تلك العير تجارة، فقالوا: يامعشر قريش، إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، ولعلنا ندرك منه ثأرًا، ففعلوا، وفيهم أنزل الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ، فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾** (الأنفال ٣٦).

فخرجت قريش بجدها وحديدها، وأحابيشها ومن تابعها من أهل تهامة، وبني كنانة، وأخذوا النساء معهم حتى يستثرن حفيظتهم ويمنعنهم من الفرار، ومازال المسلمون بالنبي ﷺ حتى خرج بهم إلى أحد لملاقاة قريش، وكان من رأيه أن يُقيم بالمدينة فيقاتلهم فيها.

في ليلة أُحد نزل النبي ﷺ منزلاً فأصبح فيه، ومعه رجال منهم عبدالله بن جحش، فجاءته أم سلمة بكتف مشوية فأكل منها وأكل معه عبدالله بن جحش حتى شبع، ثم جاءته بشراب فشرب منه، وشرب بعده رجل، ثم أخذ الإناء عبدالله بن جحش فعب منه عبًّا، فقال له رجل: بعض شرابك، أتدري أين تغدو؟ قال: نعم، ألقى الله وأنا ريان أحب إليَّ من أن ألقاه وأنا ظمآن.

قال سعد بن أبي وقاص: وقفنا أنا وعبدالله بن جحش غداة أحد ندعو الله عز وجل، فدعوت الله أن ألقى فارسًا من المشركين فأقتله، وأستلبه، أما عبدالله بن جحش

فقال: اللـهم إنا لاقوا هؤلاء غدًا، فإني أقسم عليك لما يقتلوني ويبقروا بطـني ويجدعوني، فإن قلت لـم فعل بك هذا؟ فأقول اللـهم فيك.

قال سعد وقد استجاب الله دعائي فلقيـت رجـلاً مـن المشـركين فقتلتـه وأخـذت سلبه، وأما عبدالله بن جحش فقد وقفت عليه وقد قتلوه ومثلوا به، وبقروا بطنه وجدعوا أنفه، فقلت: أما هذا فقد أُستجيب له وأعطاه الله ما سأل في جسده في الدنيا، وأنا أرجو أن يُعْطَى ما سأل في الآخرة.

في أتون المعركة انقطع سيف عبدالله بن جحش، فأعطاه النبي ﷺ عرجونًـا فصـار في يده سيفًا يقاتل به، ثم بيع في تركة بعض ولده بمائتي دينار.

وسُميَّ عبدالله بعد أُحد بالمجدع في الله، وكان قد أوصى النبي ﷺ بأولاده، وأمر بأن يدفن مع خاله حمزة في قبر واحد، ثم وقف على شهداء أحد وقـال: أنـا شـهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يُجرح في سبيل الله إلا والله يبعثـه يـوم القيامـة، يدمـى جرحـه، اللون لون الدم، والريح ريح مسك.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعـل اللـه أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل مـن ثـمارها، وتـأوي إلى قنـاديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قـالوا من يبلغ عنا إخواننا أنا أحياء في الجنة نُرزق لئلا ينكلـوا عـن الحـرب ولا يزهـدوا في الجهـاد، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله في الكتاب قولـه تعـالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَـم يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلا هُـمْ يَحْزَنُـونَ ﴾ (آل عمران ١٦٩-١٧٠).





أبو سبرة بن أبي رهم

عامريّ من جهة أبيه أبي رهم بن عبدالعزى القرشي العامريّ، وأمه برة بنت عبدالمطلب بن هاشم، وهي أم أبي سلمة بن عبدالأسد، فهو أخوه لأمه.

كان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة المنورة. آخى النبي ﷺ بينه وبين سلامة بن وقش. شهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. كتب بسيفه صفحات ناصعة في ساحة الجهاد في سبيل الله عز وجل تحوطها هالات من الضياء يرى على أشعتها صفاء سماء الجنة، وعذوبة أنهارها، وطيب ريحها، عرفها وسعى إليها، ولم يأل جهدًا في أن يتبوأ أعلى درجاتها ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (محمد ٤-٦).

كثرت صفحات جهاده حتى كونت سفرًا كبيرًا يحمل تاريخًا عريضًا منذ شب عن الطوق في الإسلام والهجرة، وإلى أن أصبح قائدًا حكيمًا يتقدم الأشاوس من أصحاب محمد ﷺ فيدوّخ بهم قواد الفرس الذين ورثوا الحرب كابرًا عن كابر، وأزعجوا سرير هرقل، وزلزلوا سلطان الروم.

بعد معركة القادسية وكان سبرة من أبطالها تغلب الهرمزان الأمير الفارسي وكان قد فر من القادسية على بعض البلاد التي فتحها المسلمون، فجهز أبوموسى الأشعري جيشًا من البصرة، وجهز عتبة بن غزوان جيشًا من الكوفة، وسار الجيشان حتى طوقا جيش الهرمزان ونصرهم الله عليه، وغنموا من جيشه ماغنموا، وقتلوا من قتلوا، ثم صانعهم الهرمزان حتى صالحوه، وأرسلوا الخمس والبشرى إلى عمر ﷺ خليفة المسلمين.

ولكن الهرمزان مالبث أن نقض العهد والصلح، واستعان بطائفة من الأكراد، وغرته نفسسه وحسَّنَ له الشيطان عمله، فبرز إليه صناديد المسلمين وفيهم سبرة بن أبي رهم، فنُصِروا عليه، وقتلوا من جيشه خلقًا كثيرًا، وسلبوا ما بأيديهم من الأقاليم والبلدان، وقال في ذلك الأسود بن سريع رضي الله عنه :

لعمرك ما أضاع بنو أبينا	ولكن حافظوا فيمن يطيعوا
أطاعوا ربهم وعصاه قوم	أضاعوا أمره فيمن يضيع
مجوس لا ينهنها كتاب	فلاقوا كبّة فيها قبوع
وولى الهرمزان على جواد	سريع الشد يلعنه الجميع
وخلى سره الأهواز كرها	غداة الجسر إذ نجم الربيع

وركب العلاء بن الحضرمي البحر بجند من المسلمين لحرب الفرس رغم تحذير عمر من ركوبهم البحر حرصًا على المسلمين لأنهم لم يسبق لهم التدريب على ركوبه في قتال، فغرقت سفنهم ولم يستطيعوا الرجوع، وحاصرهم الفرس من كل وجه، وبلغت هذه الأخبار عمر رضي الله عنه فغضب من العلاء وعزله وأرسل إلى عتبة بن غزوان أن ينتدب الناس لفك حصار إخوانهم، وأن يولي عليهم سبرة بن أبي رهم، وانتدب عتبة معه جماعة من الأمراء الأبطال منهم هاشم بن أبي وقاص، وعاصم بن عمر، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، والأحنف بن قيس وغيرهم في اثني عشر ألفًا، وأمرهم أن يسمعوا ويطيعوا لسبرة، فخرجوا على البغال ومعهم خيولهم، وساروا على الساحل حتى انتهوا إلى موضع الوقعة التي كانت بين المسلمين من أصحاب العلاء وبين أهل فارس ويسمى (طاوس) ، وإذا خليد بن المنذر ومن معه من المسلمين محصورون، قد أحاط بهم العدو من كل جانب، وقد تداعت عليهم الفرس من كل وجه، وقد تكاملت أمداد المجوس، ولم يبق إلا القتال، فقدم المسلمون إلى إخوانهم وهم أحوج إليهم، فالتقوا مع المشركين أول ما قدموا، فكسر أبوسبرة المشركين، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وأخذ منهم أموالًا طائلة، واستنقذ خليدًا، ومن معه من المسلمين من أيديهم، وأعز الله به الإسلام وأهله، ثم عادوا إلى البصرة.

واستأذن عتبة بن عزوان في الحج، وولى مكانه سبرة بن أبي رهم حتى يعود، ولكن عتبة مات بعد أن دعا الله أن لا يرجعه إلى البصرة، فولى عمر مكانه المغيرة بن شعبة، ثم لم يلبث أن عزله لأقوال ترددت عنه وولى مكانه أبوموسى الأشعري.

وكان يزدجرد ملك الفرس يحرض على المسلمين ويجمع لهم فأرسل إليه عمر جيشًا

من أهل القادسية وأهل الكوفة، فهزموا جيش الفرس الذي كان يقوده الهرمزان، وفر الهرمزان إلى تستر، فخرج إليه جيش البصرة والكوفة جميعًا بقيادة أبي سبرة بن أبي رهم، فوجدوا الهرمزان قد حشد في تستر جيشًا كثيفًا، فأرسل أبوسبرة إلى عمر يطلب المدد، وكتب إلى أبي موسى فسار إليهم أبوموسى بمن معه، وكان أبوموسى أمير أهل البصرة، والنعمان بن مقرن أمير أهل الكوفة، وأبوسبرة أمير الجيش كله، فحاصرهم أشهرًا، وكثر القتل بين الفريقين، وقتل البراء بن مالك أخو أنس بن مالك وحده مائة مقاتل مجوسي في المبارزة، وفعل كثير مثله فعله، ثم التحم الجيشان في معركة فاصلة شديدة الشراسة، ولما رأى المسلمون كثرة الفرس، طلبوا من البراء وكان مستجاب الدعاء أن يدعو الله عز وجل لينصرهم، فقالوا يابراء: أقسم على ربك ليهزمنهم لنا، فقال: اللهم اهزمهم لنا، واستشهدني، فدارت الدائرة على الفرس حتى أدخلوهم خنادقهم، ثم اقتحموها عليهم، ولجأ الفرس إلى البلد فتحصنوا بها، ولكن أهل البلدة ضاقوا بجنود الفرس فخرجوا إلى المسلمين يطلبون منهم الصلح، ووافق المسلمون على ذلك بشرط أن يرشدوهم إلى طريق يدخلون به إلى جنود الفرس، فدخل جماعة من شجعان جيش أبي سبرة في مجرى الماء مثل البط، وذلك في الليل، حتى دخلوا إلى الحراس فقتلوهم، وفتحوا الأبواب، وكبّروا فدخل المسلمون، وقد أذهلهم ذلك عن صلاة الفجر حتى تعالى النهار، ولم يصلوا الصبح يومئذ إلا بعد طلوع الشمس.

حكى البخاري عن أنس بن مالك قال: شهدت فتح تستر، وذلك عند صلاة الفجر، فاشتغل الناس بالفتح، فما صلوا الصبح إلا بعد طلوع الشمس، فما أحب أن لي حمر النعم بتلك الصلاة. وهذا نظير تأخير النبي ﷺ صلاة العصر حتى غربت الشمس، وقال فيها: (شغلونا عن صلاة الوسطى، ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا) .

ثم لجأ الهرمزان إلى القلعة فاعتصم بها، وحاصره المسلمون، فقال لهم: إن معي جعبة فيها مائة سهم، وإنه لا يتقدم لي أحد منكم إلا رميته بسهم، ولا يسقط لي سهم إلا في رجل منكم، فماذا ينفعكم إن أسرتموني بعدما قتلت منكم مائة رجل؟ قالوا: فماذا تريد؟ قال تؤمنوني حتى أسلمكم يدي فتذهبوا بي إلى عمر فيحكم فيّ بما شاء، فأجابوه إلى ذلك، فألقى قوسه وأسروه فشدوا وثاقه وأرصدوه ليبعثوا به إلى أمير المؤمنين.

ركب أبوسبرة في طائفة من الناس منهم أبوموسى الأشعري والنعمان بن مقرن، واستصحبوا معهم الهرمزان، فطاردوا فلول الفرس حتى لجأوا إلى السوس، فكتب أبوسبرة إلى عمر فأمره أن يرجع أباموسى إلى البصرة، وزر بن عبدالله إلى جندسابور، ثم ارسل

أبو سبرة خمس الغنائم والهرمزان إلى عمر مع وفد، منهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس.

لما اقترب الوفد من المدينة هيأوا الهرمزان بملابسه التي كان يلبسها من الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللآلي، فدخلوا المدينة وهو كذلك، فتيمموا به منزل أمير المؤمنين فسألوا عنه، فقالوا إنه في المسجد ينتظر وفدًا من الكوفة، فجاءوا المسجد فلم يروا أحدًا فرجعوا، فإذا غلمان يلعبون، فسألوهم عنه فقالوا لهم: إنه نائم في المسجد يتوسد برنسه. فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسد برنسًا له كان قد لبسه للوفد، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام، وليس في المسجد غيره، والدرة معلقة في يده، فقال الهرمزان: وأين عمر؟ فقالوا: هو ذا، وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه، وجعل الهرمزان يقول: وأين حُجَّابه؟ وأين حرسه؟ فقالوا: ليس له حُجَّاب ولا حرس، ولا كاتب ولا ديوان. فقال الهرمزان: ينبغي أن يكون هذا نبيًا، فقالوا: إنه يعمل عمل الأنبياء. وكثر الناس، فاستيقظ عمر من جلبتهم، فاستوى جالسًا ثم نظر إلى الهرمزان وسأل: الهرمزان؟ فقالوا: نعم، فتأمله وتأمل ما عليه، ثم قال: أعوذ بالله من النار وأستعين بالله، ثم قال: الحمدلله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدي نبيكم، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غدارة، فقال الوفد: هذا ملك الأهواز فكلمه، فقال: لا، حتى لا يبقى عليه شيء من حليته، ففعلوا ذلك وألبسوه ثوبًا صفيقًا، فقال له عمر: ياهرمزان، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله، فقال: ياعمر، إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم، إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا، فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا، ثم قال: ماعذرك وما حجتك في إنتقاضك مرة بعد مرة، فقال الهرمزان: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك، فاستسقى الهرمزان ماء، فأتي به في قدح غليظ، فقال: لو مت عطشًا لم أستطع أن أشرب في هذا، فأتي به في قدح آخر يرضاه، فلما أخذه جعلت يده ترعد، وقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فسكب الهرمزان الماء، فقال عمر: أعيدوه عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش، فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأنس به، فقال عمر: إشرب فإني قاتلك، فقال: إنك أمنتني، قال كذبت، فقال أنس: صدق ياأمير المؤمنين، فقال عمر: ويحك ياأنس، أنا أؤمِّن من قتل البراء بن مالك ومجزأة بن ثور، لتأتيني بمخرج وإلا عاقبتك، قال أنس: لقد قلت له: لا بأس عليك حتى تشرب، وقلت له لا بأس عليك حتى تخبرني. قال عمر للهرمزان: لقد خدعتني، وإذا لم تسلم فلن أنخدع لك، فأسلم. وبعض الناس يرون أنه هو الذي دبر مقتل أمير المؤمنين عمر مع أبي لؤلؤة المجوسي لعنه الله.

كان عمر يناظر الهرمزان في المدينة، بينما كان قائد جند المسلمين في فارس أبوسبرة بن ابي رهم يسير بمن معه من علية الأمراء من تستر إلى السوس، فنازل أهلها وفتحها الله عليه بعد أن قُتِلَ خلق كثير من الفريقين، وخلف عليها أباموسى الأشعري، ثم مضى فتقدم إلى جندي سابور، وكان جند كسرى يتقهقرون أمامهم من بلد إلى بلد مع ملكهم يزدجرد الذي يرى ملكه ينهار أمامه ويقع في قبضة المسلمين بقعة تلو بقعة، واقتضى الوضع الجديد أن تكثر الجيوش ويتعدد القادة المؤمنون المجاهدون الذين دخلوا تاريخ الفداء والبطولة من أوسع أبوابه، وكتبوا فيه أنصع صفحاته.

وكما كان أبوسبرة يثير جدل الفرس في جهاده لهم مابين يائس من لقائه، ومحرض على مواجهته، فإنه قد أثار بين المسلمين جدلاً آخر دام حتى بعد موته. زعم بعض الناس أن أبا سبرة بن أبي رهم قد اتخذ دارًا بمكة وأقام بها في خلافة عثمان ﷺ، وقالوا إن هذا يخالف أمر النبي ﷺ الذي لم يرخص إلا لثلاث ليال في مكة بعد حج أو عمرة، وكره للمهاجر أن يعود فيقيم في مكة حتى تمضي له هجرته، ولكن حفدة أبي سبرة ينكرون أن يكون شيخهم المهاجر المجاهد قد فعل ذلك، وقد لقي وجه ربه الكريم في خلافة عثمان لينضم إلى ثلة المقربين، الذين يشهدون كتابًا مرقومًا يسمى في الجنة عليين، بقرب رب كريم، له الحكم وإليه ترجعون.





خُرَيم بن فاتك الأسدي

يثير إسلام خريم قضية عقائدية تشتبك فيها الحقيقة بالأسطورة، وتتداخل في عناصرها أنداء الحق مع أوهام الخرافة. ولكن لنطرح أولاً قصة إسلام خريم وهجرته كما رواها ابن عباس ﷺ.

قال ابن الأثير: روى محمد بن خليفة الأسدي عن الحسن بن محمد عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب ذات يوم لابن عباس: حدثني بحديث تعجبني به، فقال حدثني خريم بن فاتك الأسدي قال: خرجت في بغاء إبل لي، فأصبتها بأبرق العزّاف (ماء لبني أسد بن خزيمة وهو في طريق القاصد إلى المدينة من البصرة) فعقلتها، وتوسدت ذراع بكر منها وذلك حدثان خروج النبي ﷺ (أي في أول هجرته إلى المدينة) ، ثم قلت: أعوذ بكبير هذا الوادي وكذلك كانوا يفعلون وإذا هاتف يهتف بي، ويقول:

ويحك عذ بالله ذي الجلال	**منزل الحرام والحلال**
ووحد الله ولا تبالي	**ماهول ذي الجن من الأهوال**

فقلت:

يا أيها الهاتف ما تخيل	**أرشد عندك أم تضليل**

فقال:

هذا رسول الله ذي الخيرات	**جاء بياسين وحاميمات**
وسور بعد مفصلات	**محرمات ومحللات**
يأمر بالصوم وبالصلاة	**ويزجر الناس عن الهنات**

قال خريم: فقلت: من أنت؟ يرحمك الله، قال: أنا مالك ابن مالك، بعثني رسول الله ﷺ على جن نصيبين، فقلت له: لو كان لي من يكفيني إبلي هذه، لأتيته حتى أومن

يه، قال: أنا أكفيكها حتى أؤديها إلى أهلك سالمة إن شاء الله تعالى، فاعتقلت بعيرًا منها، ثم أتيت النبي ﷺ بالمدينة، فوافقت الناس يوم الجمعة وهم في الصلاة، فإني أُنيخُ راحلتي، إذ خرج إليّ أبوذر فقال لي: يقول لك رسول الله ﷺ: أدخل، فدخلت، فلما رآني قال: ما فعل بك الشيخ الذي ضمن أن يودي إبلك في أهلك؟ أما إنه قد أداها إلى أهلك سالمة، فقلت: رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: أجل، رحمه الله.

قال ابن عباس: فأسلم وحسن إسلامه.

وكان الرجل إذا نزل بالمدينة، وله من يعرفه فيها نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع الفقراء أصحاب الصفة، ومن هؤلاء خريم بن فاتك ﷺ، ترك جماله وأهله وبسطة عيشه، وهاجر دون حتى أن يُعد نفسه لذلك، لقد رأى علامة هي أقرب إلى المعجزة على صدق رسول الله ﷺ، وعلم منها أن هذا النبي يدعو إلى عبادة الله وحده، الذي يبين الحلال والحرام، وأن من يعتصم به لا يبالي بغيره، ومن يطلب الغنى في طاعته لا يشعر بالفقر لأحد من عباده، وأنه عز وجل أنزل على رسوله سورًا محكمة من سور القرآن المجيد، بين فيها طريق الحق وطريق الضلال، وأمر عباده بالصلاة والصيام، ويحذر الناس من فعل المحرمات. هذه العلامة المعجزة التي أغلقت كل مداخل الشكوك، وألجمت عقل خريم بن فاتك فلم يبق له مجال للتردد حيث سلم القلب بما رأى وسمع، وإذا كان العقل هو من وسائل القلب لكي يُسَلِّم، فإن خريمًا قد تجاوز هذه الوسيلة، وقفز قلبه إلى الرضا والإقبال.

ثم كانت العلامة الثانية حين استقبله أبوذر عند باب المسجد بأمر النبي ﷺ له أن يدخل، وقد أخبر الله عز وجل بقدومه.

ثم كانت العلامة الثالثة حين بشره النبي ﷺ بأن الجنيّ أدى الأمانة وأوصل الإبل إلى ذويها كاملة. والجن شأن الملائكة من الغيب الذي يجب على المسلم أن يسلم بوجوده وأن يؤمن به إيمانًا لا يعتريه ريب، ولا يتطرق إليه شك، وأن يصدق بأن الله عز وجل خلقهم من نار قبل أن يخلق آدم من الطين ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر ٢٦-٢٧).

وكان في الجن قبل خلق آدم عصاة ومهتدون، وأن العصاة أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فلما خلق الله عز وجل آدم من عنصر التراب الذي هو أدنى من عنصر النور الذي خلق منه الملائكة، وعنصر النار الذي خلق منه الجن، وأمر الله عز وجل

الملائكة بالسجود لهذا المخلوق الذي هو من أدنى العناصر، ولكنه جعله في أحسن تقويم، وأكمل تكوين، وأجمل صورة، فإن الجن كانوا مأمورين بالسجود مع الملائكة، وقد استجاب الملائكة والجن جميعًا لأمر الله عز وجل ووقعوا ساجدين، إلا جنيًا واحدًا فسق عن أمر ربه، ورفض السجود تكبرًا واستعلاءً ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر ٣٣). فسأله رب العزة ليفتح له باب التوبة أو ليلزمه الحجة فيقطع رجاءه في المغفرة ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿۞﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ، خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿۞﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿۞﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿۞﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿۞﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿۞﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (ص ٧٥-٨١).

فتمرد على ربه، وعصاه، وكفر، وتكبر فكان شيطانًا، وكتب الله عليه اللعنة فأبلس من رحمة الله، ودب الشر بينه وبين الإيمان، ووعد بأن يفتن كل من يهتدي إلى الله من الجن أو من البشر، قال ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿۞﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص ٨٢-٨٣).

فترصد إبليس ومن تبعه من الجن كل نبي يلقون في أمنيته، ويصدون عنه، وشمر المؤمنون من الجن يؤيدون المؤمنين، ويشدون من أزر الرسل، ولقد حاول الشياطين في عهد سليمان أن يزيغوا عن أمره فكان يذيقهم أشد أنواع الأذى، في حين تطوع من مؤمني الجن عفريت ليحضر عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين استجابة لأمر هذا النبي الكريم.

ومع النبي ﷺ، فإن الله منع الشياطين من استراق السمع فيما بين الملائكة، فإن إبليس أزعجه هذا الأمر، وعلم أن ذلك لا يحدث إلا لأمر عظيم حدث في الأرض، فأرسل فرقًا من ذريته إلى جهات الأرض المختلفة، وكان من فضل الله على سبعة منهم من أهل نصيبين أن كانوا بين مكة والطائف، فرأوا رسول الله ﷺ أثناء عودته من الطائف، وقد قام يصلي من الليل، ويتلو من كتاب الله عز وجل، ومالبث الجن الذين سمعوا القرآن أن آمنوا، وراحوا يقصون على قومهم قصتهم ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿۞﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿۞﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿۞﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿۞﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿۞﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿۞﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ

أَحَدًا ﴿۞﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿۞﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿۞﴾ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن ١-١٠).

ثم رجع وفد الجن إلى قومهم دعاة إلى الإسلام، وقد ذكر الله قصتهم في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿۞﴾ قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿۞﴾ يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿۞﴾ وَمَن لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ، أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأحقاف ٢٩-٣٢).

وكما أن الصراع كان على أشده بين المسلمين والكفار من البشر، فقد كان على أشده كذلك بين المؤمنين والفجار من الجن. في بيعة العقبة قال كعب بن مالك، لما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط، ياأهل الجباجب (منازل النازلين بمنى) هل لكم في مذمَّم والصباة معه (لعنه الله يقصد الاستهزاء باسم النبي محمد ﷺ) قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: هذا أزبّ العقبة، هذا ابن أزيب، أتسمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك.

وفي الهجرة المباركة لم يعرف المشركون وجهة النبي ﷺ حتى أقبل رجل من الجن يتغني بأبيات، والناس يتبعونه، يسمعون صوته ومايرونه.

جزى الله رب العرش خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروّحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

في معركة القادسية كانت العرب من اليمن إلى اليمامة يتربصون بهذه الموقعة، ويرون أن ثبات ملكهم وزواله بها، وقد بعث أهل كل بلدة رسولاً يكشف ما يكون من خبرهم، ولكن الجان كانوا أسبق إليهم بحمل البشارة. فقد سمعت امرأة من الجن على راس جبل بصنعاء وهي تقول:

أقاموا لكسرى يضربون جنوده ... بكل رقيق الشفرتين مهند
إذا ثوب الداعي أناخوا بكلكل ... من الموت مسودّ الغباطل أجرد

وسمع أهل اليمامة جنيًا يقول:

وجدنــا الأكرمــين بــني تميــم	غــداة الــروع أكــثرهم رجــالا
همــوا ســاروا بــأرعن مكفهــر	إلى لجــب يرونهــم رعــالا
بحــور للأكاســر مــن رجــال	كاســد الغــاب تحســبهم جبــالا
تركــت لهــم بقــادس عــز فخــر	وبــالخيفين أيامــا طــوالا
مقطعــة أكفهــم وســوق	بمــرد حيــث قابلــت الرجــالا

وقد اقترن كفر الشياطين بالسحر منذ قديم الزمان في بابل وفي مصر، وقاومهم وأبطل سحرهم أنبياء مثل سليمان وموسى عليهما السلام، وهنا اختلط الحق بالباطل، وتمازج سحر الشياطين بخرافات الناس، ونسب الناس إلى الجن كل مرض يصيبهم، وتلك قصة كثر فيها الجدال، وليس هنا موضع مناقشتها، لكنها أثيرت بسبب الحديث عن خُرَيم بن فاتك المهاجر البدري المؤمن الذي يستجيب لله ولرسوله إذا دعاهم لما يحييهم.

عن شمر بن عطية عن خريم بن فاتك قال: نظر إليَّ رسول الله ﷺ فقال: أي رجل أنت لولا أن فيك خصلتين، قلت: وما هما يارسول الله؟ إن واحدة تكفي، فما هما؟ قال: تسبيل إزارك، وتوفير شعرك، قال: فرفع إزاره وأخذ من شعره.





مسطح بن أثاثة

ابن عباد بن المطلب بن عبدمناف، ويُكنّى أبا عبّاد. وأمه أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبدمناف، وكانت من المبايعات.

بدأت معرفتي بمسطح بن أثاثة ﷺ منذ كنت صغيرًا، ولم تكن معرفته مريحة بالنسبة لي واستغفر الله وذلك لدوره في حديث الإفك. ولعل سبب ذلك هو نوع التربية التي نشأ عليها مثلي كثير، فلم يوضع لنا منهج نفهم منه تاريخ الإسلام وأهله. منهج يعضد بعضه بعضًا. يعرفنا بالحديث ويحلله ويذكر أبعاده حتى لا نقع في خطأ التعاطف أو التحامل بدون موضوعية، ومن غير وعي صحيح.

إننا نتلقى المعرفة بتاريخنا شذرات أو حبات لا ينتظمها عقد يلملم أطرافها، وينتظم مفرداتها ليكون منها بيئة تربينا وتنهض بنا، ومن ثم يكون حكمنا على الحبة منفردة غير مضمومة لما قبلها، ولا لصيقة بما بعدها، وهذا يؤدي إلى قصور في الرؤية، وإلى أخطاء في الحكم يُخْشَى من سوء عاقبتها على يقين المسلم أو على صلاحه.

وإذا تم التعامل مع أحداث السيرة الشريفة بمنطق التكامل، والوعي الكافي فإن صحابيًا جليلاً عظيمًا مثل مسطح سوف يكون من مواطن الأسوة الحسنة للمسلم، ويبقى دوره في حديث الإفك نقطة حالكة السواد قد محتها التوبة، في ثوب ناصع البياض.

كان مسطح من السابقين إلى الإسلام، وهذا شرف استحق عليه الثناء من الله عز وجل. وكان مسطح من المهاجرين، والهجرة مرتبةٌ ترفع المهاجر إلى درجات الصديقين والصالحين. وشهد مسطح بدرًا، وكأن الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر ثم قال لهم افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وشهد مسطح أحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

أما عن دور مسطح في حديث الإفك، فهذا ما سنعرض له بتفصيل كما ورد عن أمنا عائشة رضي الله عنها وجمع من الصحابة والصحابيات كل قد حدث ببعضه، وكل يتم حديثه حديث بعض، وكلهم عندها ثقة، ومنهم أم مسطح رضي الله عنها.

وكان النبي ﷺ إذا أراد سفرًا، أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق خرج سهم عائشة فصحبت النبي ﷺ. وكانت نساء النبي ﷺ قد تعلمن منه أن لا يأكلن إلا ما يقيم أودهن ويحفظ عليهن الحياة، فكانت عائشة بسبب ذلك خفيفة اللحم، حتى إذا حمل هودجها لا يعلم إن كانت فيه أو كان فارغًا. وكانت إذا رحل لها بعيرها جلست في هودجها، ثم يأتي القوم فيحملون الهودج فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

فلما فرغ النبي ﷺ من بني المصطلق ركبوا راجعين إلى المدينة، حتى إذا كان قريبًا منها نزل منزلاً فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، وكانت عائشة قد خرجت مع النسوة لقضاء بعض حاجاتهن وانسل من عنقها عقد فيه خرز ظفاريّ من اليمن كانت تحبه، فلما رجعت إلى رحلها ذهبت تلتمس العقد في عنقها فلم تجده، فأسرعت تبحث عنه حتى وجدته، ولكن القوم كانوا قد حملوا هودجها ثم أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به، ورجعت إلى العسكر، وما فيه من داع ولا مجيب، فتلففت بجلبابها، ثم اضطجعت في مكانها، وعرفت أنهم حين يفتقدونها سيرجعون إليها، أو أن بعض الناس يتخلف عن الركب ليلتقط ما يسقط من متاع الناس.

وكان المتخلف صفوان بن المعطل السلمي، فرآها وأقبل حتى اقترب منها وعرفها فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ، ثم قال: ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته، فقرَّب بعيره وقال: اركبي، واستأخر عنها فركبت، وانطلق سريعًا يطلب الناس، ولكنهم كانوا قد بلغوا المدينة، ولم يعرف أحد بفقدها حتى الصباح حين لم تخرج من هودجها، وتسامع الناس بفقد زوج النبي ﷺ، وإذا بهم يرون صفوان بن المعطل يطلع عليهم يقود البعير الذي تركبه أم المؤمنين، فاتهم أهل النفاق وكبيرهم عبدالله بن أُبيّ بن سلول صفوان بأم المؤمنين، وأفاضوا في كذبهم وكأنها قصدت أن تتخلف لشيء بينها وبين صفوان.

لم تلبث أم المؤمنين أن مرضت مرضًا شديدًا، فلم يبلغها شيء مما يدور بين الناس، ولكن أمر حديثهم بلغ رسول الله ﷺ، فكانت تنكر معاملته لها في مرضها، إذ لم تجد من لطفه ورحمته ما كانت تتمتع به من قبل، إذ كان إذا دخل عليها ومعها أمها تمرضها

أن يسأل أمها، كيف تيكم؟ لا يزيد عن ذلك شيئًا.

تقول رضي الله عنها: وجدت في نفسي، فقلت: يارسول الله حين رأيت من جفائه لي لو أذنت لي، فانتقلت إلى بيت أمي فمرضتني هناك؟ قال: لا عليك، فانتقلت إلى أمي، ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قومًا عُرْبًا، لا نتخذ في بيوتنا الكنف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، إنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب، وكانت أمها خالة أبي بكر الصديق.

قالت: فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها فقالت: تعس مسطح، قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا، قالت: أو بلغك الخبر يابنت أبي بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قلت: أو قد كان هذا؟ قالت: نعم والله فقد كان، فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت فوالله مازلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا، قالت: أي بنية، خَفِّضي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثر الناس عليها.

تقول أم المؤمنين: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم، ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت منه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي.

تولى كبر الحديث ابن أُبيّ والمنافقون معه، ولم يكن لمسطح ولا لحمنة بنت جحش إلا أنهم نقلوا الخبر إلى بيت أبي بكر، فهم نقلوا قول المنافقين دون أن يكونوا منهم مثلهما مثل حسّان بن ثابت رضي الله عنه. ولم يكن النبي ﷺ يعني في خطبته غير زمرة المنافقين، وكلهم من الخزرج وبسببهم اختصم سعد بن معاذ الأوسي مع سعد بن عبادة الخزرجي، حين عرض ابن معاذ قتلهم.

قال أبوأيوب الأنصاري لأم أيوب حين رأته: ياأبا أيوب ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ فسألها: ذلك الكذب، أكنت ياأم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ماكنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك.

ودعا النبي ﷺ عليًا وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى عليها خيرًا، وأما عليّ فكان يؤله مايشعر به النبي ﷺ فقال: يارسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها، وعلي يضربها ويقول أصدقي رسول الله ﷺ، فتقول: ما أعلم إلا خيرًا، وماكنت أعيب عليها إلا إني كنت أعجن عجيني وأطلب منها أن تحفظه فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

تقول أم المؤمنين: ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي وهي تبكي معي، فجلس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ياعائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك حتى قلص دمعي، وما أحس منه شيئًا، وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله فلم يتكلما، قالت: وايم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنًا من أن ينزل الله فيّ قرآنًا يُقرأ به في المساجد ويُصلّى به، ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئًا يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبرًا، فأما قرآن ينزل فيّ فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك، قالت: فلما لم أر أبوي يتكلمان قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ ؟ قالت: فقالا، والله ما ندري بم نجيبه؟ قالت: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام، قالت: فلما أن استعجما عليّ استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني، قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكني سأقول كما قال: أبويوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف ١٨). فوالله ما برح رسول الله ﷺ بمجلسه حتى تغشّاه من الله ما كان يتغشاه، فسُجّي بثوبه، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سُرِّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، ثم سُرِّي عنه فجلس، وإنه ليتحدر عرقه مثل الجمان (اللؤلؤ) في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: أبشري ياعائشة فقد أنزل الله براءتك، فقلت: بحمدالله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل من القرآن في ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ، لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿﴾ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿﴾ لَوْلا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ﴿﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿﴾ يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (النور ١١-١٧).

تتحدث الآيتان الأخيرتان فيما نقلناه من كتاب الله الكريم عن مسطح وحمنة وحسان، فهم تلقوا كلام المنافقين، ونقلوه بأفواههم، وهم يحسبون ذلك هينًا نظرًا لحسن نيتهم، وعدم إصرارهم على محادة الله ورسوله، وشديد حبهم لهما.

وأمر النبي ﷺ فجلد مسطح وحمنة وحسان، وتابوا إلى الله عز وجل، وبين الله عز وجل بقول حكيم معجز علامة توبته على مسطح، فإن أبا بكر كان ينفق عليه لفقره وحاجته، وعندما نزل القرآن ببراءة عائشة فإنه أقسم أنه لن ينفق على مسطح بعد ذلك أبدًا ولا ينفعه بنفع أبدًا، فأنزل الله عز وجل قوله ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا، أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور ٢٢).

فنصح أبابكر أن لا يفي بقسمه، وأكد على صلة القربى بينهما، وذكّر بأنه من المهاجرين الذين كتب الله في القرآن أنه رضي عنهم، فقال أبوبكر وهو الصدّيق بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

وشهد مسطح كل مشاهد النبي ﷺ، وأطعمه من غنائم خيبر، وبقي قريبًا منه، يصدع بالأمر وينتهي عند حدود الله، ويجاهد في سبيله، ويسلك سلوك أهل بدر، ويتبوأ مكانه بين الصحابة الكرام حتى انتهى إلى منزله في الجنة بإذن الله عز وجل سنة أربع وثلاثين وعمره ست وخمسون سنة.





مجَذَّر بن ذياد

بلويٌّ من الأنصار، أسلم مع مصعب، وشارك في استقبال النبي ﷺ يوم هجرته المباركة إلى يثرب. عُرف مجذَّر ببسالته وحدته في الخصومة والنزال. اختلف في الجاهلية قبل سنوات من الهجرة مع سويد بن الصامت واشتدت الخصومة والملاحاة فأشرع المجذر سلاحه وقتل سويدًا فاجتمعت عليه عشيرة سويد وحلفاؤهم، وانتصر للمجذر عشيرته وحلفاؤه، فاندلعت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج التي خلفت جروحًا عميقة بينهما، وتركت عداوة مستحكمة لم يقض عليها الصلح الظاهري الذي تم بينهما، ولم يقض على هذه العداوة في نفوس المؤمنين من القبيلتين وحلفائهما إلا الإسلام وحده، وقد مَنَّ الله عليهم بذلك فقال وله المنُّ وحده ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران ١٠٣). وخاطب النبي ﷺ بشأنهم فقال ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال ٦٣).

أوقف الصلح إراقة الدماء، وعصم الإسلام دم المجذَّر إذْ أنَّ الإسلام يجب ما قبله، فأسقط تارات الجاهلية لأنها تارات لم تكن في مجملها على الحق والعدل، ولقد وعت لنا ذاكرة التاريخ قصصًا كثيرة تبين كيف التزم المسلمون بالإسلام، ولم يجعلوا لأنفسهم خيرة في أمر يقضيه الله عز وجل أو رسوله ﷺ، لكن المنافقين، وإن أبدوا استعدادًا ظاهرًا لقبول الإسلام، لكنهم مازالوا على ضلالهم وعداوتهم، فهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، ويصف الله موقفهم المعاند المنافق ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ، وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨١-٨٢).

لقد ران على قلوب المنافقين اكتسابهم للخطايا، وختم الله عز وجل على قلوبهم فلم تخشع لذكر الله ومانزل من الحق، ولم يصب الوجل قلوبهم لذكر الله، ولم تزدهم آياته إيمانًا.

من هؤلاء المنافقين كان الحارث بن سويد بن الصامت الذي ظلت العداوة والبغضاء تملأ قلبه وتحرق كبده في انتظار الوقت المناسب لتبرز كالحة دميمة كأنها رأس شيطان رجيم.

وكان يوم بدر، وقد أراد النبي ﷺ أن يكون يومًا للمهاجرين فألزمهم بالخروج، وجعل فيه سعة للأنصار، فلم يعزم عليهم بالخروج لأنهم بايعوه على أن يمنعوه في المدينة، فلم يكن ليطالبهم بأكثر مما عاهدهم عليه، لكنهم أرادوا أن يجعلوا بدرًا يومًا للأنصار فكان لهم مثلما كان لإخوانهم المهاجرين.

وكان المجذر بن ذياد من أهل بدر، ولما وضع القوم أيديهم يأسرون من أهل مكة قال النبي ﷺ: إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، وكان المجذر قد أسر أبا البختري ومعه زميل له خرج معه من مكة وهو جنادة بن مليحة، وكان النبي ﷺ قد نهي عن قتل أبي البختري لأنه لم يؤذه قبل الهجرة، وكان يمنع من إيذائه، ولم يسئ للمسلمين، وكان ممن شارك في نقض صحيفة المقاطعة التي ألجأت قريش بها المسلمين إلى شعب أبي طالب.

قال المجذر لأبي البختري: إن رسول الله ﷺ نهانا عن قتلك، قال: وزميلي؟ قال: لا والله ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك، قال: لا والله إذًا لأموتن أنا وهو جميعًا، لا يتحدث عني نساء قريش بمكة أني تركت زميلي حرصًا على الحياة، ثم أنشد أبو البختري:

لن يترك ابن حرة زميله ... حتى يموت أو يرى سبيله

وأمسك كل منهما سيفه واقتتلا فقتله المجذر ثم أنشد:

إما جهلت أو نسيت نسبي ... فأثبت النسبة أني من بلي

الطـــاعنين برمـــاح الـــيزني — والضـــاربين الكبـش حتـــى ينحـــني

بشّـــر بيتـــم مـــن أبـــوه البخـــتري — أو بشّـــرن بمثلهـــا منـــى بـــنيّ

أنـــا الـــذي يقـــال أصلـــي مـــن بلـــي — أطعـــن بـــالصعدة حتـــى تنثـــني

وأعبـــط القـــرن بعضـــب مشـــرفي — أرزم للمـــوت كـــارزام المـــري

فلا يـــرى مجـــذرا يفـــري فـــري

ثم أتى المجذر رسول الله ﷺ فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلني فقاتلته. كان المجذر يخشى أن يكون خالف أمر النبي ﷺ بعدم قتل أبي البختري، ولكن النبي ﷺ لم يكن ليغضب منه، فأبوالبختري كافر، وقد خرج من مكة محاربًا للمسلمين، والمجذر أجدر بالبقاء منه، وقد كان يريد به الخير فلعله أن يسلم ولكن حين أخذته حمية الجاهلية، والخوف من حديث نساء قريش عنه بأنه تخلى عن زميله، فقد أودت به هذه الحمية، وقضى عليه تعاونه على الإثم والعدوان، وكان أحرى برجل في مكانته أن يتعاون على البر والتقوى، ولكن من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل الله فما له من هاد.

ثم كانت أحد، وخرج إليها مجذّر مثلما خرج صناديد المسلمين، رهبان الليل فرسان النهار، كلهم راغب في الشهادة، يسعى إليها ويعمل لها، وخرج مع المسلمين الحارث بن سويد بن الصامت، أخرجه نفاقه، والنار التي ترعى قلبه، والأحقاد التي لم يتمكن برد الإسلام من الوصول إليها ليطفئها.

خرج المجذر ينتصر لله ولرسوله، وخرج الحارث بن سويد ينتصر لضلاله، ويشفي أحقاده، ولم يكن من همه أن ينازل كافرًا أو أن يدافع عن مسلم، وإنما لكي ينتظر غرة في المجذر ليقتله بأبيه سويد، ورآه المجذر ولكنه لم يسيء به الظن، ولم يأخذ حذره منه، فالحذر من الكافر والغارة عليه، والمسلم حصن ووقاء للمسلم، يأمن حين يراه بجانبه، ويتدرع به، وبسبب ذلك تمكن الحارث في غمرة إنشغال المؤمنين بالجهاد من قتل المجذر حين جال الناس وحمي الوطيس، وهو يظن أن أحدًا لا يراه، ولكن عين الله عز وجل كانت ترصده، وأمينه جبريل كان ينزل على النبي ﷺ يخبره بما حدث، ويأمره إن ظفر بالحارث أن يقتله.

علم الحارث بأن النبي ﷺ يبحث عنه ليقتله، ففر إلى مكة مع المشركين، وبقي هناك حتى أنعم الله على نبيه ﷺ وفتحها له، وبعد الفتح دخل الناس في دين الله

أفواجًا، إما قناعة بالإسلام، وإما خوفًا من المسلمين، وكان من الذين أعلنوا عودتهم إلى الإسلام الحارث، وجاء إلى المدينة وهو يظن أن ذنبه قد نسي، وأن الرسول ﷺ سيتجاوز عنه، لكن الرسول ﷺ كان مأمورًا بقتله، فما أن اقترب من مسجد النبي ﷺ حتى كان عويم بن ساعدة ﷺ في انتظاره بالسيف ينفذ فيه أمر الله، ويقتصّ للشهيد الذي تعلقت روحه ببطن طائر بها زجل بالتسبيح تحت عرش الله الحق المبين.





هلال بن أمية

أبوه أمية بن عامر، أوسي من بني واقف. وأمه أنيسة بنت الهدم، أخت كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه النبي ﷺ في قباء لما قدم مهاجرًا من مكة. أسلم مع مصعب بن عمير إبان قدومه إلى المدينة مبعوثًا للنبي ﷺ يدعو إلى الإسلام ويعلم الأنصار ما نزل من القرآن، وما شرع من الدين.

وكان يكسر أصنام قومه بني واقف لينبههم إلى أنها لا تستطيع أن تدفع الضر عن نفسها فكيف تنفعهم أو تضرهم. وشهد بدرًا حين كُتِبَ القتال على المسلمين وهو كره لهم. وكان القتال في بدر كرهًا للمسلمين لأنهم خرجوا لغير ذات الشوكة، إذ أنهم دُعوا لأخذ عير قريش، ولم يظنوا أن يكون قتال، فلما فُرض عليهم القتال ولم يكونوا على أهبة له كرهوا أن يكون أول لقاء لهم معهم وعدد المشركين أكبر، وقوتهم أشد.

ظن المسلمون حينئذ كما يظن المسلمون اليوم أن أسباب النصر تتمثل في القوة المادية وحدها، فلفتهم الله عز وجل إلى أن القوة الروحية وحدها هي العامل الأوحد للنصر، وأن القوة المادية لا قيمة لها إلا إذا كانت خارجة من رحم القوة الروحية.

لقد كان إحقاق الحق في بدر يتلخص في إسناد أمر النصر إلى قدرة المولى عز وجل الذي ينصر من ينصره فيخلص له النية، ويصدق العزم، ويُحسن التوجُّه، ومن الناحية الأخرى، فإن إبطال الباطل يتحدد في أن يكل الناس أمر النصر إلى قوة الحديد والنار كما زين ذلك للكافرين غرورهم، وخيّله للمؤمنين ما كانوا قد ألفوه في جاهليتهم، حيث كان الناس موكولين إلى أنفسهم بعد أن تخلى الله عنهم حين تنكبوا طريقهم إليه.

أبان الله جل شأنه للمؤمنين أن لجوءهم إليه، واستغاثتهم إياه، واكتفاءهم بقوته

وحوله، وإفراده بالاستعانة هي التي تكسر حاجز الخوف، وتطفيء ما يشعل الكافرون من نار. ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال ٥-٨).

كان هلال بن أمية واحدًا من أهل بدر الذين استغاثوا ربهم فاستجاب لهم، وأمدهم بملائكته، وطهرهم، وأذهب الرجز عنهم، وربط على قلوبهم، وثبّت أقدامهم، فلم يولّ الأعداء دبره، فقتل الله أعداءهم ورمى عن المؤمنين وأوهن كيد الكافرين فلم تغن عنهم فئتهم شيئًا ولو كثرت، وقضى الله أمرًا كان مفعولاً، هلك فيه من هلك من المشركين عن بينة، وحيّ فيه من حيّ من المؤمنين عن بينة.

وإذ ثبت أن الله عز وجل إذا أحب عبدًا ابتلاه، فقد كان هلال بن أمية ممن شدّد الله عز وجل عليهم في البلاء، ولعل ذلك ليشتد حبُّه تعالى له.

من اشد ما ابتلي به هلال وليس أشده أن كان أحد الثلاثة الذين خلفهم الله عز وجل في غزوة تبوك، ولقد خلّفهم ليبتليهم، ثم ليكرمهم ويرضى عنهم، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك الشاعر الجهير الصوت، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. أما قصة التخلف فقد رواها كعب بن مالك، ونحن نثبتها من رواية ابن هشام في السيرة.

قال كعب: ما تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدًا تخلف عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد عير قريش، حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها.

قال: كان من خبري حيث تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، ووالله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفرًا بعيدًا، واستقبل غزوَ عدوٍّ كثير، فجلّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته، وأخبرهم خبره

بوجهه الذي يريد، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ يعني بذلك الديوان، يقول لا يجمعهم ديوان مكتوب.

قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظهر أنه سيخفي له ذلك، ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ حين طابت الثمار وأحبّت الظلال، فالناس إليها صُعُر (ميالون للثمار والظلال) . فتجهز رسول الله ﷺ، وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم، فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول في نفسي، أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى لي حتى شمّر الناس بالجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفرّط الغزو (أي فاته) ، فهممت أن أرتحل، فأدركهم وليتني فعلت، فلم أفعل، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج النبي ﷺ، فطفت فيهم، يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يارسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يارسول الله ما علمنا منه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثيّ (حزني) فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ غدًا، وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا راح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه، وصبّح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فسلّمت عليه، فتبسّم تَبَسُّم المغضب، ثم قال لي: تعاله، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: إني يارسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، لكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثًا كذبًا لترضين عني، وليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديثًا صدقًا تجد عليّ فيه، إني لأرجو

عقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضيَ الله فيك، فقمت، وثار معي رجال من بني سلمة، فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون قد اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمريّ، من بني عمرو بن مناف، وهلال بن أمية الواقفيّ، فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوة، فصمتُ حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيُّها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج، وأشهد الصلوات الخمس مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم اصلّي قريبًا منه، فأساوقه النظر، فإذا أقبلْتُ على صلاتي نظر إليّ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني حتى إذ طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ، فسلّمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: ياأبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدْتُه فسكت عني، فعدْت فناشدْته فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، ووثبت، فتسورت الحائط، ثم غدوت إلى السوق، فبينا أنا أمشي بالسوق، إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فجعل الناس يشيرون له إليَّ، حتى جاءني، فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسَّان، وكتب كتابًا في سرقة من حرير، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالْحقْ بنا نواسك، قال: قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضًا، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك، قال: فعمدت بها إلى تنّور فسجرته بها، فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: قلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي إلحقي بأهلك،

فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض، قال: وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، قالت: والله يارسول الله، ما به حركة إليّ، والله مازال يبكي ما كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، ولقد تخوفت على بصره.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ لامرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ في ذلك إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، قال: فلبثنا بعد عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، على الحال التي ذكر الله تعالى منا، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت عليّ نفسي.

وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلْع، فكنت أكون فيها إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع، يقول بأعلى صوته: ياكعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء الفرج.

قال: وأذِنَ رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب نحو صاحبيّ مبشرون، وركض رجل إليّ فرسًا، وسعى ساعٍ من أسلم، حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت ثوبيَّ فكسوتهما إياه بشارة، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة، يقولون ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيدالله فحياني وهنأني، ووالله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره (فكان كعب لا ينساها لطلحة) .

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال لي ووجهه يبرق من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، قال: قلت: أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قالَ: بل من عند الله، قال: وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر، قال: وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يارسول الله، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن انخلع من مالي، صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ، أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قال: قلت: إني ممسك سهمي الذي بخيبر،

وقلت: يارسول الله، إن الله قد نجاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقًا ما حييت، والله ما أعلم أحدًا من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أفضل مما أبلاني الله، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

وأنزل الله عز وجل: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة ١١٧-١١٨).

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط بعد أن هداني للإسلام كانت أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تبارك وتعالى قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة ٩٥-٩٦).

وقال: وكنا خُلّفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ليعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ما قضى، فبذلك قال الله تعالى: وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا. وليس الذي ذكر الله من تخليفنا عن الغزوة، ولكن لتخليفه إيانا، وإرجائه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه فقبل منا.

ويُعَقّب السهيلي في الروض الآنف على قصة الثلاثة بقوله: وإنما اشتد غضبه على من تخلف عنه، ونزل فيه من الوعيد ما نزل حتى تاب الله على الثلاثة منهم، وإن كان الجهاد من فروض الكفاية، ولكنه في حق الأنصار خاصة كان فرض عين، وعليه بايعوا النبي ﷺ، ألاتراهم يقولون يوم الخندق، وهم يرتجزون:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدًا

ومن تخلف منهم يوم بدر إنما تخلف لأنهم خرجوا لأخذ عير ولم يظنوا أن سيكون قتال، فلذلك كان التخلف عن رسول الله ﷺ في هذه الغزاة كبيرة لأنها كالنكث لبيعتهم. ولعل مما يشهد لقول السهيلي أن الله تعالى بعد آية واحدة من قصة الثلاثة

تحدث يحث أهل المدينة ومن حولها بعدم التخلف عن رسول الله ﷺ كي لا يفوتهم خير كثير، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأعْرَابِ أن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُواْ بِأنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ، ذَلِكَ بِأنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إلاّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إلاّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة ١٢٠-١٢١).

وبالإضافة إلى ما قاله السهيلي فإن العلماء يقسمون المجاهدة بالسيف إلى أقسام فيكون فرض كفاية إذا كان العدو بعيدًا ومن يليه من المسلمين يستطيع دفعه ودحره، ويكون فرض عين لمن يواجهون العدوّ، أو كانوا بعيدًا عنه لكن الذين يلونه لا يستطيعون دفعه إلا بمساعدتهم، أما مع النبي ﷺ فقد جعل البعض من خصوصياته ﷺ أنه إذا ندب الناس للغزو فعليهم إجابته فرض عين لا فرض كفاية، ومن يتخلف عنه يُعتبر عصى أمره وارتكب كبيرة التخلف عن الجهاد، يستوي في ذلك المهاجرون والأنصار، وشواهدهم في ذلك أن الآيات التي تحث المسلمين على الغزو تجمع كل مؤمن مثل قوله تعالى: ﴿يَاأيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ (الأنفال ٦٥)، وقوله تعالى: ﴿يَاأيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال ٦٤).

وقد كان التخلف عن الجهاد من أمارات النفاق، ومصدر لوم وتأنيب من الله عز وجل، لا يفرق في ذلك بين مهاجر وأنصاري، مثل قوله تعالى: ﴿يَاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإخْوَانِهِمْ إذَا ضَرَبُواْ فِي الأرْضِ أوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَامَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ، وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (آل عمران ١٥٦)، وقوله تعالى: ﴿يَاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال ٢٠). أي وأنتم تسمعونه إذا ندبكم للجهاد، وليس التوليّ عن الإسلام لأنه وصفهم بالإيمان في أول الآية.

كان لابد أن يُبتلى هلال في غزوة تبوك، وأن ينشر الله عز وجل خبره في القرآن الكريم لينفي عنه بأصدق الحديث شبهة النفاق، لأنه من أهل بدر الذين بشرهم النبي ﷺ بأن الله قد غفر لهم وإن فعلوا ما شاءوا، ولا يدخل النفاق في مجموع ما يغفره الله تعالى لأنه توعد بالعقوبة الشديدة من يتصف به ﴿إنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء ١٤٥).

وهو وصاحباه وإن كانوا قد تخلفوا عن الغزو كما تخلف المنافقون، ولكنهم كما

تبين من رواية كعب بن مالك لم يكونوا عازمين على التخلف ولا مصرّين عليه، وإنما قد يكون نوعًا من الضعف الذي يعتري المؤمن، أو شيئًا من التهاون سببّه ركون النفس إلى الدعة، ونفورها من تحمل مشاقّ السفر وقسوة الحرارة، أو غفلة عارضة عن تذوق نعيم الجنة الذي لا ينال إلا بالمكابدة والصبر، وكل هذه هنات تؤخذ على المؤمن ولكنها لا تصرف عنه وصف الإيمان، ولا تهوي به إلى درك النفاق الذي له طريق مغاير، وتدفع إليه نوايا سيئة القصد، خبيثة الهدف.

ذكرنا من قبل أن تخلُّف هلال بن أمية عن غزوة تبوك من أشد ما ابتلي به وليس أشده، أما أشد بلاء ابتلي به هلال فقد كان في داخل بيته، حين شاهد بعيني رأسه زوجته، وهي ترتكب رذيلة الزنا الذي كان فاحشة وساء سبيلا، وبسبب جريمتها، ومن أجل هلال كان تشريع اللعان، ولهذا حديث آخر.



هلال بن أمية وتشريع اللعان

نهى الله عز وجل عن الفواحش في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام ١٥١). ثم نهى عز وجل عن الزنا وسماه فاحشة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء ٣٢).

ورغم شيوع الزنا في الجاهلية، فقد كان العرب يرونه أكبر العار إذا وقع من الحرائر، فكان لا يقع منهن إلا نادرًا، وقد أخرج الشيخان في صحيحيهما عن ابن مسعود مرفوعًا (لا أحد أغير من الله، ومن أجل ذلك حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن) .

وعلى منوال سنة الله عز وجل في التدرج بالناس خطوة خطوة ليصل بهم إلى التشريع الذي تنصلح به حياتهم يصلح لكل زمان ومكان فإنه عز وجل اتبع في تدرج تشريع الزنا ثلاث مراحل:

- في المرحلة الأولى: كان التنفير من الفواحش ومن بينها فاحشة الزنا والنهي عن كل ما يقرب إليها كالنظر المحرم، والاختلاط الزائد، والخضوع بالقول، والتبرج وإظهار الزينة، سدًّا للذرائع وقطعًا لأي طريق يؤدي إليها، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَى﴾ (الإسراء ٣٢).
- في المرحلة الثانية: شرع الحبس عقوبة للزواني والإيذاء عقوبة للزناة، فكانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت، وكان الرجل إذا زنى أوذي بالتعيير والضرب بالنعال، وقد نقل القرطبي قول ابن عباس: (النيل باللسان والضرب بالنعال) .
- في المرحلة الثالثة: فصّل الدين الحنيف حدّ الزنا، وهو مائة جلدة وتغريب عام للرجل غير المحصن، ومائة جلدة من غير تغريب للمرأة غير المحصنة، والرجم حتى الموت لكليهما إذا كانا محصنين.

وحتى لا يدع مجالاً لضعاف النفوس بإشاعة الفاحشة بين الناس بالخوض في أعراض المسلمين وإلقاء التهم جزافًا على الأشراف والشريفات فقد أحاط البيوت بسياج من الضوابط يقطع ألسنة الفضوليين والخائنين، فأرفق تشريع حد الزنا بتشريعين كبيرين:

التشريع الأول: هو عقوبة قذف المسلم أو المسلمة، أي اتهام أي منهما بالزنا من غير دليل، وهي عقوبة مركبة من ثلاثة عناصر:

عنصر بدني: يقضي بجلده ثمانين جلدة.

وعنصر أدبي: يقضي بحرمانه من بعض حقوقه الاجتماعية ونزع الثقة منه فلا يؤخذ بقوله، ولا تقبل شهادته.

العنصر الثالث: ديني وهذا يصمه بصفة الفسق، والفسق هو الخروج عن طاعة الله عز وجل.

يقول عبد القادر عودة في التشريع الجنائي: (وقد وضعت عقوبة القذف في الشريعة الإسلامية على أساس محاربة البواعث التي تدعو القاذف للافتراء والاختلاق، فالقاذف يرمي إلى إيلام المقذوف إيلامًا نفسيًا فكان جزاؤه الجلد ليؤلمه إيلامًا بدنيًا، لأن الإيلام البدني هو الذي يقابل بالإيلام النفسي، ولأنه أشد منه وقعًا على النفس والحس معًا، إذ أن الإيلام النفسي هو بعض ما ينطوي عليه الإيلام البدني.

والقاذف يرمي من وراء قذفه إلى تحقير المقذوف، وهذا التحقير فردي، لأن مصدره فرد واحد هو القاذف، فكان جزاؤه أن يحقّر من الجماعة كلها، وأن يكون هذا التحقير العام بعض العقوبة، فتسقط عدالته، ولا تقبل له شهادة أبدًا، ويوصم وصمة أبدية بأنه من الفاسقين) .

التشريع الثاني المواكب لعقوبة الزنا هو طريقة إثباته، وقد احتاط المولى عز وجل لإثبات هذه العقوبة حتى لا يدع مجالاً لمدّع يسعى إلى تلويث سمعة مسلم، أو تشويه شرف مسلمة، ولا يترك ثغرة لشبهة أو خطأ بشري مما يعتري الناس في بعض الأحيان.

ولكي يسدّ الإسلام أي ذريعة للخطأ أو الادعاء فقد جعل الزنا لايثبت إلا بطريقتين اثنتين:

- الأولى: إقرار الزاني نفسه، وذلك بعدة شروط يجب أن تجتمع فيه وهي العقل والبلوغ والصحة والاختيار، وأن يكون الإقرار بالكلام الصريح، واشترط بعض

العلماء أن يكون الإقرار أربع مرات وفي مجالس متعددة، وهم يستنبطون هذه الشروط من فعل النبي ﷺ حين سأل ماعزًا إذ جاءه مقرًا بالزنا، فقال له: أبك خبل؟ أبك جنون؟، وبعث إلى قومه فسألهم عن حاله، فلما عرف أنه سليم العقل سأله هل فاخذت؟، لعلك قبلت، وفي رواية عن حديث الغامدية وقد أقرت بالزنا أنه سألها أربع مرات وهي تثبت.

- أما الطريقة الثانية لإثبات الجريمة فهي الشهادة، وهي تثبت بشروط إذ لا بدّ أن يكونوا أربعة من الرجال البالغين العقلاء المشهود لهم بالعدالة وحسن الإسلام، وأن يشهدوا بأنهم رأوا الفعل كاملاً مثل المرود في المكحلة والرشاء في البئر، وأن لايكون قد مرّ على رؤيتهم لهذا الفعل القبيح وقت طويل.

قال سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ: أرأيت لو وجدت مع امرأتي رجلاً أأمهله حتى آتي بأربعة شهداء؟، فقال له النبي ﷺ: نعم.

وهذا يقتضي أن الشهود لو كانوا أقل من أربعة، أو كانوا أربعة لكنهم لم يصفوا الفعل كاملاً فحكمهم حكم من يقذف غيره بالزنا بغير دليل، ويقام عليه حدّ القذف، وتسقط عدالته ويكون فاسقًا.

يقول ابن تيمية: إن الإنسان إذا عجز عن أن يأتي بأربعة شهداء لإثبات اتهامه فليس معناه أنه كاذب، لأنه من الممكن أن يكون صادقًا في اتهامه في واقع الأمر، ولكن عجز عن الإتيان بالشهداء، فلأي سبب يحكم عليه بالفسق لا عند الناس فحسب، وإنما عند الله أيضًا لمجرد عدم ثبوت اتهامه؟ فالجواب أن من شاهد بعينيه رجلاً يزني، فهو مخطئ إذا أشاع خبره في المجتمع أو رفع أمره للمحكمة بدون بينة، لأن الشريعة لا تريد إذا كان رجل جالسًا بالقذر في ناحية، أن يحمله إلى غيره منه وينشره في المجتمع كله، بل على هذا الغير - إذا وقع وجود القذر في تلك الناحية - بأحد الطريقين، إما أن يتركه مكانه ولا يتعرض له بشيء، أو يقدم الشهادة في المحكمة على وجوده حتى يزيله حكام الدولة الإسلامية، وليس له طريق ثالث غير هذين الطريقين البتة، فهو بهذا الوجه إذا نقل خبره إلى الناس ارتكب جريمة إشاعة القذر المحدود على نطاق واسع، وإذا رفعه إلى الحكام بدون شهادة كافية يطمئنون إليها، كان نتيجته أن يشيع القذر في المجتمع كله، ويتشجع فيه ذوو الغرائز المنحطة، فمرتكب القذف بدون شهادة الشهود فاسق ولو كان صادقًا في ذات نفسه.

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: إن الحدود التي هي خالصة لله، وليس للعبد فيها حق هي جريمة الزنا، وإنك ترى الجانب الشخصي غير ملاحظ في عقوبة الزنا، فإن الاعتداء الشخصي بين الرجل والمرأة غير واضح، ولكن ثمة اعتداء آخر، هو الاعتداء على الأسرة والاعتداء على النسل، والاعتداء على النظام الاجتماعي الذي نظم الله فيه العلاقة بين الرجل والمرأة بعلاقة قدّسها الله بكلمته وهي الزواج، كما قال ﷺ: (اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم استحللتم فروجهن بكلمة الله) ، فكلمة الله هي المنظمة لتلك العلاقة الإنسانية، فمن أوجد علاقة بغير هذا الذي أحله الله تعالى، فقد اعتدى على النظام الذي قرره الله تعالى.

لكن أكثر ما أهم المسلمين هو تساؤلهم عن حال الزوج إذا دخل بيته فوجد رجلاً على بطن امرأته - حسب تعبير عاصم بن عدي - فإن ذهب يبحث عن أربعة رجال يشهدون بذلك، فقد قضى الرجل حاجته وخرج، وإن قتله قتل به، وإن قال وجدت فلانًا مع تلك المرأة ضرب، وإن سكت سكت على غيظ.. ثم دعا عاصم فقال: اللهم افتح.

وأثار سعد بن عبادة نفس التساؤل أمام النبي ﷺ وعقب النبي على تساؤله فقال: اللهم احكم.

ثم ما لبثوا إلا يسيرًا بعد هذه التساؤلات حتى وقعت في المدينة حوادث رأى فيها بعض الناس مثل هذا الأمر مع نسائهم، فقد أتى هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ذلك واشتد عليه، وقال: البينة وإلاّ حدٌّ في ظهرك، فاجتمعت عليه الأنصار وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلالاً، ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي مخرجًا، وقال لرسول الله ﷺ: فإني أرى ما اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق، وهم رسول الله ﷺ بضرب هلال، ولكن الله عز وجل تداركه برحمته وأنزل آيات اللعان.

بعد نزول هذه الآيات أرسل رسول الله ﷺ إلى هلال وزوجته فتلاها عليهما، وذكّرهما، وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله، لقد صدقت عليها، أما هي فقد كذبته فلاعن بينهما بأن شهد هلال أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كانت الخامسة قيل له: يا هلال: اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه هي الموجبة التي توجب عليك العذاب، والله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب؟ فقال هلال: والله لا يعذبني الله

عليها كما لـم يجلدني عليها، فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قيل للمرأة اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتقي الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

فتم التفريق بينهما، وأن لاينتسب ولدهما لأب، ولا يُرْمَى ولا ترمى هي ومن رماها يقام عليه الحد، وليس لها حق في نفقة ولا بيت.

ثم تكون نهاية القصة حين ظهر حمل المرأة التي لاعنها هلال، فقال النبي ﷺ: إن جاءت به أصهب أُرَيشح (في شعره حمرة وخفيف لحم الإليتين) دقيق الساقين فهو لهلال وإن جاءت به أورق جعدًا جماليًا خدلج الساقين سابغ الإليتين (أسمر - قوي الخلقة - مجعّد الشعر - ضخم الإليتين) فهو الذي رميت به، فجاءت به على الوجه الثاني، فقال رسول الله ﷺ: لولا الإيمان لكان لي ولها شأن.

يعلق الدكتور كامل الدقس في تفسير سورة النور فيقول: هذا هلال بن أمية يرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ولكنه يجد نفسه عجوزًا فيغلب مشاعره، ويغلب تقاليد قومه الموروثة، التي تضرب الجاني والجانية بالسيف في الحال، وتقطعهما إربًا إربًا، ولكنه يكبح غليان دمه، وفورة شعوره، واندفاع أعصابه، ويربط على كل هذا في انتظار حكم الله، وحكم رسوله ﷺ، وهو جهد شاق مرهق، ولكن التربية الإسلامية أعدت النفوس لاحتماله كي لا يكون إلا الله، في ذات الأنفس، وفي شئون الحياة، كيف. أمكن أن يحدث؟ لقد حدث لأنهم كانوا يحسون أن الله معهم، وأنهم في كنفه ورعايته، وسيجعل لهم من بعد ضيق مخرجًا، ومن بعد عسر يسرًا، فها هو هلال يقول قوله الواثق المطمئن تمام الاطمئنان إلى مولاه، ولا يخطر بباله أن يتخلى الله عنه، أو يتركه لما هو فيه، لأنه موصول القلب بالله واثق من عدله وحكمته، فهو يقول: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا، وهو واثق من رحمة الله في الآخرة، وأنه تعالى لن يناله بعذابه وسخطه فيقول: والله لا يعذبني الله عليها كما لـم يجلدني عليها، لأنه صادق في دعواه، فلما بشر الله هلالاً بنزول المخرج له ولأمثاله من الأزواج يقول هلال قوله الواثق المطمئن: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل، فهذه هي التربية القرآنية العميقة الهادئة التي ربت النفوس وهذبتها بالقرآن حتى جعلت منهم خير أمة أخرجت للناس.

ولعلنا والحديث عن هلال بن أمية نستشرف بعض الدروس من ارتباط تشريع اللعان بواحد من أهل بدر.

إن هذا التشريع مع كونه حدًّا يعالج قضيّةً شائكة، وهي اكتشاف الزوج أن زوجته ترتكب الفاحشة إلا أنه يعالج كذلك قضية إيمانية بالغة الخطورة تمس المؤمن باعتباره عبدًا لله، فتختبر عمق إيمانه، ومدى عبوديته، ولا يتم له ذلك إلا إذا تخلص من عبوديته عادات الجاهلية، وأخلاقياتها، وتجرد من حميتها وغضباتها، فلا يكون رضا إلا بما يرضي الله عز وجل، ولا يكون غضب إلا لما يغضب الله عز وجل، ويقف عند حدوده فلا يعتدي حلالها، ولا يقرب حرامها، موقنًا أتم اليقين أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، وأن حكمة الله بالغة، وهي إن خفيت عليه حينًا فذلك راجع لقصور فيه وليس لغموض فيها، ولكنه: إن أبصر فرأى الحكمة أو خفيت عليه مطمئن بها، ساكن إليها، يسمع ويطيع ويسلم تسليمًا.

وعند ذلك يبرز دور هلال. مسلم جاهد ميراث الكفر الذي حمله من الآباء والأجداد، وتخلص من ربقة العبودية لغير الله. وجاهد قومه فانطلق يكسر أصنامهم بليل حتى يروا بأعينهم أنها لا تستطيع أن تدفع الضر عن نفسها فكيف تدفع ضرًا أو تجلب نفعًا لغيرها. وجاهد حب الحياة والضنّ بالنفس في بدر وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ.

وعندما وهنت عزيمته بعض الشيء في تبوك فإن الله عز وجل قد ابتلاه مع صاحبيه لتعود القوة إلى إيمانهم، ويعلن على رءوس الأشهاد أنه يحبهم وأنه راض عنهم، وقد تاب عليهم.

اقتضى تشريع اللعان أن يكون مثله ونموذجه ووسيلته التوضيحية هلال بن أمية، بتكوينه الجديد، وصبغته الإيمانية الجديدة.

كبُر على المسلمين أن يرى الرجل زوجته تخونه، ثم يخرج باحثًا عن شهود يثبتون عليها خيانتها، ورأى هلال في أهله ما كبر عليهم، غضب لنفسه، وجاشت عواطفه، واستفزته الغيرة على عرضه، ولكنه كبح كل ذلك بكابح الإيمان، إن خيانتها لا تشينه في شيء، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، إنها هي التي خانت، وهي التي أخطأت، وقد كشف الله أمرها حتى لا يعيش مخدوعًا ملوّث الشرف.

ولم يخرج ليبحث عن شهود، وإنما ذهب يبلغ رسول الله ﷺ بما رأى، وهو واثق

بأن الله عز وجل سيجعل له مخرجًا، وأن عدالته ورحمته سيشملانه، فلن يجلد وهو على حق، ولن يصبح مجرمًا وهو الذي حاق به الظلم، إنه سيكون راضيًا حتى لو جلد، ولكنه مطمئن أن ذلك برغم رضاه به لو حدث فإنه لن يحدث.

ولم يخلف الله الحكيم ظنه فكان المخرج الذي اطمأنت نفسه أنه سيكون. وعندما نزلت آيات اللعان وفيها مخرجه لم يفاجأ بها، وإنما كانت هي المخرج الذي ينتظره، وكان واثقًا من قدومه ثقته في أن سيده ومولاه يختار له ما لا يستطيع هو أن يختاره لنفسه.

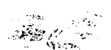
وعندما نصح بعد اليمين الرابع بأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقد كانت إجابته المؤمنة الموقنة، والله لن يعذبني الله عليها كما لم يجلدني فيها. الرجل الذي يضبط نفسه التزامًا بشريعة الله، فيملك نفسه عند الغضب إذ وجد أهله في موقف خيانة، هو مسلم أسلم نفسه لله، وخضع لشريعته، واطمأن قلبه لحكمه، وقد خلص نفسه من تراث الجاهلية وقيمها وحميتها، وضعفها في مواجهة معضلات الحياة، واكتسب قوة الروح والإيمان، فهو يندفع إذا أمره دينه بالاندفاع، ويتوقف إذا أمره دينه بالتوقف، وهو مأجور في الحالين، وقوي في الموضعين.

بقيت مفارقة يثيرها الحديث عن هلال بن أمية، وصبره على الأذى والتزامه بأوامر الله، فإذا ووجه المسلم بمن يحاول أن يعتدي على عرضه بالقوة، فإن واجبه يحتم عليه أن يدفع هذا العدوان بكل وسيلة ممكنة، بدءا من النصيحة والتهديد إلى الدفع بالقوة حتى ولو أدى ذلك إلى قتل المعتدي أو أن يموت هو، فإذا مات وهو يدافع عن عرضه فهو شهيد، وإذا قتل المعتدي فلا قصاص عليه، فقتل المعتدي هنا جزاء له على عدوانه، والمسلم مأمور بدفع العدوان.

ولكن إذا وجد زوجته رضيت بالخيانة وضبطها متلبسة، فالأمر خارج عن أن يكون عدوانًا عليه، ولكنها خطيئة رضيت بها المرأة، واشتركت مع الآخر في الإثم، وتبقى رابطة الزوجية التي لم تصنها، ولم تحافظ على طهرها وعفافها، فاقتضى الأمر فك هذه الرابطة، وبنوع من التشهير يعبّر عن فداحة الجرم للتنفير منه، وفي هذا التشهير انتصار للزوج، وإعلاء لشأن الفضيلة، وحطٌّ شنيع لشأن من قبلت بارتكاب الرذيلة، وإعلاء لكلمة الله، التي يقوم بإعلائها رجال أقوياء مثل هلال بن أمية ﷺ.



المحتويـــــات



رقم الإيداع : ٩٨٨٩ / ٩٦
I. S. B. N: 977 - 19 - 1615 - 7